محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٦)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح — تليفون : ٥٠٨٥٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله مدبر الكون بإرادته ، وباعث الرسل بحكمته ورحمته ، ومنزل الكتاب الحكيم على محمد صلوات الله عليه داعيا إلى دينه وشريعته . . وبعد :

فهذا هو الجزء السادس من تفسير القرآن الحكيم ، هذا التفسير الجديد، الذى ضمنته شرحا لهذه المعجزة الخالدة ، والهداية العامة ، التى دلت على صدق محمد بن عبد الله فيما بلغ به عن ربه ، ودعا إليه من رسالته .

ويمتاز هذا التفسير بتمحيص الرأى ، وتوضيح الفكرة ، ودقة البحث ، وكثرة المراجعة ، وبأنه يتناول كتاب الله على أنه وحدة واحدة ، مباركة الهداية ، متصلة التفكير ، ويتناول آيات الله الدالة على موضوع واحد ، ثم الآيات التى تليها الدالة على موضوع آخر ، وهكذا ؛ فهذا التفسير يتناول القرآن موضوعا موضوعا وفكرة فكرة ، ولا يتناوله آية آية لما فى ذلك من تفريق تضيع معه الوحدة ، ولا تبين به الفكرة ، ولا يتضح معه الغرض ، ولا يستقيم معه الموضوع .. والأسلوب الحديث لهذا التفسير، وشرحه القرآن على ضوء المناهج العلمية الحديثة ، وتطبيقه له على ما جد فى عصرنا الراهن من ثقافات وأفكار وكشوف علمية ، كل هذا جدير بأن يجعل هذا التفسير مبارك الغاية ، عام النفع والهداية .

والهدف من ذلك تقريب أفكار القرآن الكريم إلى ذهن العصر الحاضر ، وتطبيق مبادئه وأصوله على أحدث النظريات التشريعية والعلمية والاجتماعية والسياسية ، لتبين منزلة القرآن الكريم فى التفكير ، وأهميته فى التشريع ، وضرورة الأخذ بتعاليمه فى كل مجتمع متحرر يريد لنفسه العزة والسيادة والقوة والأمن والسلام والحرية ..

والله أسأل أن يهدى المسلمين فى دينهم ودنياهم سواء السبيل ، وأن يرشدهم إلى ما فيه الخير والفلاح والفوز لعامتهم وخاصتهم فى الأولى والآخرة ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

تفسير آيات الجـــزء السادس

من كتاب الله الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٨ – لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا .

١٤٩ – إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا .

هاتان الآيتان الكريمتان هما مطلع هذا الجزء ، وهما فاتحة أول ربع منه ؛ ويشمل هذا الجزء آيات كريمات من آخر سورة النساء ، وآيات أخرى من سورة المائدة . وسورة النساء كما سبق أن قدمنا مثل رفيع من مثل الإسلام العليا فى التشريع والحكم والسياسة والأخلاق والآداب ، وتحتوى على كثير من النظم فى معاملة المسلمين لغيرهم ، وفى القانون الدولى ، وفى شئون الحرب والجهاد فى سبيل الله والدين ، وفى العناية بأمر المرأة واليتيم ، وفى كثير من مسائل الأسرة فى الزواج والطلاق والإرث وغير ذلك . .

والآيتان اللتان نحن بصدد تفسيرهما تحتويان على حكمة رفيعة ، لا يؤمن ويعمل بها إلا كل عاقل حكيم متزن ، يسعى لخير نفسه ، وخير المجتمع الذى يعيش فيه ، وخير وطنه الذى يحبه ويفتديه .

ومغزى الآيتين النهى عن الجهر بالسوء ، من مثل السب علانية فى الناس ، ومن مثل النميمة والوشاية والسعاية ، ومن مثل النطق بالألفاظ البذيئة والتفوه بها ، ومن مثل التحدث فى أعراض الناس فى المجالس ، وتناول حياتهم العامة والخاصة بمرأى من الناس ومسمع ، وسوى ذلك ، والنهى عن مثل هذا لما فيه من تقطيع وحدة المجتمع الإسلامى ، وإشاعة الفوضى والفساد والحقد والحسد فيه . . ثم حبذ الله عز وجل فعل الخير فى شتى صوره وألوانه ، وحث على العفو عن إساءة المسىء .

بين الله عز وجل الكثير من أحوال أهل الكتاب وعيوبهم ومفاسدهم في الآيات السابقة على مطلع هذا الجزء ؛ لإقامة الحجة عليهم ، وتحذير المؤمنين من شرورهم ومن الوقوع في مثل أعمالهم ؛ وهنا في هاتين الآيتين يبين الله عز وجل الجهر بالسوء وضرره ، وينهى عنه ، ويحذر منه ، ويدعو إلى الصدق والإحسان سواء أبداها المتصدق أو أخفاها ، وإلى العفو والصفح والتجاوز عن السوء .

إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول ولا الإسرار به ، كما يعلم من نهيه تعالى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وأمره بالتناجي بالبر والتقوى فقط ، وإنما خص الجهر هنا بالذكر لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين في هذا السياق كما علمت . والجهر بالسوء أشد ضرراً من الإسرار به ، لأن ضرره وفساده يفشو في جمهور الناس حتى لا يكاد يسلم منه أحد .

قوله تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء » أي القبيح « من القول » من أحد ، أي يعاقب عليه « إلا من ظلم » أي جهر من ظلم ، وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما هو فيه من السوء فلا يؤاخذ به ، قال الله تعالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » قال الحسن البصري : دعاؤه عليه أن يقول : اللهم أعني عليه ، اللهم استخرج حقي منه ، وقيل : إن شتم جاز له أن يشتم بمثله لا يزيد عليه ، وقال مجاهد : هذا في الضيف إذا نزل بقوم فلم يكرموه ولم يحسنوا ضيافته ، فله أن يشكو ويذكر ما صنع به . وروى أن رجلا أضاف قوماً ـ أي نزل بهم ضيفاً ـ فلم يطعموه ، فأصبح شاكيا ، فعوتب على الشكاية فنزلت ، وعن عقبة بن عامر ، قال : قلنا يا رسول الله : إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى ؟ فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم « وكان الله سميعاً » لكل ما يقال ، ومنه دعاء المظلوم « عليما » بكل ما يفعل ، ومنه فعل الظالم « إن تبدوا » أي تظهروا « خيراً » من أعمال البر « أو تخفوه » أي تعملوه سرا « أو تعفوا عن سوء » أي عن

مظلمة ، فإن الله كان ، أى دائما ، أى أزلا وأبدا ، عفوا قديرا ، أى يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك ، وهو حث المظلوم على تمهيد العفو بعد ما رخص له فى الانتصار حملا على مكارم الأخلاق .

١٥٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

١٥١ — أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا .

١٥٢ — وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

هذه الآيات الثلاث فيها بيان للكافرين وجزائهم ، وللمؤمنين كذلك وجزائهم عند الله عز وجل ، فالآية الأولى تشرح جريمة هؤلاء الكافرين ، وتصور بأعظم بيان فداحة ما أقدموا عليه من ذنب ، وما سولت لهم أنفسهم من الكفر ، وأنهم كفروا بالله ورسله وكتبه ، وقالوا : إن لنا الخيار حتى فى الدين ، نؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ أما الآية الثانية فهى رد بليغ شديد عليهم ، وهى تصور جزاءهم وعقابهم عند الله . وأما الآية الثالثة فهى فى المؤمنين بعكس هؤلاء الكافرين ، وهى كالرد على هؤلاء الجاحدين أيضا ، وفيها يبين الله عز وجل أمر طائفة كريمة من الناس ، كريمة على نفسها وعلى الله ، طائفة آمنت بالله ورسله وكتبه ، وأطاعت الله وعبدته حق الطاعة والعبادة ، فأولئك لهم جزاؤهم الكريم عند الله ، ولهم الثواب المقيم والنعيم العظيم فى اليوم الآخر ، وقد عبر الله عز وجل هنا بأنه سوف يؤتيهم أجورهم فحسب ، وذلك بلا شك دليل على كثرة هذا الجزاء وعلى عظمته ؛ فقد نزلت هذه

الآيات فى اليهود ، آمنو بموسى والتوراة وعزير ، وكفروا بعيسى والإنجيل ومحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن . وذكر المؤمنين وثوابهم هنا إنما هو على سبيل التبع واستطراد للمقابلة بين الكافرين والمؤمنين ، وللرد عليهم من طرف خفى ، وبعث التحسر والأسى فى قلوبهم .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله » هم اليهود « ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » أى نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم ، أو نؤمن ببعض الدين ونكفر ببعضه الآخر « ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا » أى طريقا وسطا بين اليهودية والإسلام ولا واسطة ؛ إذ الحق لا يختلف ، فإن الإيمان بالله إنما يتم بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلا وإجمالا ، والكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل فى الضلال ، قال تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ « أولئك هم الكافرون » أى الكاملون فى الكفر ، وقوله تعالى « حقا » مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله « وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » أى ذا إهانة وهو عذاب النار فى الآخرة ، وعذاب الذل والمهانة فى الدنيا . ولما بين سبحانه وتعالى ما أعده للكافرين بين ما أعده للمؤمنين بقوله تعالى « والذين آمنوا بالله ورسله » كلهم « ولم يفرقوا بين أحد منهم » بأن كفروا ببعض وآمنوا ببعض ، كما فعل أولئك الأشقياء « أولئك » أى العالو الرتبة فى رتب السعادة « سوف نؤتيهم » بوعد لا خلف فيه وإن تأخر « أجورهم » أى الموعودة لهم بإيمانهم بالله وكتبه ورسله « وكان الله غفورا » لما يريد من الزلات « رحيما » لمن يريد إسعاده .

١٥٣ — يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ

مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا .

١٥٤ — وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا .

١٥٥ — فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

١٥٦ — وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا .

١٥٧ — وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا .

١٥٨ — بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

١٥٩ — وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا .

هذه الآيات السبع فى شأن اليهود ، وجرائمهم الأولى والثانية ، وأحداثهم الفظيعة فى عهد رسولهم موسى ، ثم صنيعهم الممقوت وسعيهم المذموم ، وافترائهم الذى لا حدّ له على مريم وعيسى عليهما السلام .

والآية الأولى نزلت فى أحبار اليهود لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم :

إن كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى ، فرد الله عز وجل عليهم أبلغ رد ، ووبخهم أعظم توبيخ ، وكشف عن مطالبهم الغريبة من موسى عليه السلام من قبل ، وبين كيف قالوا له : « أرنا الله جهرة » وكيف أخذتهم الصاعقة بظلمهم ، وكيف عبدوا العجل من بعد أن نزلت عليهم التوراة فيها نور ورحمة ؛ فمثل هؤلاء وقد صنعوا ذلك بنبيهم لايستبعد عليهم أن يقترحوا على محمد عليه الصلاة والسلام ما اقترحوا ، وأن يطلبوا منه أن ينزل عليهم كتاب شريعة من السماء جملة واحدة كالألواح التى نزلت على موسى ، إذ نزلت التوراة عليه كما نزل الإنجيل على عيسى عليه السلام جملة واحدة وفى وقت واحد ؛ ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار : « الظاهر أن هذا كان مما يغش به اليهود المسلمين ، فالمعروف فى التوراة أن الذى جاء به موسى من عند الله تعالى جملة واحدة هو الوصايا العشر منقوشة فى لوحين ، جاء بهما فى المرة الأولى ، فلما رآهم قد عبدوا العجل المصنوع من الحلى فى غيبته غضب ، وألقى اللوحين فكسرهما ، ثم أمره الله تعالى بأن ينحت لوحين آخرين من الحجر ، وكتب له فيهما تلك الوصايا » .. وفى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج ما نصه : « وقال الرب لموسى اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل الله ، وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع إليكم ، وهاهوذا هرون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما ، فصعد موسى إلى الجبل ، فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء . وغطاه السحاب ستة أيام ، وفى اليوم السابع دُعى موسى من وسط السحاب ، وصعد إلى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة » . وفى الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر الخروج أيضا : « ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لوحى الشهادة ، لوحىْ حجر مكتوبين بإصبع الله » وفى الإصحاح الثانى والثلاثين : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع



الشعب على هرون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذ أصابه ؟ ، وهنا تقول التوراة كما فى الإصحاح نفسه : إن هرون قال لهم « انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها بيضاء » .

أما القرآن الكريم فينسب ذلك إلى السامرى ، والقرآن هو الصادق المصدوق ، ومعاذ الله أن يأمر هرون النبى بعبادة غير الله .. ويتابع الإصحاح نفسه القصة فيقول : « فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره وصنعه عجلا مسبوكا ، فقالوا : هذه آلهتك ياإسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ؛ فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك ، صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له ، وقالوا : هذه آلهتك ياإسرائيل » ، ثم يتابع الإصحاح نفسه الحديث فيقول : ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده » وهكذا تتسلسل القصة ، وتتوالى ملامحها وأطيافها إلى النهاية .

هذا وسؤال هؤلاء القوم رؤية الله تعالى جهرة أكبر وأعظم من سؤالهم النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، وكل من السؤالين يدل على جهلهم أو عنادهم ، أما سؤال إنزال الكتاب فهو يدل على أنهم لايفهمون معنى النبوة والرسالة على كثرة ما ظهر فيهم من الأنبياء والرسل ، ولا يميزون بين الآيات الصحيحة التى يؤيد الله بها رسله وبين سائر الأمور المستغربة ، كحيل السحر والشعوذة لمخالفتها للعادة ، وقد بينت لهم كتبهم أنه يقوم فيهم أنبياء كذبة ، وأن النبى يعرف بدعوته إلى التوحيد والحق والخير لا بمجرد آية أو أعجوبة يعملها[1] ، وإما أنهم معاندون يقترحون تعجيزا ومراوغة ، وأيا ماقصدوا من هذين الأمرين فلا فائدة فى إجابتهم إلى ماسألوا

---

(١) فى الإصحاح ١٣ من سفر التثنية : « إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا : لنذهب وراء آلهة أخرى ، فلا تسمع لكلام ذلك النبى » .

« ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » . وأما سؤالهم رؤية الله جهرة أى عيانا كما يرى بعضهم بعضا ، فهو أدل على جهلهم وكفرهم بالله تعالى ، لأنهم ظنوا أنه جسم محدود تدركه الأبصار ، وتحيط به أشعة الأحداق ، وقد عوقبوا على جهلهم هذا « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » إذ شبهوا ربهم بأنفسهم . فرفعوا أنفسهم إلى مافوق مرتبتها وقدرها ، والصاعقة نار جوية ، تشتعل باتحاد الكهربائية الايجابية بالسلبية ، وهذه الواقعة معروفة فى كتبهم ، وفيها التعبير بالنار بدل الصاعقة ، وربما يظن الظان أنها نار خلقها الله تعالى من العدم . ولكن القرآن يبين لنا أنها من الصواعق المعتادة ، أرسلها الله عليهم عند ظلمهم هذا ، ولا يمنع ذلك أن تكون حدثت بأسبابها .

والآية الثانية تتحدث عن معجزة إلهية جليلة . هى رفع الجبل فوقهم إرهابا لهم ليؤمنوا بالله وبشريعة موسى ، ورفع الجبل اليوم أقرب إلى العقل ، وقد ذكرت الصحف أن روسيا قد نقلت جبلا من مكان إلى مكان آخر فى جمهورية أزباكستان الإسلامية ، ونشرت بالأمس أن الصين نقلت قمة جبل مجاور لنهر إلى شاطىء النهر الآخر ، بواسطة طرق علمية ابتكرها علماء روسيا ، وفى أمريكا حفر العلماء نفقا طويلا تحت جبل تنبع من فوقه مياه نهر هدسون بحيث يسير فيها الناس ، وتمشى فيه العربات . وتشاهد منه مياه نهر هدسون المتدفقة من فوق الجبل ، أفلا يدل كل هذا على أن رفع الله للجبل فوقهم — فى وقت أزمة جيولوجية مثلا — قريب إلى العقل والمنطق والتفكير ؟ .

والآية الثالثة تتحدث عن غضب الله عليهم بسبب نقضهم المواثيق المأخوذة عليهم وكفرهم بآيات الله ، وتحريفهم بشارة موسى والتوراة بالإنجيل ومحمد ، وقد نقل الشيخ رشيد رضا نصوصا من التوراة من سفر التثنية تؤكد أمر بشارة التوراة بعيسى وبمحمد ، ففى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التثنية مانصه :

« هذا كلام العهد الذى أمر الرب موسى بأن يقطعه مع بنى إسرائيل فى أرض موآب سوى العهد الذى قطعه معهم فى حوريب » ، وسماه فيه عهدا وقسما ، وتوعد على نقضه فيه بأشد الوعيد والغضب وجميع اللعنات والعقوبات ، ومنها الاستئصال من أرضهم ، كما وعد على حفظه بأعظم البركات والخيرات ، وكذلك عظم أمره فى الفصل الثلاثين والحادى والثلاثين الذى جاء فى آخره ، كما فى ترجمة اليسوعيين : « ولما فرغ موسى من رقم كلام هذه التوراة فى سفر بتمامها ، أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب وقال لهم : خذوا سفر هذه التوراة واجعلوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم ، فيكون ثم عليكم شاهداً ، لأنى أعلم تمردكم وقساوة قلوبكم ـ فإنكم وأنا فى الحياة معكم اليوم ـ قد تمردتم على الرب فكيف بعد موتى ، إجمعوا إلى شيوخ أسباطكم وعرفاءكم حتى أتلو على مسامعهم هذا الكلام وأشهد عليهم السماء والأرض ، فإنى أعلم أنكم بعد موتى ستفسدون وتعدلون عن الطريق التى سننتها لكم فيصيبكم الشر فى آخر الأيام إذا صنعتم الشر فى عينى الرب حيث تسخطونه بأعمال يديكم ، وتلا موسى على مسامع كل جماعة إسرائيل كلام هذا النشيد إلى آخره » ، وهذا النشيد الذى وثق به العهد عليهم ، فهو من أول الفصل الثلاثين إلى الجملة ٤٣ منه وأوله « أنصتى أيتها السماوات فأتكلم وتستمع الأرض لأقوال فى » ، وبعدها أمره الله بأن يموت وباركه قبل موته بهذه الكلمة وهى آخر وحيه إليه فقال « أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتجلى من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه قبس (نار) شريعة لهم » . وفاران هى مكة كما ذكره فى معجم البلدان ، وفى الفصل الحادى والعشرين من سفر التكوين أن الله أوحى إلى هاجر بأنه سيجعل ولدها إسماعيل أمة عظيمة وأنه سكن فى برية فاران ، ومن المعلوم بالتواتر أنه سكن فى البرية التى بنى بها هو ووالده إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام بيت الله الحرام وبه تكونت مكة . وجبل فاران هو أبو قبيس الذى نزل فيه الوحى على محمد صلوات الله عليه وهو فى غار

حراء ؛ فإذا كان هؤلاء اليهود قد نقضوا عهد الله وميثاقه الغليظ عليهم بحفظ التوراة كما تنبأ عنهم نبيهم عند أخذ الميثاق عليهم ، فهل يستغرب منهم تحريف بشارته بعيسى ومحمد ومشاقتهما ؟ .

والآية الرابعة ومابعدها تتحدث عن قصة اليهود مع المسيح عليه السلام ، وتنفى الآية الخامسة أن اليهود قتلوا وصلبوا عيسى عليه السلام ، وتؤكدالآية السادسة أن الله رفعه إليه وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح ـ كما ذكر الشيخ محمد رشيد رضا ـ أن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطى ، وأنه جعل لهم علامة ان من قبله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه ـ وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطى نفسه ظنا أنه المسيح ، لأنه ألقى عليه شبهه ، فالذى لاخلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

ويذكر الشيخ رشيد رضا : أن اليهود فى عصر المسيح كانوا تحت سلطان الروم « الرومانيين » ، وأن الحاكم الرومانى فى بيت المقدس فى ذلك العهد « بيلاطس » لم يكن يريد قتل المسيح . ولم يحفل بوشاية اليهود وسعايتهم فيه ، ولا خاف أن يكون ملكا يزيل سلطان الروم عن قومه ، وإنما كانت اليهود تريد قتله لما دعا إليه من الإصلاح الذى يزحزحهم عن تقاليدهم المادية ، لأنهم بقتل زكريا ويحيى قد أصيبوا بالضراوة بسفك دماء النبيين والمصلحين .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : إن قصة الصلب ليس لها سند متصل إلى الأفراد الذين رويت عنهم ، وأولئك الأفراد الذين رووها غير معروفين معرفة يقينية ، كما يعلم من دائرة المعارف الفرنسية وغيرها من الكتب التى ألفها علماء أوربا الأحرار ، وأن الذى يؤخذ من مجموع تلك الروايات المنقطعة الإسناد أن أول من وضع عقيدة الصلب هو بولس اليهودى الذى كان أشد أعداء المسيح عليه السلام ، وألد خصوم أتباعه خصاما ، ثم رأى أنه لا يتمكن من نكايتهم وإفساد أمرهم ؛ إلا بدخوله فيهم ، ففعل . ونحن المسلمين

نؤمن بالمسيح عيسى ، لأن القرآن أثبته وأثبت رسالته ومعجزاته ، ولا نتعدى في إيماننا حدود ما أنزل الله تعالى فى الذكر الحكيم . .

هذه هى الآيات السبع وملخص موضوعها ، ونعود إلى الشرح التحليلى لها ، يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم : « يسألك » يا محمد «أهل الكتاب» أى أحبار اليهود « أن تنزل عليهم كتابا من السماء » جملة كما أنزل على موسى، وقيل: كتابا محرزاً أى مجلدا مصونا بخط سماوى على ألواح كما كانت التوراة ، وقيل : كتابا نعاينه حين ينزل ، أو كتابا إلينا بأعياننا بأنك رسول الله . قالوا ذلك تعنتا ، وقال الحسن : لو سألوا لكى يتبينوا الحق لأعطاهم الله عز وجل ما سألوه ، وفيما أتاهم كفاية ؛ وقوله تعالى « فقد سألوا » أى آباؤهم «موسى» ، المعنى : إنك استكثرت ما سألوا منك فقد سألوا موسى «أكبر» أى أعظم « من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة » أى عيانا وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى عليه الصلاة والسلام ، وهم النقباء السبعون . لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت « فأخذتهم الصاعقة » أى عقب هذا السؤال ، وهى نار جاءت من السماء فأهلكتهم « بظلمهم » أى بسببه وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحال التى كانوا عليها. وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا « ثم » بعد العفو عنهم ، بعد موت من مات من الصاعقة « اتخذوا العجل » أى تكلفوا أخذه وجعلوه إلها « من بعد ما جاءتهم البينات » المعجزات على وحدانية الله تعالى. وليس المراد التوراة، لأنها لم تأتهم فيما مضى بل أتتهم بعد « فعفونا عن ذلك » أى هذا الذنب العظيم بتوبتنا عليهم من غير استئصال لهم « وآتينا موسى سلطانا » أى قوة وقدرة وتسلطا « مبينا » أى ظاهرا ، فإنه أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فبادروا إلى الامتثال « ورفعنا فوقهم الطور » أى الجبل العظيم « بميثاقهم » أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه « وقلنا لهم » على لسان موسى عليه السلام والطور تظل عليهم « ادخلوا الباب » أى الذى لبيت المقدس « سجداً » أى سجود انحناء « وقلنا لهم » على لسان داود

«لا تعتدوا» أى لا تتجاوزوا ما حددناه لكم «فى السبت» أى لا تعملوا فيه عملا من الأعمال، ويحتمل أن يكون ذلك على لسان موسى حين ظلل عليهم الجبل فإنه شرع السبت أى ترك العمل فيه، ولكن كان الاعتداء فى السبت والمسخ به فى زمن داود «وأخذنا منهم ميثاقا غليظا» على ذلك وهو قولهم: سمعنا وأطعنا، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه، ثم نقضوه بعد كما قال تعالى «فبما نقضهم» أى فبنقضهم و (ما) زائدة للتوكيد أى غضبنا عليهم ولعناهم بسبب نقضهم «ميثاقهم وكفرهم بآيات الله» أى القرآن أو بما فى كتابهم «وقتلهم الأنبياء بغير حق» فإنهم معصومون من كل نقيصة ومبرأون من كل ريبة، لا يتوجه عليهم حق «وقولهم قلوبنا غلف» أى أوعية للعلوم أو فى أكنة مما تدعونا إليه، فلا نعى كلامك «بل طبع الله» أى ختم «عليها بكفرهم» فلا تعى وعظا «فلا يؤمنون إلا قليلا» منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وإيمانا قليلا لا عبرة به بأن يؤمنوا وقتا يسيرا كوجه النهار ويكفروا فى غيره، ويؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، وقوله تعالى «وبكفرهم» معطوف على (فبما نقضهم) ويجوز عطفه على (بكفرهم)، وقد تكرر منهم الكفر، لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فعطف بعض كفرهم على بعض. «وقولهم» أى كذبهم وافترائهم وتقولهم «على مريم» أى بعد ما ظهر على يديها من الكرامات الدالة على براءتها وعفتها وطهرها وأنها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات «بهتانا عظيما» وهو نسبتها إلى الزنا «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله» أى بمجموع ذلك عذبناهم وماتوا كافرين بعيسى أعداءله عامدين لقتله. يسمونه: الساحر بن الساحرة. ومع ذلك قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، كقول فرعون «إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون»، قال الزمخشرى: ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم، رفعا لمنزلة عيسى عليه الصلاة والسلام كما كانوا يذكرونه به. قال الله تعالى تكذيبا لهم فى قتله «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» أى المقتول والمصلوب، روى النسائى

عن ابن عباس أن رهطا من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم ، فلقوا شر المصير ، فاجتمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويظهره فى صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى الله عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب ، وقيل : كان رجلا ينافق عيسى ، يظهر له الإيمان ويخفى الكفر ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، فدخل فى بيت عيسى ، فرفع عيسى عليه الصلاة والسلام ، فألقى الله شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى وقيل : إنهم حبسوا عيسى عليه الصلاة والسلام فى بيت وجعلوا عليه رقيبا ، فألقى الله شبه عيسى على الرقيب فقتلوه « وإن الذين اختلفوا فيه » أى فى شأنه . حيث قال بعض اليهود : إنه قد قتل حقا ، وتردد آخرون ، وقال بعضهم : إنه إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . وكان الله ألقى شبه وجه عيسى عليه ولم يلق على جسده ، وقال من سمع من عيسى : إن الله يرفعنى إلى السماء - إنه رفع إلى السماء ، وقال قوم : صلب الناسوت أى الإنسانية وصعد اللاهوت أى الألوهية « لفى شك منه » أى من قتله « مالهم به » أى بقتله « من علم » وقوله تعالى « إلا اتباع الظن » استثناء منقطع ، أى لكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه . فإن قيل : قد وصفوا بالشك ، والشك أن لا يترجح أحد الجائزين ، ثم وصفوا بالظن ، والظن أن يترجح أحدهما ، فكيف يكونون شاكين ظانين ؟ أجيب بأن الشك كما لا يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد ، وعلى ما يقابل العلم ، فيشمل الاعتقاد « وما قتلوه » أى انتفى قتلهم له انتفاء « يقينا » أى على سبيل القطع ، أو ما فعلوا القتل متيقنين أنه عيسى عليه السلام ، بل فعلوه شاكين فيه ، والحق أنهم لم يقتلوا إلا الرجل الذى ألقى عليه شبهه ، قال البقاعى : والوجه الأول أولى لقوله تعالى « بل رفعه الله إليه » أى إلى مكان لا يصل إليه حكم آدمى ، وعن وهب أنه أوحى إليه ابن ثلاثين سنة ، ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين ؛ فكانت رسالته ثلاث سنين « وكان الله عزيزا » فى ملكه لا يغلب عما يريد « حكيما » فى

صنعه «وإن من أهل الكتاب » أى وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمن به ، أى عيسى عليه السلام . هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم «قبل موته» اختلف فى عود هذا الضمير ، وقال عكرمة ومجاهد والضحاك : يعود على الكتابى أى أن الكتابى يؤمن بعيسى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه إيمانه ، وذهب قوم إلى عود الضمير إلى عيسى ، أى وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان على ما قيل ، فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ، روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكما عدلا ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ، قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب » الآية ، وروى عكرمة أن الهاء فى قوله تعالى «ليؤمنن به» كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لا يموت كتابى حتى يؤمن بمحمد ، وقيل : الهاء راجعة إلى الله عز وجل يقول : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن بالله عز وجل قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانه « ويوم القيامة يكون » أى عيسى على القول الأول « عليهم شهيدا » أنه قد بلغهم رسالة ربهم وأقر بالعبودية على نفسه ، كما قال تعالى مخبرا عنه « وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم » وشهيدا كذلك على كل نبى ، قال تعالى : «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» .

١٦٠ — فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ،

١٦١ — وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

١٦٢ — لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

هذه الآيات الثلاث هى أيضا حديث عن اليهود ، وتشديد الله عليهم عقابا لهم بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم ، وفيها يذكر الله عز وجل أن من اليهود قوما آمنوا بالله ورسله ، وأخلصوا العبادة والطاعة لله رب العالمين ، وأولئك من الناجين الفائزين . . يقول الله تعالى « فبظلم من الذين هادوا » وهو ما تقدم ذكره من نقضهم الميثاق وبكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم «حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » أى كان إحلالها لهم فى التوراة ثم حرمت عليهم ، وهى التى فى قوله تعالى فى سورة الأنعام « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » الآية « وبصدهم » أى الناس « عن سبيل الله » أى دينه . وقوله تعالى « كثيراً » صفة مصدر محذوف أى صدا كثيراً بالإضلال عن الطريق . فمنعوا مستلذات تلك المآكل بما منعوا أنفسهم وغيرهم من لذاذة الإيمان « وأخذهم الربا وقد » أى والحال أنهم قد « نهوا عنه » أى فى التوراة ، فكان محرما عليهم كما هو محرم علينا ، لأنه قبح فى نفسه مؤذ لصاحبه ، وفى الآية دليل على أن النهى للتحريم « وأكلهم أموال الناس بالباطل » أى من الرشوة فى الحكم و المآكل التى يصيبونها من عوامهم عاقبناهم ، بأن حرمنا عليهم الطيبات ، فكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شيئا من الطيبات التى كانت حلالا لهم ، قال تعالى « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » ، « وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » أى مؤلما دون من تاب وآمن ، ثم ذكر الله عز وجل فريقا آخر من اليهود ، آمن بالله ورسله وأطاع الله فقال « لكن الراسخون » أى الثابتون المتمكنون « فى العلم منهم » أى من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه « والمؤمنون » أى المهاجرون

والأنصار « يؤمنون بما أنزل إليك » أى القرآن « وما أنزل من قبلك » أى من سائر الكتب المنزلة ، وقوله تعالى « والمقيمين الصلاة » نص على المدح ، لأن الصلاة لما كانت أعظم دعائم الدين ولذلك كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر ، ذكرت مستقلة منصوبة على المدح من بين هذه المرفوعات إظهارا لفضلها « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » رجوع إلى النسق الأول « أولئك سنؤتيهم » بوعد لا خلف فيه على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح « أجرا عظيما » وهو الجنة ، والنظر إلى وجهه الكريم .

فى هذه الآيات الثلاث يذم الله عز وجل اليهود بظلمهم وكفرهم وعنادهم وصدهم الناس عن دين الله ورسالته الحقة ، وكان ذلك سببا لتحريم الله عز وجل بعض ما أحل لهم من الطيبات ، ويذكر الله عز وجل أن من أعظم جرائمهم تعاملهم بالربا وشهرتهم فيه ، وحرصهم على أكل أموال الناس بالباطل ، ويبين الله عز وجل العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة ، والنار المعدة لهم لعقابهم بها ، والقرآن الكريم لاينسى الإنصاف أبدا . فهو كما يعرض لشأن الكافرين منهم ، ينوه بالمؤمنين فيهم ، الذين هم من جلة العلماء ومن الراسخين فى العلم ، ومن المؤمنين بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأضافوا إلى الإيمان بها حرصهم الشديد على إقامة الصلاة التى هى عماد الدين وركنه ، وأداءهم للزكاة ، فأولئك لهم رضاء الله وثوابه الجميل ونعيمه المقيم فى الآخرة ، ولهم أجر عظيم عند مولاهم رب العالمين .. وهنا يستلفت النظر تخصيص القرآن الكريم الصلاة والزكاة بالذكر من بين أعمال الإيمان ، ولا شك أن ذلك دليل ما بعده من دليل على أهمية الصلاة والزكاة . فالصلاة هى مظهر الإيمان وركن الدين ، وعمود الإسلام ، وثوابها راجع للإنسان نفسه ، أما الزكاة فهى سبب عزة المجتمع وقوته وتماسكه وتضامنه ، وسبب حياة للفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وبها يبارك الله فى مال المزكى ويخصه بالنماء والزيادة ، والزكاة أعظم مظهر لاشتراكية الإسلام ولمبدأ التضامن والضمان الاجتماعى ،

والعدالة الاجتماعية فيه ، وهى من أهم لبنات المجتمع الإسلامى التى تزيده قوة وتماسكا ووئاما وأخوة وسلاما .

هذا والطيبات التى حرمها الله عليهم مبينة بقوله عز وجل فى سورة الأنعام « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » الآية ، كما ذهب إليه بعض المفسرين . وتوقف بعضهم فلم يجزم بتعيين ماحرم عليهم ، وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر اللاويين (الأحبار) تفصيل ماحرم عليهم فى التوراة من حيوانات البر والبحر وهى كثيرة جدا . وكانت قد أحلت لهم بقاعدة كون الأصل فى الأشياء الحل وبإحلالها لسلفهم ، كما ورد كذلك ذكر المحرمات عليهم فى قوله تعالى « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » . هذا والعقاب قسمان : دنيوى وأخروى ، ومن الدنيوى التكاليف الشرعية الشاقة فى زمن التشريع ، والجزاء الوارد فيها على الجرائم من حد أو تعزير ، وما اقتضته سنن الله تعالى فى نظام الاجتماع من كون الظلم سببا فى ضعف الأمم وانهيارها وتسلط دولة أخرى عليها .

هذا واليهود تحرم عليهم التوراة الربا مطلقا ولكنهم حرفوا فيها ، فحرموا الربا فى معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وأباحوه فى معاملاتهم مع الأجانب عنهم ، ففى سفر الخروج « إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لاتضعوا عليه ربا » وفى سفر اللاويين « وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريباً أو مستوطناً فيعيش معك ، لاتأخذ منه ربا ولا مرابحة بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك ، فضتك لاتعطه بالربا وطعامك لاتعطه بالمرابحة » ، وفى سفر تثنية الاشتراع « لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا شىء ما مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا » . ويقول الشيخ رشيد رضا : إننا لانسلم أن هذا هو نص التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ، لأن نسخة موسى فقدت بإجماع اليهود والنصارى ، وهذه التى عندهم قد كتبت بعد السبى

وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة . والظاهر أن عبارة «للأجنبي تقرض بربا» قدأخذها الذى كتب التوراة ـ عزرا أو غيره ـ من مفهوم الأخ ، لأنه كتب ما حفظ منها بالمعنى . وهذا من مفهوم المخالفة الذى لايحتج به جمهور علماء الأصول ، إذاكان مفهوم لقب . على أن بعض أنبيائهم قد أطلقوا ذم الربا والنهى عنه إطلاقا ، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل ولا بأخواتهم ، كقول داود عليه السلام فى المزمور الخامس عشر ـ وهو الرابع عشر فى نسخة الجزويت ـ « فضته لايعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البرىء » وكقول سليمان عليه السلام فى سفر الأمثال « المكثر ماله بالربا والمرابحة فلمن يرحم الفقراء يجمعه » ، وقول حزقيال مما أوحاه إليه الرب فى صفات البار « بذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوبا ، ولم يعط بالربا ولم يأخذ مرابحة . وشريعة هؤلاء الأنبياء هى التوراة ، فلابد أن يكونوا أخذوا إطلاق تحريم الربا منها .

وبهذا ينتهى الربع الأول من هذا الجزء ـ السادس ، وقد تضمن من الأصول والموضوعات ما يأتى :

١ ـ الفرق بين حديثين : حديث الشر والسوء ، وحديث الخير والمحبة والرحمة والإصلاح بين الناس والعفو عنهم .

٢ ـ الفرق بين صنفين من الناس : بين الكافرين الجاحدين وبين المؤمنين المتقين ، وشرح صفات كل من الفريقين ، وبيان جزائه عن الله .

٣ ـ بيان ماضى اليهود وحاضرهم فى الكفر والشرك والعصيان ، والإلمام بجرائمهم فى عهد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وتقولاتهم الكاذبة على مريم وعيسى ، وشرح حقيقة الأمر فى موضوع « نهاية حياة المسيح عيسى » .

٤ ـ شرح نمط من سيئات اليهود وظلمهم وصدهم عن سبيل الله ، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه فى التوراة ، وأكلهم أموال الناس بالباطل .. والإلمام بصفات طائفتين منهم : الكافرين والمؤمنين ، والإشارة إلى الجزاء المعد لكل من الطائفتين .

إن هذا الربع كله حرب على الشر والتفاهة وإضاعة الوقت فيما لا يجدى ، وحرب على الشرك والكفر ، اللذين انحدرت إليهما طوائف من اليهود ، كفرت بالتوراة وبالكتب السماوية وضلوا وأضلوا وافتروا على الله وعلى الرسل الأكاذيب والأباطيل ، وليس هناك أشد ضررا على الإنسانية فى مختلف عصورها وحياتها من الشرك والكفر والضلال ، ليس هناك أخطر من هؤلاء الجاحدين المشركين بالله ، والكافرين برسالات السماء ، والثائرين على تعاليم الأديان ، والذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا.

وفى هذا الربع نص صريح على أن عيسى لم يقتل ولم يصلب ، بل رفعه الله إليه ، وقد استدل كثير من العلماء بالآية الكريمة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته » ، وبقوله تعالى أيضا « ويعلم الناس فى المهد وكهلا » ، وبقوله تعالى فى سورة الزخرف « وإنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها » ، وبالأحاديث المروية فى البخارى على نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان لحكم الناس بالعدل وبدين الإسلام، وتطهير الأرض من الشرك والضلال .

وقوله تعالى : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » ، قال الحسين بن الفضل البجلى : إن المراد بقوله «وكهلا» أن يكون كهلا بعد أن ينزل من السماء فى آخر الزمان ويكلم الناس ويقتل الدجال ، قال : وفى هذه الآية نص فى أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض وقال الألوسى بعد أن بين معنى الكهل ما نصه : وعلى ما ذكر فى سن الكهولة يراد بتكليمه عليه السلام كهلا تكليمه لهم كذلك بعد نزوله من السماء وبلوغه ذلك السن ، بناء على ما ذهب إليه سعيد ابن المسيب وزيد بن أسلم وغيرهما ، أنه عليه السلام رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وأنه سينزل إلى الأرض ، ويبقى حيا فيها أربعا وعشرين سنة ، كما رواه ابن جرير عن كعب الأحبار ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال : قد كلمهم عيسى فى المهد وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل ، قالوا : والصحيح أن عيسى يمكث فى الأرض

بعد نزوله أربعين سنة كما دل عليه الحديث الصحيح ، وفى الآية نكتتان لطيفتان :

الأولى : الإخبار بأن عيسى عليه السلام يكلم الناس كهلا ، وقد قال المفسرون : إن هذا وعد من الله بأنه سيعيش إلى سن الكهولة وهو معنى صحيح ، وفى الآية مع هذا معنى آخر لم يعرجوا عليه ، وهو الإشارة إلى أن كلامه كهلا يأتى على خلاف المعهود ، فإن الناس يتكلمون كهولا وشبانا ليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب ، ولكن العجيب فى شأن عيسى عليه السلام أن يرفع شابا ويغيب مئات السنين فى عالم لا تجرى عليه الأغيار الجسمانية ، ثم ينزل ويكلم الناس بعد ذلك كهلا ، لا جرم أن هذا أمر غريب استحق لغرابته أن ينوه الله به فى آيتين من كتابه بطريق البشارة والامتنان ، ولذا قابله بأمر لا يقل عنه غرابة وهو كلامه فى المهد ، فاشتملت الآية على معجزتين عظيمتين، وإلى هذا أشار أحمد بن يحيى ثعلب إمام الكوفيين فى النحو واللغة حيث قال : ذكر الله لعيسى آيتين : تكليم الناس فى المهد ، فهذه معجزة ، والأخرى نزوله إلى الأرض عند اقتراب الساعة كهلا ابن ثلاثين سنة يكلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الآية الثانية ، وقوله تعالى « ويكلم الناس » ولم يقل بنى إسرائيل أو قومه مع أن المعهود فى كل رسول أنه يكلم قومه الذين أرسل إليهم خاصة ، للإشارة إلى أن الذين يكلمهم عيسى ليسوا قومه فحسب ، بل هم وغيرهم ممن ينزل عليهم آخر الزمان ، واقرأ قوله تعالى فى البشارة بعيسى «ورسولا إلى بنى إسرائيل» ، وانظر كيف خص رسالته بقومه ، ثم قابله بقوله تعالى : « ويكلم الناس » .

وقوله تعالى « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما » نص صريح فى حياة عيسى ـ ورفعه لأن الله تعالى نفى عنه القتل والصلب ثم عطف ببل مثبتا له الرفع ، والمقرر فى كتب اللغة العربية التى بها نزل القرآن أن كلمة (بل) إذا تلت نفيا أو نهيا كانت للإضراب والاستدراك ، تقرر حكم ما قبلها ، وتثبت نقيضه لما بعدها ، ولذا ذكر أهل المعانى العطف ببل وبلا من طرق القصر ، فالآيه ترد على اليهود والنصارى ما اعتقدوه من قتل عيسى وصلبه وتثبت نقيضه وهو

حياته ورفعه ، هذا هو ما تفيده الآية صراحة بحسب قواعد اللغة وأسلوب البلاغة ، وهو ما يفهمه العربى الفصيح بذوقه السليم الصحيح ، أما حمل الآية على تقدير الإماتة العادية بأن يقال : بل أماته الله ورفعه إليه ، فهو من سقط الكلام الذى يجب تنزيه القرآن عنه ، ويبطله أمور :

١ — أن هذا يلزم منه المجاز فى موضعين من الآية ، والمجاز خلاف الأصل لا حاجة إليه .

٢ — أن الإماتة العادية تتفق مع القتل فى الغاية وهى إزهاق الروح ، فلا تكون الإماتة نقيض القتل إلا من حيث الصورة ، والقرآن أدق من أن يقصد الصور الظاهرية ، وأجل من أن يحمل عليها .

٣ — أن حمل الرفع على رفع المكانة أو الروح - مع كونه مجازا - لا تظهر له فائدة فى هذا الموطن ؛ لأن الرسل - وعيسى منهم - عليهم الصلاة والسلام كلهم مرفوعو الرتبة والمكانة عند الله ، لا يشك فى هذا مسلم عامى فضلا عن متعلم ، وأرواح المؤمنين كلها ترفع بعد الموت مقتولا كان الميت أو غير مقتول ، فأى فائدة فى تخصيص عيسى بالتنصيص على هذا .

٤ — أن الله تعالى اقتصر على ذكر الرفع وجعله مبطلا لما ادعته اليهود من القتل والصلب ، وذلك يوجب أن يكون الرفع حقيقيا ؛ إذ لو كان مجازيا لم يكن مبطلا لدعوى اليهود بل متفق معها ؛ لأن رفع المكانة أو الروح لا يمنع القتل والإيذاء كما سبق بيانه .

٥ — أن رفع المكانة لا يستلزم الموت كما هو ظاهر ، وكذلك رفع الروح ، لأن النائم ترفع روحه وتسبح فى عالم المثال ، وحينئذ كان يتعين التصريح فى الآية بالموت بأن يقال : بل أماته الله ، ولا يقتصر على ذكر الرفع الذى لا يستلزمه ولا يدل عليه ، لا يقال : قوله تعالى « إنى متوفيك ورافعك إلىّ » قرينة على التقدير هنا ، لأنا نقول هذا - على ما فيه - إنما يفيد تقدير التوفى وليس التوفى بإماتة ، فمن أين أتى التعيين ؟ وأى دليل عليه ؟ بل نحن نقول : لما اقتصر

الله فى هذه الآية على الرفع وجعله مبطلا لدعوى اليهود ، كان ذلك دليلا على أن التوفى فى الآية السابقة مراد به قبض البدن من الأرض حيا ، وليس المراد به الموت جزما .

٦ — أن الله مدح نفسه بقوله « وكان الله عزيزا حكيما » ولو كان فى الآية إماتة عادية لم يكن للمدح معنى ، لأنها أمر عادى مطرد فى جميع المخلوقات ، بل ربما لم يحسن المدح لأن الإماتة فى هذا الموطن تحصيل لغرض الإعدام .

٧ — أن الله مدح نفسه كما مر آنفا ، ولم نره سبحانه وتعالى مدح نفسه على إماتة نبى أو رسول ، كيف والموت مصيبة بشهادة القرآن ، قال تعالى « إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت » وإنما رأيناه يمتدح بإهلاك الظلمة الكفرة انتقاما لأنبيائه ورسله ، وما صح الامتداح بالإهلاك إلا لما انطوى عليه من الخوارق الدالة على كمال قدرته وشدة انتقامه سبحانه وتعالى .

٨ — أن الآية نص فى الرفع ، وحملها على تقدير أو تأويل مخالف لما أطبق عليه علماء الأصول من أن النص لا يؤول وإنما يؤول الظاهر ، وتأويل النصوص لم يجرؤ عليه أحد .

ويذهب فضيلة الشيخ شلتوت إلى أن الآية مؤولة .

وقوله تعالى « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله آخر الزمان حاكما بشريعة الإسلام داعيا إليها ، كما روى عن ابن عباس وأبى هريرة ، ولأنه هو الموافق للأحاديث المتواترة التى أخبرت بنزول عيسى ودعائه إلى الإسلام وإيمان اليهود والنصارى به ، ولأن المتحدث عنه فى الآيات قبل هذه الآية هو عيسى عليه السلام ، اقرأ قوله تعالى « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق » الآيات ، تجد الكلام مسوقا لتبرئة عيسى عليه السلام مما رمى به ، فوجب أن تكون الضمائر كلها راجعة إليه ، أخذا بدلالة السياق وعملا بما توجبه قواعد اللغة العربية التى بها نزل القرآن العظيم ، ولا يجوز العدول عن ذلك إلا لمقتض

يقتضيه ، ولا مقتضى هنا البتة ، ولذا قال الإمام أبو حيان فى البحر المحيط ما نصه : « والظاهر أن الضميرين فى (به) وفى (موته) عائدان ، على عيسى . وهو سياق الكلام ، والمعنى : من أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله ، روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ، قاله ابن عباس والحسن وأبو مالك ، وصحح هذا القول ابن جرير أيضاً . وقال ابن كثير : هو القول الحق المبين بالدليل القاطع - يعنى الحديث المتواتر ، وبما ذكر يبطل قول العلامة الألوسى : إن عود الضمير فى (موته) على عيسى غير ظاهر ، وأما القول بأن الضمير فى (به) عائد على عيسى عليه السلام وفى (موته) عائد على الكتابى ، وأن المعنى : لا يموت الكتابى حتى يؤمن بعيسى ، وذلك عند المعاينة قبيل زهوق الروح ، فقد نقل عن ابن عباس ولم يصح عنه، بل الذى استفاض عنه هو القول السابق .

ومما ورد فى نزول عيسى ، ما رواه أحمد وأبو داود وابن جرير وابن حبان فى صحيحه والحاكم وغيرهم من طرق عن أبى هريرة ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك فى زمانه المسيح الدجال ثم تقطع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم ، فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه ؛ وقد صححه الحاكم وسلمه الذهبى وصححه أيضاً الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ، وهو واضح فى الدلالة على عيسى عليه السلام ، ولينظر القارىء شروح سنن أبى داود وغيرها .

ويرى الشيخ شلتوت أن نزول عيسى ليس من العقائد التى يكلفنا بها

الدين ، وأن حديث نزوله ليس من المتواتر ؛ وقد ورد فى نزول عيسى أربعون حديثا ذكرها الشيخ عبد الله محمد الغمارى فى كتابه « عقيدة أهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام » ورد على الشيخ شلتوت فى ذهابه إلى عدم تواتر حديث نزوله ، ثم قال فيها قال : هذه أربعون حديثا إذا ضمت إلى ماسبق أول الكتاب من الأحاديث المرفوعة والآثار التى لها حكم الرفع بلغ مجموعها نحو خمسين حديثا كلها مابين صحيح وحسن .

وللشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى مصر الأسبق رحمه الله ـ فتوى نص فيها على نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان .

١٦٣ — إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا .

١٦٤ — وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا .

١٦٥ — رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

١٦٦ — لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا

أربع آيات كريمات هى مطلع الربع الثانى ، تبين أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن بدعا من الرسالات ، وأنها لها أخوات ونظائر سبقتها ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد سبقه الكثير من الرسل والأنبياء ، ومن

هؤلاء الرسل موسى عليه السلام ، الذى آمن به اليهود المكذبون لمحمد ورسالته ، والمحاربون للإسلام وشريعته .

وتوضح الآية الثالثة أن وظيفة الرسل هى التبشير والإنذار ، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى التوحيد الخالص ، وإلى الأعمال الصالحة ، وإلى طاعة الله فيما أمر به ، وأن إنزال الرسالات إنما هو لقطع حجة الناس على الله ، ولئلا يكون لهم عذر بعد الرسل .

أما الآية الرابعة فهى وسام عظيم لمحمد عليه السلام ، هى تكريم من رب العالمين ، وتشريف من خالق الخلق أجمعين ؛ وهى تأكيد لصحة رسالة محمد وأن الله عز وجل يشهد بصحة هذه الرسالة وبصحة كتابها المنزل (القرآن الكريم) ، وأن الملائكة تشهد كذلك برسالته وبصحة القرآن ، وكفى بالله شهيدا ؛ إن هذه الآية أعظم رد على الكافرين والجاحدين ، والذين لا يزالون يعيشون فى الأوهام والأباطيل ، والذين يتشككون فى رسالة محمد وفى القرآن ، والذين يحاولون أن يدعوا الناس إلى جحود رسالته ، والذين يقفون منطوين على ما عندهم من علم وكتب من أهل الكتاب كاليهود والنصارى ، ويريدون أن يكتفوا بذلك زاعمين أنه يكفى فى نجاتهم عند الله . .

يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، هذا جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، واحتجاج عليهم بأن شأنه فى الوحى إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ، وبدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام ، لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام ، قال الله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » ، ولأنه أول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول خصم ونذير على الشرك ، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض بدعائه ، وكان أطول الأنبياء عمرا ، وجعلت معجزته فى نفسه لأنه عمر ألف سنة ، فلم ينقص له سن ، ولم تشب له شعرة ، ولم تنقص له قوة ، ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره « و » كما « أوحينا إلى

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » بن نبي الله إبراهيم « ويعقوب » بن إسحاق « والأسباط » أولاد يعقوب ، وظاهر هذا أنهم كلهم أنبياء ، وهو أحد قولين ، والقول الآخر : أن يوسف هو النبي فقط ، وعلى هذا : فالمراد المجموع . « وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا » أباه « داود زبورا » هو بضم الزاى مصدر بمعنى مزبورا أي مكتوبا ، وبالضم قرأ حمزة ، وقرأ الباقون بالفتح على أنه اسم للكتاب المؤتى ، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل ، كان فيه داود يبرز إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ، ويقوم معه علماء بنى إسرائيل فيقومون خلفه ، ويقوم الناس خلف العلماء . وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه تعجبا لما يسمعن منه ، والطير ترفرف على رؤوسهم ، فلما قارف الذنب لم ير ذلك ، فقيل له في هذا : ذلك أنس الطاعة ، وهذا وحشة المعصية . يقول السيوطي : الزبور مائة وخمسون سورة ما بين قصار وطوال ، والطويلة منها قدر ربع حزب ، والقصيرة قدر سورة النصر ، وعن أبي موسى قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو رأيتني البارحة وأنا أسمع لقراءتك ، لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود ، وكان عمر إذا رآه قال : ذكرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده ، وإنما خص هؤلاء بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيما لهم . . وقوله تعالى « ورسلا » أي غير هؤلاء ، أي أوحينا إليك وأرسلنا رسلا « قد قصصناهم » أي تلونا ذكرهم « عليك من قبل » أي قبل إنزال هذه السورة ، وهذه الآية . « ورسلا لم نقصصهم عليك » أي وأرسلنا رسلا لم نتل ذكرهم عليك . ويروى أنه سبحانه وتعالى بعث ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس ، وقوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » هو منتهى مراتب الوحي ، أي كلمه على التدريج شيئا فشيئا بحسب المصالح من غير واسطة ملك ، ولا فرق في الوحي بين ما كان بواسطة وبين ما كان بلا واسطة ، وخص به موسى من بين سائر الأنبياء غير نبينا ، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد فضله الله بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم ، وقوله تعالى « رسلا » بدل من رسل قبله « مبشرين » أي بالثواب من آمن « ومنذرين »

أى مخوفين بالعذاب من كفر ، وقوله تعالى « لئلا يكون للناس على الله حجة » متعلق بأرسلنا أو بمبشرين ومنذرين ، أى ليقتنى ما يكون لهم من عذر وحجة « بعد » إرسال « الرسل » حتى لا يقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ، فبعثناهم لقطع عذرهم ، فإن قيل : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ، وهم المحجوجون بما نصه الله تعالى من الأدلة التى يهدى النظر فيها إلى المعرفة ؟ أجيب : بأن الرسل ينبهون الناس من الغفلة ويبعثونهم على النظر فى الأدلة ، فإرسالهم ضرورى « وكان الله عزيزا » فى ملكه لا يغلب فيما يريده « حكيما » فى صنعه ، روى أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث الله المنذرين والمبشرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة ، قال ابن عباس : إن رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إنا سألنا عنك اليهود ، وعن صفتك فى كتابهم ، فزعموا أنهم لا يعرفونك ، ودخل عليهم جماعة من اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، فقالوا : والله ما نعلم ذلك ، فأنزل الله عز وجل قوله تعالى « لكن الله يشهد » أى يبين نبوتك « بما أنزل إليك » أى من القرآن المعجز الدال على نبوتك إن جحدوك وكذبوك « أنزله » ملتبسا « بعلمه » الخاص به ، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ ، وروى أنه لما نزل « إنا أوحينا إليك » قالوا ما نشهد لك ، فنزلت « والملائكة يشهدون » لك أيضاً « وكفى بالله شهيدا » على ذلك بما قام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره .

إن هذه الآيات الأربع ذات أهمية كبيرة فى عقيدة الإسلام ، وهى تبين بوضوح حاجة البشر إلى ارسالات ، وتعدد رسل الله إلى خلقه على مر العصور :

من نوح أبي البشر إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وداود .

أما نوح فقد كانت دعوته مرحلة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما كما جاء فى الآية الرابعة عشرة من سورة العنكبوت ، ويقول العهد القديم : إنه « عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات » كما فى آخر الإصحاح التاسع من سفر التكوين ؛ وقد طهر الأرض من الشرك والوثنية ودعاتهما وأقام أساسا جديداً لمبادىء التوحيد والخير والحق فى الأرض .

وأما إبراهيم فهو أبو الأنبياء ، وخليل الله ، وأبو إسماعيل وإسحاق ، ورسول التوحيد والحنيفية البيضاء ، ويقول الله عز وجل فيه : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » . ويقول العهد الجديد كما فى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين : إنه « عاش مائة وخمسا وسبعين سنة ، وأسلم إبراهيم روحه » ، وأما إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فهو نبى العرب ، والجد الأعلى لرسولنا الأعظم محمد صلوات الله عليه ، وفى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين : إنه « عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه » ، وأما إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، فقد خلف والده إبراهيم ، وأرسل إلى قومه وولد له يعقوب .

وأما يعقوب فهو ابن إسحاق بن إبراهيم ، فقد اشتهر بلقب « إسرائيل » وسائر أنبياء بنى أهل الكتاب من ذريته ، ويسمون « أنبياء بنى إسرائيل » .

وأما الأسباط فجمع سبط ، وهو يطلق على ولد الولد . وأسباط بنى إسرائيل إثنا عشر سبطا ، فكل نسل ولد من أولاد يعقوب العشرة ، وولدى ابنه يوسف وهما (افرايم ومنسى) يسمى سبطا . ولذلك قيل : إن الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى ولد إسماعيل وأما أبناء يعقوب العشرة آباء الأسباط الأخرى فهم : رؤبين ، وشمعون ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، وبنيامين ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير فسلالة هؤلاء مع سلالة ابنى يوسف

هم اثنا عشر سبطا . وأما سلالة (لاوى) الابن الثالث ليعقوب فلم تجعل سبطا مستقلا بل نيط بهم خدمة دينية خاصة ولهم أحكام خاصة بهم ، والمراد بالوحى إلى الأسباط الوحى إلى الأنبياء الذين بعثوا فيهم ، وخص منهم بالذكر أشهر المرسلين لأن لهم كتبا يهتدى بها : وما كل نبى يوحى إليه يكون مرسلا وله كتاب . والمشهور عند المفسرين أن الأسباط هم أولاد يعقوب ، ولذلك استشكلوا الوحى إليهم وكونهم من النبيين مع ما بينه الله تعالى من كيدهم لأخيهم يوسف وكذبهم على أبيهم ، وغير ذلك مما لا يليق بالنبيين ، وأجاب بعضهم بأن ذلك كان منهم قبل النبوة ، ولا يرضى هذا من يقول : إن الأنبياء معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها . وهم يقولون بعموم هذه العصمة وإن كان الدليل الذى يحتجون به خاصا بالرسل منهم ، وقد علمت أن إطلاق لفظ الأسباط على أبناء إسرائيل من صلبه خاصة خطأ ، وأن المتفق عليه عند أهل الكتاب عامة هو ماسبق ذكره .

وأما المسيح عيسى فأمره مشهور ، وقد قدم ذكره لشهرة كتابه الإنجيل ، ولأن مغزى الحديث هناموجه إلى اليهود ، فذكر الله لهم أنبياء غير أنبيائهم ، وأشهر هؤلاء هو عيسى عليه السلام ، وأما أيوب فهو من أنبياء الله ، وفى العهد القديم سفر خاص اسمه « سفر أيوب » ويحتوى على اثنين وأربعين إصحاحا . وفى صدر الإصحاح الأول ما نصه : « كان رجل فى أرض « عوص » اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما ويتقى الله ويحيد عن الشر ، وولد له سبعة بنين وثلاث بنات » ويستمر العهد القديم فى ذكر قصة حياته وبنوته وجهاده ، وعاش أيوب عمرا طويلا حتى رأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال ـ كما جاء فى آخر الإصحاح الثانى والأربعين من سفر أيوب .

وأمايونس فيسميه العهد القديم « يونان » وفى العهد القديم سفر يسمى سفر يونان ، ويحتوى على أربعة إصحاحات ، وقد بعث يونس إلى أهل « نينوى » .

وأما هارون نبى الله فأخو موسى بن عمران ، وزميله فى الجهاد الروحى

والسياسى فى بنى إسرائيل ، ومات وخلفه ابنه العازار . وأما سليمان وداود فأمرهما مشهور ، وقدم سليمان على أبيه داود لأنه لم ينزل عليه كتاب سماوى ، وشهرته بالسياسة والملك كانت ذائعة ، فاحتيج إلى تأكيد نبوته فقدم ذكره .

ولسليمان النبى الحكيم أمثال سائرة ، وهى تكون سفرا من أسفار العهد القديم . وتشمل واحدا وثلاثين إصحاحا .

وأما داود فأمر نبوته ومزاميره مشهور ، والمزامير هو الزبور الذى أنزل عليه ، وهى تشمل مائة وخمسين مزمورا ، كلها مملوءة حكمة وتوجيها صالحا لقومه وللإنسانية كافة ، وهى من أسفار العهد القديم .

وقد خص الله عز وجل موسى نبى الله ورسوله بالذكر ، لأنه صاحب كتاب منزل من السماء هى التوراة . وقد عاش طويلا يكافح قومه ويدعوهم إلى التوحيد ، « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ، ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته » كما جاء فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية ، وفى الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية أن موسى كتب التوراة « وسلمها إلى الكهنة من بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ بنى إسرائيل » . وعندما أكمل موسى كتابة كلمات التوراة فى كتاب إلى تمامها أمر موسى باللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحرى بعد موتى كما جاء فى الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية أيضا . وقد كانت نبوءة موسى صادقة بشهادة التوراة ، جاء فى العهد القديم فى سفر القضاة الإصحاح الثانى : « وفعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ، وعبدوا البعليم . وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر ، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها . وأغاظوا الرب ؛ تركوا الرب ، وعبدوا البعل

وعشتاروت ، فحمى غضب الرب على إسرائيل ، فدفعهم بأيدى ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم »..

هذا وتكليم الله لموسى خاص ممتاز عن غيره من ضروب الوحي العام لأولئك النبيين ، ولولا ذلك لم يختلف التعبير ، كما علمت من إيتاء داود الزبور ، وإن صح أن يسمى الوحى إليهم تكليما ، والتكليم لهم وحيا ، كما يفهم من قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء » ، والظاهر أن تكليم موسى كان من النوع الثانى وهو التكليم من وراء حجاب ، وقد سماه وحيا فى قوله تعالى « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » الخ ، أما حقيقة ذلك الوحى والتكليم فليس لنا أن نخوض فيه لأننا لم نكن من أهله ، على أننا لانعرف حقيقة كلام بعضنا مع بعض بواسطة الأصوات التى تجعل كل ذرة من الهواء متكيفة به ، وهى أعم الوسائط وأظهرها. وأما الحجاب فحكمته حصر القوة الروحية والاستعداد بالتوجه إلى شىء واحد تتحد فيه همومها وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار فى الشجرة . وأما الرسول الذى يرسله الله فيوحىَ إلى النبى بإذنه مايشاء فهو ملك الوحى المعبر عنه بالروح الأمين . واستدل بعضهم بتأكيد الفعل على كون تكليم الله لموسى لم يكن بواسطة الملك يعنون أنه لو قال هنا كما قال فى سورة البقرة « منهم من كلم الله » ولم يزد عليه كلمة « تكليما » المؤكدة لجاز أن يكون التكليم مجازيا ، فإن الفراء قال : إن العرب تسمى ماوصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر ، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام . وقال بعضهم : إن هذا التأكيد لايمنع أن يكون التكليم نفسه مجازيا لأنه يمنع المجاز فى الفعل لافى الإسناد ، بل يجوز أن يسند الكلام المؤكد بمثله إلى المبلغ عن المتكلم كما يبلغ عن الملك حاجبه أو وزيره وعن المرأة المحجبة زوجها أو ولدها ، ومنه إسناد الكلام إلى المترجم ، إذ المقصد من التكليم توجيه الخطاب إلى المخاطب ولو بواسطة المترجم أو غيره ، والمقصد من الكلام معناه ـ إلا أن يكون رسالة مقصودة لذاتها .

هذا والوحى فى اللغة : الإشارة والإيماء « فأوحى إليه أن سبحوا بكرة وعشيا » ، والإلهام الذى يقع فى النفس وهو أخفى من الإيماء « وأوحينا إلى أم موسى » ، وما يكون من دافع الغريزة الدائم للإنسان وغيره : « وأوحى ربك إلى النحل » ، والإعلام فى الخفاء وهو أن تعلم إنسانا بأمر تخفيه عن غيره ، قال تعالى : شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض . والكتابة والرسالة لأن فيهما تخصيصا . ووحى الله إلى الأنبياء والرسل : ما يلقيه إليهم عن العلم الضرورى الذى يخفيه عن غيرهم ، بعد أن يكون قد أعد أرواحهم لتلقيه بواسطه كالملك أو بغير واسطة .

وهذه الآيات الكريمة الأربع شاهدة حقا بضرورة الرسالات السماوية والحاجة البشرية إليها ، وبفضل محمد صلى الله عليه وسلم الذى شهد الله بصدق رسالته وبصدق القرآن المنزل عليه ، وشهدت الملائكة ، وكفى بالله شهيد .

ويقول الشيخ رشيد رضا : المتبادر من هذه الآية أن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند ما يحاسبهم الله تعالى فى الآخرة ويقضى بعذابهم ، ومفهوم سائر الآيات أنه لولا إرسال الرسل لكان للناس أن يحتجوا فى الآخرة على عذابها ، وعلى عذاب الدنيا الذى كان أصابهم بظلمهم . واستدل بها كثير من العلماء على امتناع مؤاخذة الله الناس وتعذيبهم على ترك الهداية التى لا تعرف إلا من الرسل عليهم السلام ، ويستدلون بآية الإسراء على نجاة أهل الفترة . وكل من لم تبلغه الدعوة . ولما كانوا شيعا تتعصب كل شيعة منهم لمذهب ينسب إلى كل عميد منهم قدسوه بإشهاره والانتساب إليه ، صارت كل شيعة تلتمس من الآيات ما يؤيد مذهبها وتؤول ما ينقضه . وعلى هذا الأساس أول بعضهم آية الإسراء بأن المراد بالرسول فيها العقل ، ويرد هذا التأويل سائر الآيات التى بمعناها كالآية التى نفسرها ، فلا يجد أبرع المؤولين والمحرفين منفذاً لمثل هذا القول فى الرسل المبشرين المنذرين ، الذين ذكروا فى سياق إثبات الوحى ، وقص الله على نبيه بعضهم وذكرهم بأسمائهم وبين أحوالهم ، وكذلك آية القصص « حتى يبعث فى أمها رسولا

يتلو عليهم آياتنا ، لا يقول عاقل : إن الرسول هنا هو العقل ، ولكن قد يقوله الذى جن فى مذهبه جنوناً مُطبقا ، وما المجانين فى ذلك بقليل ، وكيف والتقليد مبنى على عدم استعمال العقل فى فهم الدين ، والاكتفاء فيه بما يعزى إلى المذهب بحجة أن المقلدين تعجز عقولهم عن إدراك الأدلة العقلية والنقلية ، وإنما يفهمون من كلام علمائهم دون كلام الله وكلام رسوله . وقد اختلف العلماء الذين اتسع الناس مذاهبهم فى التكليف : هل يتوقف كله على إرسال الرسل ، أم يمكن أن يعرف كله أو بعضه بالعقل ؟ فقالت طائفة : لا يجب على أحد إيمان ولا عمل صالح ، ولا يحرم على أحد كفر ولا جرم ، ولا يستحق أحد ثوابا ولا عقابا على شىء ، إلا من بلغته دعوة رسول قامت بها عليه الحجة فإنه يكلف العمل بما جاء به فحسب ، ولا يجازى إلا على ذلك . وذهبت طائفة إلى أن التكليف بعد بعثة الرسل لا يتعدى ما جاءوا به لمن بلغته ، وأما من لم تبلغه دعوة فإنه يمكن أن يدرك بعقله حسن الأشياء والأعمال وقبحها ، ويجب عليه أن يعمل الحسن ويترك القبيح ، والله تعالى يؤاخذه بحسب ما يدركه من ذلك بالعقل ، كما يؤاخذه بحسب ما يدركه من ذلك بالشرع . والمتبادر من هذه الآية أيضا أن عدم إرسال الرسل يمكن أن يكون حجة للناس يوم القيامة إذا أراد الله أن يؤاخذهم ويعذبهم على ترك الهدى الذى جاءهم به أولئك الرسل . والمتبادر من آية سورة الإسراء أنه ليس من شأن الله تعالى ولا من سنته أن يعذب الأمم التعذيب السماوى العام الذى عبر عنه بقوله « فكلا أخذنا بذنبه فنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » إلا إذا أرسل إليهم رسولا فكذبوه ، وسنته فى هذا النوع من التعذيب مبينة فى مواضع من الكتاب العزيز ، فهو لا يأخذ به كل قوم كذبوا رسولهم بل من أنذرهم العذاب فتماروا بالنذر ، وتمادوا فى عناد الرسل . ومن أخذ القرآن بجملته وفقه أحكامه وحكمه يعلم أن الدين وضع إلهى لا يستقل العقل البشرى بالوصول إليه بنفسه بل يعرف بالوحى ، وأنه

مع هذا موافق لسنن الفطرة فى تزكية النفس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس ، فهو من حيث هو وضع إلهى ، يترتب على العمل به والترك جزاء وضعى يحدده الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وهذا الجزاء خاص بمن بلغته دعوته على وجهها . ومن حيث أنه موافق لسنن الفطرة يترتب على الاهتداء به تزكية النفس وعلى الإعراض عنه تدسيتها ، وتأثير العقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة والآداب العالية التى يهدى اليها تأثير فطرى ذاتى ، فكل من اهتدى بها زكت نفسه بقدر اهتدائه بهـا وإن لم يعلم أن رسولا جاء بها . وكذلك تأثير العقائد الباطلة والأعمال القبيحة والأخلاق الفاسدة التى ينهى عنها ، فكل من تلوثت بها نفسه فسدت وسفلت ، والأصل فى هذا وذاك الإخلاص فى إيثار ما يعتقد الإنسان أنه الحق والخير على ضده . فكما دلت الآيات على أن الله تعالى لا يؤاخذ الناس بمخالفة ما جاءت به الرسل إلا إذا بلغتهم دعوتهم ، وقامت عليهم حجتهم ، لأن هذا النوع من المؤاخذة وضعى لا يتحقق إلا بتحقق الوضع الذى يترتب هو عليه . كذلك تدل آيات أخرى على الحساب والجزاء العام وبالقسط على حسب تأثير الأعمال فى النفوس ، فمن دسى نفسه وأبسلها ، لا يمكن أن يكون عند الله كمن زكى نفسه وأسلها . ولا يمكن أن يقول عاقل : إن نفوس من لم تبلغهم الدعوة الصحيحة تكون سواء مهما اختلفت عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم . فإن هذا مخالف لحكم العقل وإدراك الحس ، إذ لم توجد أمة إلا وفيها الصالحون والطالحون والأبرار والفجار ، والذين يؤثرون ما يرونه من الهدى ، على داعية الشهوة والهوى ، والعكس . فهل يكون الفريقان عند الحكم العدل سواء ؟ « قل لا يستوى الخبيث والطيب » « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » ؟ .

١٦٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلًا بَعِيدًا .

١٦٨ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا .

١٦٩ — إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا .

١٧٠ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

بعد أن بين الله عز وجل فى الآيات الأربع السابقة أن رسالة محمد عليه السلام لم تكن بدعا من الرسالات ، وأنه اختير لحمل الرسالة كما اختير الأنبياء والرسل من قبله ، وأن الله يشهد بصدق رسالته ، وأن الحكمة فى الرسالة هى هداية الناس وقطع الحجة لهم على الله بعد إرسال الرسل ؛ ذكر هنا فى هذه الآيات الأربع الضلال البعيد الذى يقع فيه الكافرون برسالة محمد ، كما وقع فيه الكافرون برسالات الأنبياء والرسل من قبل ، وذكر حيرة هؤلاء الكافرين وغضب الله عليهم ، وعقابه الأليم المعد لهم فى الآخرة ، ودعا الناس عامة والإنسانية كلها ، والبشرية بجميع شعوبها وأممها إلى الإيمان برسالة محمد ، وبين عز وجل أن الإيمان بها خير للناس جميعاً ، وأن الكفر بها شر محض ، وسبب عذاب وغضب من الله ، وضلال وحيرة يصيب الكافرين وبالها الشديد .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الأربع :

« إن الذين كفروا وصدوا » الناس « عن سبيل الله » أى دين الإسلام بكتمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم اليهود « قد ضلوا ضلالا بعيداً » عن الحق، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ، ولأن المضل يكون أغرق فى الضلال وأبعد من الانقلاع عنه « إن الذين كفروا » بالله « وظلموا » نبيه

بكتمان نعته « لم يكن الله ليغفر لهم » لكفرهم وظلمهم « ولا ليهديهم طريقا » من الطرق « إلا طريق جهنم » أي الطريق المؤدى إليها « خالدين » أي مقدرين الخلود « فيها » إذا دخلوها، وأكد ذلك بقوله «أبداً» لأن الله لا يغفر أن يشرك به « وكان ذلك على الله يسيرا » أي هينا ، لا يصعب عليه ولا يستعظمه « يأيها الناس قد جاءكم الرسول » محمد صلى الله عليه وسلم « بالحق من ربكم » لما قرر من أمر النبوة ، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها ، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد « فآمنوا » بالله.. وقوله تعالى « خيراً لكم » وكذا قوله تعالى فيما يأتى «انتهوا خيراً لكم» منصوب بفعل مقدر، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال : خيراً لكم ، أي اقصدوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر أو التثليث ، وهو الإيمان والتوحيد : وقيل : التقدير : لكن في الإيمان خيراً لكم .

وقوله تعالى : « وإن تكفروا » أي بالله ورسالاته ورسله وكتبه المنزلة عامة ، وبمحمد صلوات الله عليه والقرآن خاصة . « فإن لله ما في السموات والأرض » أي ملكا وخلقا ، وهو غنى عنكم ، فلا يضره كفركم ، كما لا ينفعه إيمانكم ، ونبه الله عز وجل على غناه بقوله : «لله ما في السموات والأرض» ، وهو يعم ما اشتملتا عليه ، وما أحاطتا به ، « وكان الله عليما » أي بأحوالكم « حكيما » أي فيما دبره لكم .

هذا ، ومعنى أن الله لا يهدى الكافرين طريقا إلا طريق جهنم أنه من مقتضى سنته - كما يقول صاحب تفسير المنار - أن يهديهم طريقا أي يوصلهم إلى طريق من طرق الجزاء على عملهم إلا طريق جهنم ، وهي تلك الهاوية التى ينتهى إليها كل من يدسى نفسه بالكفر والظلم ، وهي الطريق التى اختاروها لأنفسهم ، وأوغلوا في السير فيها طول عمرهم ، كالذى يهبط الوادى يكون منتهى شوطه قرارة ذلك الوادى لا قمة الجبل الذى هو فيه ، فانتظار المغفرة ودخول الجنة لهؤلاء كانتظار الضدمن الضد والنقيض من النقيض ، أوانتظار

إبطال نظام العالم ونقض سنن الله تعالى وحكمته فى خلق الإنسان . هذا هو التحقيق فى مثل هذا التعبير ، لا ما يزعمه القائلون بالجبر لفظا ومعنى أو معنى فقط ؛ ولا ما يزعمه خصومهم من كل وجه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى قوم معينين علم الله منهم أنهم لايتوبون من كفرهم وظلمهم ، وإلا وجب تقييد عدم المغفرة والهداية لغير طريق جهنم بشرط عدم التوبة ، لأن من تاب تاب الله عليه كما هو ثابت بالنص والإجماع . وما حمل قائلى هذا القول عليه إلا غفلتهم عن كون هذا هو جزاء الكافرين الظالمين فى الآخرة ، وظنهم أن قوله تعالى « ولا ليهديهم طريقا » الخ ، هو عبارة عن حرمانهم من الهداية فى الدنيا ، وهذا هو الذى ساقهم إلى معتركهم فى الجبر والقدر ، لعدم تطبيق مثله على مقتضى الحكمة واطراد الأسباب والسنن .

وقوله تعالى فى هذه الآيات الأربع : « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » ينادى الله تعالى بهذه الآية جميع الناس ، فى سياق خطاب أهل الكتاب ، لأن الحجة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى بنبوة محمد ووجب عليهم الإيمان به ، فبالأولى تقوم على غيرهم ، ممن ليس لهم كتاب ككتابهم ، وذكر الرسول هنا معرفا لأن أهل الكتاب قد بشروا به ، وكانوا ينتظرون بعثته ، بعنوان أنه الرسول الكامل ، الذى هو المتمم الخاتم، ومما يدل على أن اليهود كانوا ينتظرون من الله مسيحا ونبيا بشر بهما أنبياؤهم ماجاء فى أوائل الفصل الأول من إنجيل يوحنا كما ذكر صاحب تفسير المنار، وهو أنهم أرسلوا بعض الكهنة واللاويين إلى يوحنا « يحى عليه السلام » ليسألوه من هو؟ وكانت قد ظهرت عليه أمارات النبوة - فسألوه: أأنت المسيح؟ قال: لا ، قالوا : أأنت النبي؟ قال: لا والشاهد أنهم ذكروا له النبي بلام العهد . فلا شك أن يهود العرب ونصاراهم لما سمعوا هذه الآية فى زمن التنزيل تذكر مجيء الرسول المعرف بصيغة التحقيق وهى قد ، فهموا أن المراد به الرسول الذى بشرهم به موسى فى التوراة وعيسى فى الإنجيل وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام . ومن لم يعرف شيئا من أمر هذه البشارات يفهم من التعريف معنى

آخر هو صحيح ومراد : وهو أن التعريف لإفادة أن هذا الرسول هو الفرد الكامل فى الرسل لظهور نبوته ، ونصوع حجته ، وعموم بعثته ، وختم النبوة والرسالة به ، ومعنى كونه جاء الناس بالحق من ربهم ، أنه جاءهم بالقرآن الذى هو أبلغ بيان للحق . وأظهر الآيات المؤيدة له . واختيار لفظ الرب هنا للإشعار بأن هذا الحق الذى جاء به يقصد به تربية المؤمنين وتكميل فطرتهم ، وتزكية نفوسهم .

١٧١ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا .

١٧٢ — لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا .

١٧٣ — فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

ثلاث آيات كريمات نزلت فى خطاب أتباع المسيح عليه السلام وهم

النصارى ، بعد أن أشبع القرآن الكريم الحديث مع اليهود وأتباع موسى عليه السلام . وقد غالت النصارى فى تقديس عيسى ، كما غلت اليهود فى تحقيره والغض من أمره والكفر به ..

وفى الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث ، ينهى الله عز وجل النصارى عن المغالاة فى المسيح وعن تقديسه وتنزيله منزلة الإله المعبود ، وفى الآية الثانية يبين الله عز وجل أن المسيح يشرفه أن يكون عبدا لله ، ولا يستنكف عن عبادة الله ، ولا يستنكف كذلك عن عبادته أحد حتى الملائكة المقربون ، والذين يستكبرون عن عبادة الله ويكفرون به فإن مصير الناس جميعا إلى الله ، وجزاؤهم معد لهم فى الآخرة عنده تعالى ، فللمؤمنين الطائعين النعيم المقيم والجزاء الأوفى ، وللكافرين والجاحدين والمارقين العذاب الأليم . يقول الله تعالى : « يأهل الكتاب لا تغلوا » أى لا تجاوزوا الحد « فى دينكم » الخطاب للفريقين ، غلت اليهود فى حط عيسى حتى رموه بالزنا ، والنصارى فى رفعه حتى اتخذوه إلها ، وقيل : للنصارى خاصة ، والمراد بالكتاب الإنجيل ، فإنه أوفق لقوله « ولا تقولوا على الله إلا الحق » من تنزيهه عن الشريك والولد « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها » أى أوصلها « إلى مريم » وجعلها فيها « وروحٌ » أى وذو روح « منه » أى من الله عز وجل وهو خالقه ، وسمى عيسى (كلمة الله وكلمة منه) لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير ، من غير واسطة أب ولا نطفة . وقيل له : روح الله وروح منه ، لأنه ذو روح وجسد من غير جزء من ذى روح ، كالنطفة المنفصلة من الأب الحى ؛ وإنما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته بأن أمر جبريل فنفخ فى مريم من روح الله فحملت به ، فأضيف إليه تشريفا له ، وليس كما زعمتم أنه ابن الله أو إلها أو ثالث ثلاثة ، لأن الروح مركب والإله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل . « فآمنوا بالله » تعالى

« ورسله » أي عيسى وغيره ، ولا تؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض « ولا تقولوا »
كما قالت النصارى : الآلهة « ثلاثة » الله وعيسى وأمه ، قال الله تعالى « انتهوا »
عن ذلك وائتوا « خيرا لكم » من ذلك وهو التوحيد « إنما الله إله واحد » أي
لا تعدد فيه بوجه ما « سبحانه » تنزيها له « أن » أي عن أن « يكون له ولد »
أي كما قلتم أيها النصارى ، فإن ذلك يقتضي الحاجة ويقتضي التركيب والمجانسة ،
ثم علل ذلك بقوله « له ما في السموات وما في الأرض » خلقا وملكا ، فلا يتصور
أن يحتاج إلى شيء منهما ولا إلى شيء متحيز منهما ، ولا يصح بوجه أن يكون
بعض ما يملكه المالك جزءا منه وولدا له ، لأن الملكية تنافي النبوة ، وعيسى وأمه
كل منهما محتاج إلى ما في الوجود « وكفى بالله وكيلا » أي يحتاج إليه كل شيء
ولا يحتاج هو إلى شيء ، فهو غني عن الولد ، فإن الحاجة إليه ليكون وكيلا لأبيه ،
والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء ، مستغن عمن يخلفه أو يعينه ، روى أن
وفد نجران قالوا : يارسول الله ، لم تعيب صاحبنا؟ قال : ومن صاحبكم ؟ قالوا :
عيسى ، قال : وأي شيء أقول؟ قالوا : تقول: إنه عبد الله ، قال : إنه ليس بعار
أن يكون عبدا لله ، قالوا : بلى . فنزل قوله تعالى « لن يستنكف » أي يتكبر
ويأنف « المسيح » أي الذي زعمتم أنه إله « أن » أي عن أن « يكون عبدا لله » فإن
عبوديته شرف يتباهى به ، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره ،
وقوله تعالى « ولا الملائكة المقربون » أي عند الله عطف على المسيح أي ولا
تستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله ؛ وهذا من جنس الاستطراد
ذكر للرد على من زعم أنها آلهة أو بنات الله ، كما رد بما قبله على النصارى
الزاعمين ذلك ، فلا حجة فيه على أن الملائكة أفضل من الأنبياء كما ذهب إليه
بعض المعتزلة ، قائلين بأن المعطوف أعلا درجة من المعطوف عليه ، قال الطيبي :
وإنما تنهض الحجة على النصارى إذا سلموا أن الملائكة أفضل من عيسى ،
فكيف والنصارى رفعوا درجة عيسى إلى الألوهية ، فظهر أن ذكر الملائكة
للاستطراد كما هو رد على النصارى وأنه من باب التتميم لا من باب الترقي . أو من
باب الترقي في الخلق لا في المخلوق كما قاله البقاعي ، قال : لأن الملائكة أعجب

خلقا من عيسى فى كونهم ليسوا من ذكر ولا أنثى ، فكانوا لذلك أعجب خلقا من آدم عليه الصلاة والسلام أيضا ، أو فى القوة لأنهم أقوى من عيسى ، لأنهم يقتلعون الجبال ويأتون بالمياه العظيمة والعبادات الدائمة المستمرة ، ويصح أن يكون ذكر الملائكة هنا لأنهم خلقوا من غير أب ولا أم كما خلق عيسى ، وهذا الرأى لم أقرأه لأحد « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر » أى يطلب الكبر عن ذلك ، « فسيحشرهم » أى المستكبرين وغيرهم « إليه جميعا » فى الآخرة بوعد لا يخلف فيجازيهم « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات » تصديقا لإقرارهم بالإيمان « فيوفيهم أجورهم » أى ثواب أعمالهم « ويزيدهم من فضله » أى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « وأما الذين استنكفوا واستكبروا » عن عبادته « فيعذبهم عذابا أليما » أى مؤلما هو عذاب النار بما وجدوا من لذاذة الترفع والتكبر « ولا يجدون لهم » أى حالا ولا مالا « من دون الله » أى غيره « وليا » يدفعه عنهم « ولا نصيرا » يمنعهم منه .

هذا وهذه الآيات الثلاث السابقة : يا أهل الكتاب ، وما بعدها ، أعظم نداء إلهى لأهل الكتاب ، وأرفع بيان سماوى لليهود والنصارى ، وهى دعوة صريحة لهم بالاعتدال فى الحكم ، والإنصاف فى العقيدة ، وأن يتركوا الغلو والمغالاة فى شأن المسيح ، وأن يتجنبوا الافتراء على الله ، والكذب عليه ، فلا يقولوا فيه إلا الحق ، فما المسيح إلا رسول . وهنا يصفه القرآن الكريم بأنه ابن مريم منعا لوصفه بالألوهية ، وبيانا لخطأ المخطئين فى عد إنسان مخلوق إلها معبودا من دون الله ، نعم هو كلمة الله وتكوينه وبشارته بلغها وألقاها إلى مريم البتول ، وهو روح من الله مؤيد بروح منه تعالى ، أو خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل الأمين ، أو أنه اجتمع له الأمران معا ، اجتمع له أنه مؤيد بروح من الله وخلق بنفخ من روح الله جبريل الأمين ، أوأن المعنى أنه حياة من الله ، أى أنه عاش على المبادىء الروحية يحيا بها ولها ، فهو روح كائنة من الله تعالى ، وليس معنى ذلك أن روحه بعض من الله كما

ذهب إليه المغالون من النصارى ، وقد ورد فى الأناجيل وصف عيسى بأنه ولد من الروح القدس ، والقدس الطهر ، فالروح القدس ملك من الملائكة ، والروح النجس[1] أو الشرير هو الشيطان ، وفى الإنجيل - إنجيل لوقا - أن اليصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس ، وأن زكريا أباه كذلك امتلأ من الروح القدس ، وأن الروح القدس كانت على سمعان . . وهذا الوصف فى شأن عيسى معناه أنه خلق بواسطة روح القدس ، وأن أتباعه الذين يقولون إن الآلهة ثلاثة كاذبون كافرون مخطئون ، أى لا تقولوا : الآلهة ثلاثة : الأب والإبن وروح القدس ، إنما الله إله واحد لا شريك له ، تنزه عن الشريك والولد ، له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وبذلك أبطل القرآن الكريم عقيدة التثليث وحاربها ، وأعلن أنها خروج عن التوحيد الخالص . وقد كان التثليث عقيدة وثنية هندية ، وعقيدة التثليث عند بعض النصارى لا تخرج عنها ، فهى عقيدة وثنية برهمية ، وكان التثليث كذلك عقيدة البوذيين ، وكان سائدا فى الصين ، كما كان معروفا عند المصريين القدماء . وكان الفرس يعبدون إلها مثلث الأقانيم مثل الهنود ، فعقيدة التثليث كانت ذائعة فى العالم القديم كله قبل المسيح ، وكان اليونانيون القدماء يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، وكان الرومانيون الوثنيون القدماء كذلك يؤمنون بالله والكلمة وروح القدس ، بل كان التثليث ذائعا فى شمال أوربا ، وهكذا نجد التثليث الذى تزعمه ودعا إليه بعض المتعصبين من النصارى كان عقيدة وثنية قديمة موروثة . . إن الله واحد لا شريك له ، ليس له والد ولا ولد ولا شريك ولا صاحبة ، وهذه هى تعاليم الإنجيل واضحة دون تأويل فيها ، يقول مرقس فى إنجيله على لسان يسوع المسيح : إن أول كل الوصايا هى : « اسمع يا إسرائيل الرب إلهك رب واحد » ، وقال له المخاطب وكان كاتبا : جيدا يا معلم الحق قلت ، لأنه الله إله واحد وليس آخر سواه[2] .

---

(١) فى الإصحاح الثانى عشر من إنجيل متى : إذا خرج الروح النجس من الإنسان . . الخ .

(٢) الإصحاح الثانى عشر من إنجيل مرقس .

إن هذه الآيات الثلاث أعظم رد لعقيدة التثليث الوثنية التى توارثها بعض أتباع المسيح عليه السلام ودعوا إليها ، وقد ردها الله عز وجل بهذه الحجج :

١ — لله ملك السموات والأرض ومن فيهن فهو ليس فى حاجة إلى الإبن ولا إلى غيره - سبحانه .

٢ — المسيح لا يستكبر عن عبادة الله ، وكذلك لا يستكبر عن عبادته تعالى الملائكة المقربون .

٣ — المسيح من أم معروفة هى مريم .

٤ — وحقيقة الأمر أن المسيح رسول من الله ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم ، وروح من الله .

١٧٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا .

١٧٥ — فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا .

آيتان كريمتان فى تمجيد رسالة محمد عليه السلام ، وفى تعظيم شأن كتابه المنزل عليه من السماء وهو القرآن الكريم ، وقد وصف الله عز وجل الرسول بأنه برهان من الله ، ثم وصف القرآن المنزل عليه بأنه نور مبين منزل من الله ، وصدرت الآية الأولى بخطاب البشر كافة ، وما يقوله المفسرون من أن الخطاب لمشركى مكة ، فهو بالنظر إلى أن الرسول كان يخاطبهم بآيات القرآن عند نزوله على أنهم مجتمع صغير يمثلون المجتمع الأكبر .

وهاتان الآيتان أعظم تبليغ إلى الإنسانية كلها برسالة محمد وبصدق الكتاب المنزل عليه من السماء وهو القرآن الكريم ، ولقد بشرت الأنبياء الإنسانية من قبل برسالة محمد عليه السلام ، وبشرية عيسى ، كما ورد فى إنجيل برنابا أحد الحواريين رضوان الله عليهم - جاء فى الفصل السادس والتسعين منه ما نصه :

١ — ولما انتهت الصلاة قال الكاهن بصوت عال : قف يايسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكينا لأمتنا .

٢ — أجاب يسوع : أنا يسوع بن مريم من نسل داود بشر مائت ويخاف الله وأطلب ألا يعطى الإكرام والمجد إلا لله .

٣ — أجاب الكاهن : إنه مكتوب فى كتاب موسى : إن إلهنا سيرسل لنا «مسيا» الذى سيأتى ليخبرنا بما يريد الله وسيأتى للعالم برحمة الله .

٤ — لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت «مسيا الله» الذى ننتظره

٥ — أجاب يسوع : حقا إن الله وعد هكذا ولكنى لست هو لأنه خلق قبلى وسيأتى بعدى .

٦ — أجاب الكاهن : إنا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله .

لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حبا فى الله بأية كيفية سيأتى مسيا

٨ — أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى أنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض .

٩ — ولكن عند ما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله .

١٠ — فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا.

١١ — حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله

١٢ — الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام .

١٣ — وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر .

١٤ — وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به .

١٥ — وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا

وجاء كذلك فى الفصل السابع والتسعين منه مانصه :

١ - ومع أنى لست مستحقا أن أحل سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه .

٢ - فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالى والملك قائلين : لاتزعج نفسك يايسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لاتحدث فى زمننا مرة أخرى .

٣ - لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى المقدس بإصدار أمر ملكى أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله .

٤ - فقال حينئذ يسوع : إن كلامكم لايعزينى لأنه يأتى ظلام حيث ترجون النور .

٥ - ولكن تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى ، وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم .

٦ - وإن مايعزينى هو أن لانهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحا .

٧ - فأجاب الكاهن : أيأتى رسل آخرون بعد مجىء رسول الله .

٨ - فأجاب يسوع : لايأتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله .

٩ - ولكن يأتى عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو مايحزننى .

١٠ - لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى إنجيلى .

١١ - أجاب هيرودس : كيف إن مجىء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل .

١٢ - أجاب يسوع : من العدل أن من لايؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب للعنته

١٣ - لذلك أقول لكم : إن العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائما وأحب الكاذبين كما يشاهد فى أيام ميشع وارميا لأن الشبيه يحب شبيهه .

١٣ - « مكررة فى الأصل » فقال حينئذ الكاهن . ماذا يسمى « مسيا » وما هى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ !

١٤ — أجاب يسوع : إن اسم « مسيا » عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى .

١٥ — قال الله : اصبر « يا محمد » لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التى أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا .

١٦ ومتى أرسلتك إلى العالم ، أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لايهن أبداً .

١٧ — إن اسمه المبارك « محمد »

١٨ — حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا ألله أرسل لنا رسولك . يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم ؟ !

وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم فى عصر اتفق الرواة على أنه من أرقى عصور العرب أدبا وفصاحة بما حواه من أساطين البلاغة ورجال البيان ، وبما كانت تقام فيه من أسواق تباع وتشرى فيها بنات الأفكار وثمار العقول ، فكان طبيعيا أن تكون معجزته ضربا من ذلك النوع ، لتكتسب صبغة الإعجاز بحق ، فأنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم معجزة له ، ظل يدحض بها أقوال المكذبين ، ويلجم أفواه المعارضين ، ويقرعهم به بضعا وعشرين عاما ، وهم ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مناظرته ، مع ما لهم من بلاغة القول ، وذرابة اللسان ، وما كانوا عليه من الحرص على مناوأته ، والعمل على إبطال دعواه . « كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . سمع الوليد بن المغيرة النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ مرة القرآن ، فعاد إلى قومه وقال لهم : والله لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

ومن دلائل إعجازه ما تضمنه من الأخبار بالمغيبات ، وما فيه من سير الأمم الماضية ، واشتماله على العلوم الواسعة ، والشرائع العامة ، وما اختص

به من بديع الأسلوب ، وإيجاز العبارة ، ونزوله مع كل ذلك على لسان رجل أمى لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، ولقد شهد له فلاسفة الغرب بالحق والصدق ؛ قال هنرى دى كاسترى : لقد شاهدنا أناسا وما كان أكثرهم أميين قاموا فى أمة العرب وادعوا النبوة ، منهم مسيلمة الذى زعم أنه قرين محمد ، أتى بسورة سخر العرب منها ، ولو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب ، أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته ، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله .

وقال بورث سميث : من حسن الحظ فى التاريخ دون غيره أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الأعمال : فإنه مؤسس لأمة وامبراطورية وديانة ، ومع أنه أمى وقلما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ، فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ، ودستور للشرائع والصلاة والدين فى آن واحد ، وهذا كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، ومعتبر معجزة فى علو إنشائه وحكمه وصدق عباراته ، وهو المعجزة التى يتمسك بها محمد ، معجزته القوية كما يقول ، وحقا إنه لمعجزة . وقال جيبون : القرآن مسلم به بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى ، وترتيب شئونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية . ولقد كان محمد مقتنعا بالأضرار الناجمة من رجال الكهنوت فى المسائل السياسية ، ومن مصالحهم الشخصية لإفساد الحكومات ، فلم يستحسن وجود مثل هذه الأمور فى ديانته ، ورغب فى أن يكون مع كل مسلم نسخة من القرآن ، وأن يجعلها نصب عينيه . وقال الدكتور موريس : إن القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغوى للغويين ، وأجرومية نحو لمن أراد تقويم لسانه ،

وكتاب عروض لمحب الشعر وتهذيب العواطف ، ودائرة معارف عامة للشرائع والقوانين

وقال توماس كارليل : لقد أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يقال : من أن الدين الإسلامى باطل ، وأن محمداً خداع ومزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل تلك الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ، أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث ، وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق . وعجيب وأيم الله أمة محمد ، ولم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء والعظماء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ ، صارم العزم ، بعيد الهمم ، كريما برا رؤوفا ، تقيا فاضلا حرا ، رجلا شديد الجد مخلصا ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ، تكذب أعماله وأقواله ، وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، فلقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدعى ماليس فيه ، ولم يك متكبرا . ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وقال تولستوى : مما لا ريب فيه أن النبى محمداً من

عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة بجملتها إلى الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام .

هذا هو الرسول ، وذلك هو القرآن الكريم ، معجزته الخالدة الباقية .. يقول الله تعالى : « يا أيها الناس » أى كافة أهل الكتاب وغيرهم « قد جاءكم برهان من ربكم » أى حجة نيرة واضحة مفيدة لليقين التام ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأدلة القاطعة من المعجزات وغيرها « وأنزلنا إليكم نورا مبينا » أى واضحا فى نفسه موضحا لغيره ، وهو القرآن الجامع بإعجازه وحسن بيانه ، فلم يبق لكم عذر ولا علة . وقيل : المراد بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم » أى بوعد لا خلف فيه « فى رحمة منه » أى ثواب عظيم هو رحمته لهم ، لا بشىء استوجبوه « وفضل » أى إحسان زائد عليه « ويهديهم » فى الدنيا والآخرة « إليه صراطا » أى طريقا « مستقيما » وهو الإسلام والطاعة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ..

١٧٦ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَٰلَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

ختمت بهذه الآية الكريمة سورة النساء ، وجاءت هذه الآية بيانا مكملا لفريضة الميراث فى الشريعة الإسلامية .

وقد روى عن جابر بن عبد الله قال : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب علىّ ، فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض . وروى عن جابر قال : اشتكيت فدخل النبى عليه السلام علىّ فقلت يارسول الله : أوصى لأخواتى

بالثلث ؟ قال : « أحسن » قلت بالشطر ؟ قال : « أحسن » ثم خرج ثم دخل علىّ فقال : « لا أراك تموت فى وجعك هذا ، إن الله أنزل وبين ما لأخواتك وهو الثلثان » فكان جابر يقول : نزلت هذه الآية فى « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة » . وعن حذيفة قال : نزلت آية الكلالة على النبى عليه السلام فى سير له فوقف النبى عليه السلام فإذا هو بحذيفة فلقاها إياه . فلما كان فى خلافة عمر نظر عمر فى الكلالة فدعا حذيفة فسأله عنها ، فقال حذيفة : لقد لقانيها رسول الله عليه السلام فلقيتك كما لقانى ، والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبدا . ويؤيد هذه الرواية ما رواه ابن سيرين قال : نزلت « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » والنبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان ، فبلغهاالنبى عليه السلام حذيفة ، وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه ، فلما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها فقال له حذيفة : والله إنك لعاجز ، إن ظننت أن أمارتك تحملنى على أن أحدثك ما لم أحدثك يومئذ . فقال عمر : لم أرد هذا رحمك الله . وروى ابن راهويه وابن مردويه أن هذه الآية نزلت بسبب سؤاله عن الكلالة فلم يفهمها ، فكلف حفصة أن تسأل النبى عليه السلام عنها عند ما تراه طيبة نفسه ، وروى عن عمر قال : « ما سألت النبى عليه السلام عن شىء أكثر ماسألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » . وعن البراء بن عازب أن رجلا سأل النبى عليه السلام عن الكلالة فقال : « تكفيك آية الصيف » وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن مثله ، وزاد : « فمن لم يترك ولدا ولا والدا فورثته كلالة » وقد أنزل الله فى الكلالة ـ كما قال الخطابى ـ آيتين : إحداهما فى الشتاء وهى الآية التى فى أول سورة النساء ، وفيها إجمال وإبهام لايكاد يتبين هذا المعنى من ظاهرها ، ثم أنزل الآية الأخرى فى الصيف وهى التى فى آخر سورة النساء ، وفيها من زيادة البيان ما ليس فى آية الشتاء ، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها .

وأصل الكلالة فى اللغة ما لم يكن من النسب لحاً أى لاصقا بلا واسطة ،

وقيل : إنه ماعدا الوالد والولد من القرابة وهو بيان للقول الأول ، وقيل : ماعدا الولد فقط ، وقيل الإخوة من الأم وقيل : الكلالة من العصبة من ورث معه الإخوة من الأم ، ويطلق هذا اللفظ على الميت الذى يرثه من ذكر ، وقيل : بل على الورثة غير من ذكر ، وقيل : على كل منهما ، والمرجح القرينة ، وهذا هو الصحيح لغة الذى يجمع به بين النصوص ، والجمهور على أن الكلالة من الموروثين من لا ولد ولا والد ، وهو الذى قضى به أبو بكر ، فالكلالة من الوارثين من كلّ وأعيا عن أن يصل إلى الميت الموروث بنفسه ، فهو يصل إليه بواسطة من يتصل نسبه به بالذات ، وإنما النسب المتصل بالذات الأصل والفرع ، وما علا من الأصول وسفل من الفروع هو عمود النسب ، فلا يكون كلالة ، فالكلالة من الوارثين هم الحواشى الذين يدلون إلى الميت بواسطة الأبوين أحدهما أو كليهما ، والكلالة من الموروثين هو الذى يرثه غير الولد والوالد ، فقول الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة : «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» : تقدم معنى الكلالة وحكم الآية فى أول السورة ، وفى هذه الآية بيان حكم ميراث الإخوة للأب والأم أو للأب ، وقوله تعالى «إن امرؤ هلك» أى مات «ليس له ولد» أى ولا والد وهو الكلالة ، قال الأصبهانى : اختلف أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى الكلالة ، فقال أبو بكر : هو ماعدا الوالد ، وقال عمر : ماعدا الوالد والولد ، ثم قال عمر : إنى لأستحى من الله أن أخالف أبا بكر . وقوله تعالى «وله أخت» يحتمل الحال والعطف ، والمراد بالأخت : الأخت من الأبوين والأب ، لأنه جعل أخوها عصبة ، والذى للأم لايكون عصبة ، والولد يشمل الذكر والأنثى ، فإن الأخت وإن ورثت مع البنت فلا ترث النصف ، وذلك عند تعدد البنت «فلها نصف ماترك وهو» أى هذا الأخ للميت «يرثها» أى إن ماتت هى وبقى هو جميع مالها «إن لم يكن لها ولد» فإن كان لها ولد ذكر فلا شىء له ، أو أنثى فله مافضل عن نصيبها ، ولو كانت الأخت أو الأخ من الأم ففرضه السدس كما مر «فإن كانتا» أى الأختان «اثنتين» أى فصاعدا ، لأنها نزلت فى

جابر ، وقد مات عن أخوات «فلهما الثلثان مما ترك» أى الأخ «وإن كانوا» أى الورثة «إخوة رجالا ونساء فللذكر» منهم «مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم» أى ولم يكلكم فى بيانه إلى بيان غيره مرغبا مرهبا «أن» أى كراهة أن «تضلوا» وقيل: لئلا تضلوا ، فحذفت (لا) وهو قول الكوفيين ، وقيل : يبين لكم ضلالكم الذى من شأنكم ، أى إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه «والله بكل شىء عليم» فهو عالم بمصالح العباد فى الحياة والممات ومنه الميراث ، روى عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آخر سورة نزلت كاملة براءة ، وآخر سورة نزلت من الفرائض خاتمة سورة النساء «يستفتونك» الآية ، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت «إذا جاء نصر الله» ، وروى عنه أن آخر آية نزلت قوله تعالى «واتقوا يوماً ترجعون» ، وروى بعد ما نزلت سورة النصر عاش النبى صلى الله عليه وسلم عاما ، فنزلت بعدها سورة براءة وهى آخر سورة نزلت كاملة ، فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها ستة أشهر ثم فى طريق حجة الوداع نزلت «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» فسميت آية الصيف ، ثم نزل وهو واقف بعرفة «اليوم أكملت لكم دينكم» ، فعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها إحدى وثمانين يوما ، ثم نزلت «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» ، فعاش النبى صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين يوما ..

وبذلك ينتهى الربع الثانى من هذا الجزء ، وبانتهائه تنتهى سورة النساء وقد اشتمل هذا الربع على ما يلى :

١ — الحديث عن رسالات الله إلى أنبيائه ورسله ، وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن بدعا من الرسالات ، وأنه بعث إليه كما بعث إلى رسل وأنبياء كثيرين من قبل ، وأن الرسالات السماوية ضرورية للإنسانية ، وبعث الرسل ضرورى للبشر ، ليبينوا للناس طريق التوحيد والخير والعدل والأمن والسلام ، ولتنقطع بهم حجة المعتذرين الذين يقولون : إن الله لم يرشدنا إلى طريق دينه وطاعته لنسير إليه ونمشى فيه ، ثم أكد الله عز وجل صحة رسالة

محمد وصحة نزول القرآن من السماء ، والملائكة كذلك تشهد بهذه الحقيقة الأبدية الخالدة .

٢ — بيان جزاء الكافرين والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن كلا من الفريقين لا عذر لهم عند الله بعد أن بين الله طريق الهدى وطريق الضلال .

٣ — دعوة الناس إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، فالإيمان بها خير فى الأولى والآخرة ، والكفر بها ليس ضرره عائدا على الله بل على الكافرين أنفسهم .

٤ — بيان الحقيقة فى شأن عيسى وعقيدة النصارى فى التثليث ، وتحذير أتباع عيسى من العناد والاستكبار ، وتقرير أنهم سوف يلقون جزاءهم كاملا غير منقوص فى الآخرة ، فللمؤمنين الجنة ، وللكافرين عذاب الجحيم .

٥ — تأكيد الإعلان العام إلى جميع الناس برسالة محمد عليه السلام ، وبأن القرآن هو منزل من عند الله هدى ونورا للعالمين .

٦ — إكمال الحديث فى شأن الميراث وبيان بعض الفرائض فى الميراث ، وبذلك ينتهى هذا الربع الكريم .

* * *

هذه هى خاتمة سورة النساء ، هذه السورة الكريمة التى تضمنت أروع الأصول والمبادىء فى الإسلام ، وتضمنت كذلك كثيرا من الأحكام والشعائر فى شريعة الإسلام الكريم ، دين الإنسانية الخالد ، دين القيمة والحق والصفاء والسلام ، ودين الحرية والعزة والكرامة ، ودين الإخاء والعدالة والمساواة بين البشر كافة .

وقد تضمنت هذه السورة دعوة قوية إلى التقوى والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه سلم ، وتضمنت إعلان الحرب على الوثنية والشرك والكفر ، وعلى المشركين والكافرين من الوثنيين وأهل الكتاب : من اليهود والنصارى ...

والسورة تتضمن كذلك أعظم المبادىء والأصول فى الحكم والسياسة والحرب والاجتماع ، وفى شئون الأسرة ؛ وفيها تحذير كامل للمنافقين وللمترددين ودعاة الهزيمة فى صفوف المسلمين ، وفيها أمر بالقتال فى سبيل الله ، للدفاع عن الوطن الإسلامى ، وعن حرية المسلمين ، وعن المستضعفين من النساء والأطفال والمرضى والشيوخ ؛ وفيها أمر بالهجرة من الوطن الذى يمتحن فيه المسلم فى عزته وكرامته وشرفه ودينه ، إلى وطن آخر يلقى فيه المسلم الأمن والسلام والحرية .

وفى السورة كذلك كثير من الأحكام فى معاملة القاصرين ، وفى تحذير الأوصياء من ظلم اليتامى وأكل أموالهم ، وفى الزواج والطلاق والخلاف الزوجى ، وفى شئون الميراث والوصية ، وفى صلاة القصر وصلاة الخوف ، وغيرها .

والسورة تتضمن المبادىء والأصول للحكم الإسلامى ، الذى يقوم على تحمل كل مسلم للمسئولية وأدائه لها كاملة ، وعلى التزام العدل فى معاملة الناس ، وعلى وجوب الاحتكام إلى القرآن فى كل شىء ، بجعله أساس حياتنا ، واتخاذ مبادئه وأصوله نبراساً لنا فى جميع شئوننا الدينية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية وسواها ، وينبنى على ذلك وجوب طاعة الله ورسوله وأولى الأمر الذين يجعلون شعارهم طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة القرآن الكريم .

وفى السورة كذلك أعظم شهادة من الله بصدق الرسول فيما بلغ به عن ربه ، وبأن القرآن الكريم هو معجزة من الله أنزله على محمد صلوات الله عليه بشيرا ونذيراً للعالمين ، وفيها كذلك أعظم إعلان عالمى بدعوة الناس والبشر كافة إلى الإيمان بالرسول وبالقرآن الكريم .

والسورة كذلك تتضمن حقوق المرأة واليتيم ، وتدعو إلى الإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وتحبذ الصدقة والإحسان إلى كل الناس ، والبر والعطف

بالوالدين والأقارب ؛ وهى تدعو إلى الزكاة والسخاء والجود بالمال ، وتنفر من البخل والشح ، وتنظم العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة على أساس سليم متين من الحب والمعاشرة والصفاء ، ومن وجوب التحكيم عند نشوب الخلاف ، ومن وجوب الصلح فى مواقف كثيرة ، والسورة كذلك توجب المهر فريضة للزوجة وصداقا لها ، والخمس والثلاثون آية الأولى كلها فى شأن الأسرة ومعاملة اليتامى والزوجات ، وفريضة الميراث ، وعقوبة الفاحشة وإشاعتها بين الناس ، وفى صدر السورة تحذير لتعدد الزوجات فى الإسلام بشرطه . . وبعد الخمس والثلاثين الآية الأولى محاجة لأهل الكتاب من اليهود ، ويمهد لها الله عز وجل بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن الشرك ، والأمر بالإحسان بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والجيران ، وتشنيع البخل وكتمان نعم الله ووعيد الكفر وعصيان الرسول . وذلك فى بضع آيات ليس فيها من آيات الأحكام شىء إلا ما ختمت به من آيات التيمم المفتتحة بالنهى عن الصلاة فى حال السكر . ثم صرح بعدها بحكاية أحوال اليهود فى دينهم وأخلاقهم ، وبين ما فى ذلك من العبر ، وما يستحقون عليه من الوعيد ، ليعلم سنة الله وحكمه فيمن يعمل مثل عملهم ، وتكون حاله كحالهم ، كما وعد من كان على ضد ذلك وهو الإيمان والصلاح لأجل العبرة والقدوة ، ويتناول ذلك الآيات ٤٣ — ٥٦ . ولما كان فى بيان أحوال اليهود ذكر لحالهم فى الملك لو كان لهم نصيب منه ، بين عقبه — كما يقول الشيخ رشيد رضا — ما يجب أن تؤسس عليه الحكومة الإسلامية وهو أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس كلهم بالعدل بلا محاباة ، وإطاعة الله فيما جاء فى الكتاب من الأحكام ، وإطاعة رسوله فيما مضت به سنته من بيانها والقضاء بها أو باجتهاده عليه السلام ، وأولى الأمر — وهم أهل الحل والعقد — فيما يضعون للناس من النظام المدنى والسياسى مما يحتاجون إليه بحسب المصالح العامة فى كل عصر ، فيكون ما يضعونه مطاعا فى الدرجة الثالثة . ثم شرع فى بيان أحوال المنافقين وأخلاقهم وما يجب ان يعاملوا به ، وأهم ذلك أحوالهم ومعاملتهم فى وقت القتال ، وبهذه المناسبة ذكرت أحكام

وحكم ومواعظ كثيرة تتعلق بالقتال والهجرة والأمان وقتل الخطأ والعمد وصلاة الخوف والسفر ، وقد أكد فى أثناء هذه الآيات أمر طاعة الله ورسوله ، وهذا كله من الآيات ٥٧ - ١٠٣ ، وجاءت آيات فى خطاب الرسول بالحكم بين الناس بما أراه الله فى كتابه ، والإشارة إلى واقعة أراد بعضهم أن يحابى الرسول فيها بعض المسلمين على أهل الكتاب ، وعقبها بما يناسب هذا المقام من الوعظ والوعد والوعيد ، ولا سيما وعيد من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ثم مسألة جواز المغفرة لما عدا الشرك ، يتبعها بيان شيء من ضلال مشركى العرب ، ثم بيان أن أمر النجاة فى الآخرة منوط بالإيمان والعمل ، لا بالأمانى والانتساب إلى دين شريف ونبى مرسل . فكانت أحكام هذه الآيات ومواعظها فى شؤون أهل الكتاب والمشركين والمؤمنين جميعاً ومزايا الإسلام ، ولذلك ختمها ببيان حسن ملة إبراهيم الحنيفية وهو المتفق على فضله عند هذه الطوائف كلها . وذلك حتى الآية ١٢٥ ، وتلا ذلك آيات فى أحكام النساء واليتامى والمستضعفين من الولدان ونشوز النساء والعدل بينهن ، والإصلاح بين الأزواج وتفرقهم ، دعمت بآيات فى الوصية بالتقوى والتذكير بالله تعالى ووعده ووعيده ، والأمر بالمبالغة فى القيام بالقسط والشهادة بالحق ولو على الأقربين والأغنياء والفقراء من غير محاباة ولا شفقة ، وذلك فى نحو عشر آيات . ثم عاد إلى الكلام فى أحوال المنافقين بعد التمهيد له بالأمر بالإيمان ، وذكر أركانه ووعيد الذين يتقلبون ويتذبذبون فيه ، فذكر موالاتهم للكافرين وسببها ومنشأها من نفوسهم ومخادعتهم لله ووعيدهم وجزاءهم وجزاء من تاب وأصلح منهم ، وجزاء المؤمنين الصادقين . وقد انتهى ذلك بآية ١٤٦ وهى آخر الجزء الخامس . ثم انتقل منه إلى أحوال أهل الكتاب فى الإيمان والكفر ، عوداً على بدء . فافتتح بحكم الجهر بالسوء من القول ، وكون الأصل فيه القبح والذم وحسن مقابله وهو إبداء الخير فى القول والعمل ، وبعد هذا ذكر الذين يفرقون بين الله ورسله بدعوى الإيمان ببعض والكفر ببعض ، وبيان عراقة هذا فى الكفر ، وما يقابله من الإيمان

بالجميع ، وقفى على ذلك ببيان مشاغبة اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وحجته تعالى عليهم بمعاندة موسى وعبادة العجل ونقض ميثاق الله وقتل الأنبياء وإيذاء المسيح وأمه والافتخار بدعوى قتله ، وختم ذلك ببيان حال الراسخين فى العلم منهم والمؤمنين ، وذلك فى نصف حزب ينتهى بآية ١٦١ . وبعد هذا أقام الله حجته على صحة نبوة خاتم رسله بكون وحيه إليه كوحيه إلى من قبله منهم ، وكونه بعث الرسل إلى كل الأمم ، أى فلم يجعله خاصا ببنى إسرائيل ، وكونه تعالى يشهد بما أوحاه إلى رسوله إذ جعله مقرونا بالعلم الأعلى ، منزلا على الأمى الذى لم يتعلم شيئا ، وختم هذا ببيان حال من يكفر به وغايته التى يؤول إليها ، ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به ، وذلك فى عدة آيات ، ثم حاجت السورة النصارى ، وأبطلت عقيدة التثليث . وأعلنت رسالة محمد وصدق القرآن إلى الناس كافة ، وختمت السورة كما بدئت بتتميم الكلام فى فريضة الميراث .

وهذه السورة كما ذكرنا هى السورة الرابعة من القرآن الكريم ، وآياتها مائة وست وسبعون آية ، وهى مدنية ، وقد نزلت بعد سورة الممتحنة ، وتسمى « سورة النساء الكبرى » — كما تسمى سورة الطلاق « سورة النساء الصغرى » — وهى أعظم السور عناية بشئون المرأة والأسرة ، ولذلك سميت باسم « سورة النساء » ، وفى السورة تفصيل لأحكام كثيرة من أحكام المال والاقتصاد ، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وفيها تفصيل لكثير من الأنظمة الإسلامية اللازمة لبناء كيان الأمة الإسلامية وتكوينها الداخلى ، وعلاقاتها الخارجية بالأمم الأخرى .

وقد نزلت هذه السورة بعد صلح الحديبية ، الذى كان فى السنة السادسة من الهجرة ، وقبل غزوة تبوك ، أى نزلت فى المدة ما بين عامى ٦ و ٩ من الهجرة .

وبعد ، فإن هذه السورة أكثر السور الطوال تناولا لأحكام القضاء والحكم والتشريع والأسرة فى الإسلام .

(٥)
ســـورة المائدة

تمهيد

(١)

سورة المائدة هى السورة الخامسة من سور القرآن الكريم ، وهى مدنية، وآياتها مائة وعشرون آية ، وقد نزلت بعد سورة الفتح ، والآية الثالثة من هذه السورة نزلت يوم جمعة فى عرفات فى حجة الودع ، وقد سميت هذه السورة بهذا الإسم لأنه ذكر فيها حديث المائدة التى أنزلت من السماء على حواريى عيسى عليه السلام ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قصد مكة للعمرة هو وأصحابه. فصدتهم قريش عن عمرتهم ، وحدثت حوادث بين المسلمين والمشركين انتهت بصلح رضيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يرتضه كثير من أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وقد نزلت هذه السورة وفى صدرها دعوة للمسلمين ليفوا لقريش والمشركين بمالهم من ذمة بعهد الحديبية .

وتسمى سورة المائدة كذلك «سورة العقود» ، لما اشتملت عليه من ذكر المواثيق والعهود ووجوب الوفاء بها ، وذكر نقض أهل الكتاب لمواثيقهم وعهودهم التى كان يجب عليهم ـ وهم أهل كتاب ـ الوفاء بها .

وتسمى بالمائدة لما فيها من ذكر للمائدة التى طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسأل ربه أن ينزلها عليه من السماء .

ومن عادة سور القرآن الكريم أن تسمى بأغرب شىء فيها ، كما رأينا من قبل فى سورة البقرة وآل عمران والنساء . . ولم يكن فى هذه السورة شىء غريب إلا مائدة عيسى عليه السلام، فلقبت السورة بسورة المائدة ، ويرى بعض العلماء وفى مقدمهم الشيخ محمود شلتوت أن هذه السورة لم تنزل إلا بعد فتح مكة وتقليم أظافر الشرك فى جزيرة العرب ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع ، وقال : «يأيها الناس

إن سورة المائدة آخر ما نزل ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » . وروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : « إن المائدة من آخر ماأنزل الله ، فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه » .

ولنترك حديث المائدة وقصتها إلى الموضع الذى سيأتى فيه ذكر لها .

ولا يفوتنا أن نقول : إن هذه السورة من السور الطوال ، وأنها وضعت بعد النساء ، لأن النساء قد ختمت بالأمر بالتوحيد والعدل بين العباد ، فأكد الله عز وجل ذلك الأمر بطلب الوفاء بالعقود ، أو لأن سورة النساء قد اشتملت على ذكر الوفاء بالعهد إجمالا فى قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، وتصريحاً فى عقد الزواج وعقد الحلف وعقد المعاهد والأمان ، فناسب ذلك ذكر : سورة العقود . . وبين السورتين شبه واضح فى دعوتهما إلى التوحيد وإلى الإيمان برسالات السماء ، وفى محاجة أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ، وفى الإلمام بذكر شىء من أحكام الوضوء والصلاة والعبادات والمعاملات والزواج ، والأمر بالتقوى والإيمان ، وترك المغالاة والتطرف فى العقائد ـ ولنبدأ ـ بعون الله ورعايته ـ فى شرح هذه السورة الكريمة . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

هاتان الآيتان الكريمان هما مطلع سورة المائدة ، وفاتحتها ، وقد اشتملتا على الأمر بالوفاء بالعهود والعقود التى عقدها وعاهد عليها الإنسان ربه أو نفسه أو غيره من الناس ، فكل عهد أبرمه الإنسان مع نفسه أو مع ربه أو مع الناس يجب الوفاء به . والوفاء بالعهد معناه العمل به والتزام مافيه وتنفيذه، وإطلاق الأمر بالوفاء بالعقود لتشمل كل عقد ، وليشمل الوفاء بها كل صورة من صور الوفاء ، ثم شرح الله عز وجل أوامر ونواهى الله للناس فى الحج وغيره ، وهى من العهود التى يجب على المسلم الوفاء بها ؛ فذكر الله عز وجل ما يلى :

١ — جميع الأنعام حلال أكلها للإنسان إلا ما ورد فيه نهى ونص .

٢ — الصيد حرام على المحرم ومفسد لعبادته .

٣ — لا يصح أن يحل المسلم شعائر الله فى الحج ، ولا معالم دينه ولا فرائضه فى أى وقت ، بل عليه أن يلتزم بالعمل بأوامر الله وتجنب نواهيه .

٤ — لايصح ارتكاب شيء من المحرمات فى الأشهر الحرم خاصة .

٥ — لايجوز إحلال الهدى ولا القلائد ، والهدى : هو الذى يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقرباً إليه تعالى، وإحلاله يكون بمنع بلوغه إلى محله من بيت الله ، كأخذه لذبحه غصباً أو سرقة، أو حبسه عند من أخذه ، ولا تحلوا القلائد التى يقلد بها هـذا الهدى بنزع القلادة من عنق البعير لئلا يتعرض لها أحد بجهله . وقيل: المراد بالقلائد ذوات القلائد من الهدى ، والمعنى: لاتحلوا الهدى مقلداً ولا غير مقلد ، وخص المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه .

٦ — لايصح التعرض لقوم يقصدون البيت الحرام يبتغون ثواب الله ورضوانه ، أو منعهم عن دخول البيت الحرام .

٧ — جواز أكل الصيد بعد الإحلال من الإحرام .

٨ — لايصح - من أجل التشفى والانتقام من الأعداء الذين صدوا المسلمين عن زيارة المسجد الحرام - أن يعتدى المسلمون عليهم فى الحرم ، أو أن يمنعوهم من زيارة البيت الحرام .

٩ — وجوب التعاون على الخير والبر والتقوى لاعلى الشر والإثم والعدوان.

١٠ — أمر الله لعباده بالتقوى ولو حذرا من عقابه ورجاء لثوابه .

يقول الله تعالى فى هاتين الآيتين : « ياأيها الذين آمنو أوفوا بالعقود » أى التى عقدها الله تعالى على عباده وألزمها إياهم من شرائع التكليف ، ومثلها ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوهما ، مما يجب الوفاء به ، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب ، والعقد : العهد ، شبه بعقد الحبل ونحوه ، وقد روى عن ابن عباس أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد إلى عباده ، وهى ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد فى القرآن كله ، وعن قتادة : هى عقود الجاهلية، أى ما كان من الحلف فيها ، وعن عبدالله ابن عبيدة : العقود خمس : عقدة الإيمان وعقدة النكاح وعقدة البيع وعقدة

العهد وعقدة الحلف . وعن زيد بن أسلم : عقدة النكاح وعقدة الشركة وعقدة اليمين وعقدة العهد وعقدة الحلف ، والأرجح أن الله تعالى أمرنا بالوفاء بجميع العقود الصحيحة التى عقدها علينا والتى نتعاقد عليها فيما بيننا ، فكل قول أو فعل يعده الناس عقدا فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى، مالم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام مما ثبت فى الشرع، كالعقد بالإكراه أو على إحراق دار أحد أو قتله . أو على الفاحشة ، أو أكل شيء من أموال الناس بالباطل ، وقوله تعالى « أحلت لكم بهيمة الأنعام » تفصيل للعقود ، لأن العقود مجملة فهى شاملة لجميع العقود ، لأن ذلك أمهات التكاليف ، أى أحل لكم أكل بهيمة الأنعام ، وجميع مافى هذه السورة من الأحكام تفصيل لذلك ، وقد روى عن ابن مسعود قال : أنزل الله تعالى فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى غيرها ، قوله تعالى : والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ، وما علمتم من الجوارح مكلبين، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . وتمام الطهر فى قوله تعالى : إذا قمتم إلى الصلاة ، والسارق والسارقة، ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم . الآية ـ وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ـ وقوله تعالى : شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت . وزيد عليه تاسعة عشر وهو قوله تعالى : وإذا ناديتم إلى الصلاة ، فليس للأذان ذكر فى القرآن إلا فى هذه السورة ، وأما مافى سورة الجمعة فهو مخصوص بالجمعة ، وهو فى هذه السورة عام فى جميع الصلوات . . والبهيمة كل حى لا يميز . أى من شأنه أنه لا يميز . فلا يدخل فى ذلك المجنون ونحوه ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وهى الأزواج الثمانية ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش. والإضافة هنا بمعنى البهيمة من الأنعام ، وقوله تعالى « إلا مايتلى عليكم » أى تحريمه فى قوله تعالى : حرمت عليكم الميتة . الآية ، وقوله تعالى « غير محلى الصيد » أى غير مجوزين أكل لحم الصيد وأنتم حرم ، وقوله تعالى :

« وأنتم حرم » جمع حرام وهو المحرم « إن الله يحكم ما يريد » من تحليل وتحريم وغيرهما على سبيل الإطلاق، فما فهمتم حكمته فذاك ومالا فكلوه إليه ، وارغبوا فى أن يلهمكم حكمته « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » جمع شعيرة ، وهو اسم ما أشعر أى جعل شعاراً وعلما للنسك من مواقف الحج ومرمى الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التى هى علامات الحاج يعرف بها : من الإحرام والطواف والسعى والحلق والنحر ، وقيل : معالم دينه ، وقيل : فرائضه التى حدها لعباده « ولا » تحلوا « الشهر الحرام » بالقتال فيه ، قال تعالى « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ؛ فيجوز أن يكون ذلك إشارة إلى جميع هذه الأشهر ، ويحمل اسم الواحد على الجنس ؛ لأن الأشهر كلها فى الحرمة سواء ، ولكن قال الزمخشرى : والشهر الحرام شهر الحج « ولا » تحلوا « الهدى » أى بالتعرض له ، وهو ما أهدى إلى الحرم من النعم « ولا » تحلوا « القلائد » أى صاحب القلائد من الهدى ، وعبر بالقلائد مبالغة فى تحريمها ، أو القلائد أنفسها ، والنهى عن إحلالها مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى ، والقلائد جمع قلادة وهى ما قلد به الهدى من فعل أوغيره ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له « ولا » تحلوا « آمين » أى قاصدين « البيت الحرام » لزيارته ، أى بأن تقاتلوهم « يبتغون فضلا من ربهم » وهو الثواب « ورضوانا » أى وأن يرضى عنهم ، أى لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم واستنكارا أن يتعرض لمثلهم ، وقيل : معناه يبتغون من الله رزقا بالتجارة ورضوانا بزعمهم ، لأنهم كانوا يظنون ذلك ، فوصفوا به بناء على ظنهم ، ولأن الكافر لا نصيب له فى الرضوان ، كقوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا ، فنهى الله تعالى المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت لقوله تعالى : « لا تحلوا شعائر الله » ، فعلى الأول الآية محكمة ، قال الحسن : ليس فى المائدة منسوخ ، وعلى الثانى قال البيضاوى : الآية

منسوخة أى لما فيها من حرمة القتال فى الشهر الحرام ، ومن حرمة منع المشركين عن المسجد الحرام ، فالأول منسوخ بقوله تعالى « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ، والثانى بقوله تعالى « فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ؛ فقوله (منسوخ) منزل على هذا ، لكن إذا قلنا بشمول « آمين » للمسلمين والمشركين إنما يكون النسخ فى حق المشركين خاصة ، وفى الحقيقة تخصيص لا نسخ ، ففى تسميته نسخ تسامح « وإذا حللتم » أى من الإحرام ، وقوله تعالى « فاصطادوا » أمر إباحة ، أباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم ، كأنه قيل : وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا ، كما فى قوله تعالى : « فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا فى الأرض » ، « ولا يجرمنكم » أى يحملنكم أو يكسبنكم « شنآن قوم » أى شدة بغضهم « أن صدوكم » أى لأجل أن صدوكم فى عام الحديبية أو غيره « عن المسجد الحرام » كما حدث من المشركين إذ صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية ، وقوله تعالى « أن تعتدوا » أى يشتد عدوكم عليهم بأن تنتقموا منهم بالقتل وغيره « وتعاونوا على البر والتقوى » أى بفعل ما أمرتم به « ولا تعاونوا » أى تتعاونوا « على الإثم » أى المعاصى للتشفى « والعدوان » أى التعدى فى حدود الله للانتقام « واتقوا الله » أى خافوا عقابه بأن تطيعوه « إن الله شديد العقاب » لمن خالفه ، فانتقامه أشد .

ويروى فى سبب نزول الآية أن الحطم بن هندى البكرى أتى النبى وحده وخلف خيله خارجة من المدينة ، فدعاه فقال : إلام تدعو ؟ فأخبره ، وكان النبى قال لأصحابه : « يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان » ، فلما أخبره النبى قال : أنظر ولعلى أسلم ولى من أشاوره . فخرج من عنده فقال رسول الله : « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر » فمر بسرح من سرح المدينة فساقه . . ثم أقبل من عام قابل حاجا قد قلد وأهدى ، فأراد رسول الله أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية حتى بلغ « ولا آمين البيت الحرام » فقال له ناس من أصحابه : يا رسول الله خل بيننا وبينه فإنه طلبتنا . قال : إنه قد قلد . قالوا : إنما هو شىء كنا نصنعه فى الجاهلية ، فأبى عليهم »

فنزلت هـذه الآية . وروى عن ابن جريج عن عكرمة أن الحطم قـدم المدينة فى عير له يحمل طعاما فباعه ثم دخل على النبى فبايعه وأسلم . فلما ولى خارجا نظر إليه فقال لمن عنده « لقد دخل على بوجه فاجر وولى بقفا غادر » . فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام ، وخرج فى عير له تحمل الطعام فى ذى القعدة يريد مكة ، فلما سمع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقطعوه فى عيره ، فأنزل الله « ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » فانتهى القوم ، وقيل: إن الحطم قدم على النبى ليرتاد وينظر فقال: إنى داعية قوم فأعرض علىّ ما تقول . قال له « أدعوك إلى الله أن تعبده ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت » قال الحطم : إن فى أمرك هذا غلظة ، فأرجع إلى قومى فأذكر لهم ماذكرت ، فإن أقبلوا أقبلت معهم وإن أدبروا كنت معهم ، قال له : ارجع . فلما خرج قال « لقد دخل على بوجه كافر ، وخرج من عندى بعقبى غادر ، وما الرجل بمسلم » ، ففاتهم وقدم اليمامة وحضر الحج فجهز خارجا ، وكان عظيم التجارة ، فاستأذنوا أن يتلقوه ويأخذوا مامعه . فأنزل الله عز وجل « لاتحلوا شعائر الله » الخ .

٣ — حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٤ — يَسْئَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

٥ — الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ .

هذه الآيات الكريمة الثلاث فيها تفصيل كثير للإجمال السابق ، وفيها بيان للمحرمات من المآكل ، ولما أحل للمسلم منها ؛ وفي آخرها ، بين الله عز وجل من يحل للمسلم أن يتزوج بها من النساء ومن لا يحل .. والآيات الثلاث أجمع الآيات فى بيان الحلال والحرام « حرمت عليكم الميتة » أى أكلها ، وهذه الجملة بيان لقوله تعالى « مايتلى عليكم » ، والميتة : مافارقت الروح من غير زكاة شرعية « والدم » أى المسفوح ، قال تعالى : أو دما مسفوحا ، وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ويشوونها « ولحم الخنزير » أثبت الطب الحديث مضار أكل لحم الخنزير ، ومايسببه للإنسان من أمراض وبيلة وجراثيم فتاكة « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله بأن ذبح على اسم غيره ، والإهلال رفع الصوت ، ومنه يقال : فلان أهل بالحج إذا لبى ، وكانوا يقولون عند الذبح : باسم اللات والعزى ؛ قال ابن عادل : وقدم هنا لفظ الجلالة فى قوله « لغير الله به » ، وأخره فى البقرة ، لأنها هناك فاصلة

أو تشبه الفاصلة بخلافها هنا ، فإن بعدها معطوفات ‹ والمنخنقة › وهى التى ماتت بالخنق ، سواء كان فعل بها ذلك آدمى أم اتفق لها ذلك ‹ والموقوذة › وهى التى وقذت أى ضربت حتى ماتت ، ويدخل فى الموقوذة مارمى بالنار فمات ‹ والمتردية › أى الساقطة من علو بأن سقطت من جبل أو فى بئر أو غيره فماتت ، ولو رمى صيدا فى الهواء بسهم فأصابه فسقط على الأرض ومات حل ، لأن الوقوع على الأرض من ضرورته ، وإن سقط على جبل أو شجر ثم تردى منه فمات لم يحل ، لأنه من المتردية إلا أن يكون السهم ذبحه فى الهواء فيحل كيفما وقع ، لأن الذبح قد حصل قبل التردى والسقوط ، وخصت الشاة لأنها من أعم ما يأكل الناس ، والكلام يخرج على الأعم ، وأما الهاء فى قوله تعالى ‹ والنطيحة › وهى التى تنطحها أخرى فتموت ، وما فى قوله تعالى ‹ وما أكل السبع › بمعنى الذى أى وما أكله السبع ، ولابد من حذف ، ولهذا قال الزمخشرى : وما أكل بعضه السبع ، وهذا يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت ما اصطادته لم يحل أكله ؛ وقوله تعالى ‹ إلا ماذكيتم › أى إلا ما أدركتم ذكاته وصار حياة مستقرة من ذلك فهو حلال ، ويصح أن يكون الاستثناء مخصوصاً بما أكل السبع ، وقيل : الاستثناء منقطع ، أى ولكن ما ذكيتم من غيرها فحلال أو فكلوه ، وكأن هذا القائل رأى أنها وصلت بهذه الأسباب إلى الموت أو إلى حال قريب منه ، فلم تفد تذكيتها عنده شيئا . وقيل : الاستثناء من التحريم لا من المحرمات ، أى حرم عليكم ما مضى إلا ما ذكيتم فإنه لكم حلال . فيكون الاستثناء منقطعاً أيضاً . . وأقل الذكاة فى الحيوان المقدور عليه قطع الحلقوم والمرىء ، وكماله قطع الودجين معهما جميعاً ، وهما عرقان فى صفحتى العنق ، ويجوز الذبح بكل محدد ، لقوله صلى الله عليه وسلم : ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ، وقوله تعالى ‹ وما ذبح على النصب › معطوف على الميتة أى وحرم عليكم ذلك ؛ والنصب واحد الأنصاب ، وهى حجارة كانت حول الكعبة فيذبح عليها تقربا إليها وتعظيما لها ، وقيل : هى الأصنام لأنها تنصب لتعبد ، و (وعلى) بمعنى (اللام) أو على

أصلحها بتقدير : وما ذبح مسمى على الأصنام ، وأن تستقسموا بالأزلام ، فى محل رفع أيضاً عطفا على الميتة ، أى وحرم عليكم ذلك ، والأزلام جمع زلم[1] وهو قدح[2] صغير ، وهو سهم لا ريش له ولا نصل ، وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها : أمرنى ربى ، وعلى الآخر : نهانى ربى ، والثالث غفل ، لا شىء عليه ، فإن خرج الذى عليه « أمرنى ربى » مضوا فى الأمر ، وإن خرج الذى عليه « نهانى ربى » أمسكوا وتجنبوا عمل الشىء ، وإن خرج الغفل أعادوا الاستقسام بالأزلام مرة ثانية ، ومعنى الاستقسام بها طلب معرفة ما قسم للإنسان وقدر له وكتب عليه بهذه القداح ، وفى معنى ذلك علم التنجيم وعلم الكف والحصا واللعب بالورق لاستكشاف الغيب وما أشبه ذلك .

روى عن الحسن قال : كانوا إذا أرادوا أمرا أو سفرا يعمدون إلى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوب (اؤمرنى) ، وعلى الآخر (انهنى) ، ويتركون الآخر محللا بينها ليس عليه شىء ، ثم يجيلونها ؛ فإن خرج الذى عليه اؤمرنى مضوا لأمرهم ، وإن خرج الذى عليه انهنى كفوا ، وإن خرج الذى ليس عليه شىء أعادوها . وروى عن آخرين فى الكتابة كلمات أخرى بمعنى ما ذكرنا . وعن السدى أنها كانت تكون عند الكهان ، فإذا أراد الرجل أن يسافر أو يتزوج أو يحدث أمرا أتى الكاهن فأعطاه شيئا فضرب له بها ، فإن خرج شىء يعجبه منها أمره ففعل ، وإن خرج شىء يكرهه نهاه فانتهى ، كما ضرب عبد المطلب على زمزم وعلى عبد الله والإبل . وروى عن ابن إسحاق قال : كانت هبل أعظم أصنام قريش بمكة وكانت فى بئر فى جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر التى يجمع فيها مايهدى للكعبة . وكانت عند هبل سبعة قداح كل قدح منها فيه كتابة : قدح فيه الديات ، إذا اختلفوا فيها من يحملها ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه « نعم » للأمر إذا أرادوه يضرب به

---

(١) بوزن قلم . (٢) بكسر القاف .

فإن أرادوه يضرب به فإن خرج قدح « نعم » عملوا به ، وقدح فيه « لا » فإذا أرادوا أمرا ضربوا فى القداح فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك ، وقدح فيه « منكم » وقدح فيه « ملصق » وقدح فيه « من غيركم » وقدح فيه « المياه » إن أرادوا أن يخرجوا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القداح ، فحيث ما خرج عملوا به ، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو أن ينكحوا منكحا أو أن يدفنوا ميتاً أو يشكوا فى نسب واحد منهم ذهبوا به إلى هبل بمائة درهم وبجزور (١) فأعطاها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب ، فيضرب ، فإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفا ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على ميراثه منهم لا نسب له ولا حلف ، وإن خرج فيه سوى هذا مما يعملون به « نعم » عملوا به ، وإن خرج « لا » أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى ، ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح .

أما الاستخارة فليست من قبيل ذلك ، بل هى توجه إلى الله بأن يبصر الإنسان الطريق ، ويدله على الخير ، ويرشده إلى ما فيه الصلاح للإنسان ؛ وسبب تحريم الاستقسام ما فيه من تعظيم الأصنام ، أو لأنه طلب لعلم الغيب الذى استأثر الله به ، وقيل : لأن فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم « أمرنى ربى » الله عز وجل . وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم ، ويرد بأن هذا رواية عن بعض الأزلام لا عن كلها وقيل : إن سبب تحريمها أنها من الخرافات والأوهام التى لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل يفعل ما يفعل ، ويترك ما يترك عن غير بينة ولا بصيرة ، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة ، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم . فلا غرو أن يبطل ذلك بين العقل والبصيرة والبرهان ، كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة

(١) الجزور : البعير سمى بذلك لأنه يجزر ويذبح .

وسائر خرافات الجاهلية ، ولا يليق ذلك إلا بجهل الوثنية وأوهامها . حتى لايضطرب عليه أمره ولا تطول غمته ، وهى عبارة عن التوجه إلى الله عز وجل والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل الحيرة ويهيء وييسر الخير، وجدير هذا بأن يشرح الصدر لما هو خير الأمرين ، وهذا هو اللائق بأهل التوحيد أن يأخذوا بالبينة والدليل الذى جعله الله تعالى مبينا للخير والحق ؛ فإن اشتبه على أحدهم أمر التجأ إلى الله تعالى ، فإذا شرح صدره لشيء أمضاه وخرج به من حيرته ، والقرعة تشبه ذلك بل أمرها أظهر . فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعا كالقسمة بين اثنين ، فإنه لا وجه لإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصة وعمرو الأخرى ، فالقرعة طريقة حسنة عادلة . وقس على هذا مايشبهه . والذى صح فى الاستخارة ما رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربع من حديث جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول :إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل « اللهم إنى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم ؛ فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال عاجل أمرى وآجله - فاقدُره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدُر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به » .

وليس فى هذه الرواية التى رواها الجماعة - كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار - إشارة ما إلى معنى يقرب من معنى الاستقسام ولا التفاؤل ؛ بل هى أمر بعبادة ودعاء عند الاهتمام بالأمر والعزم عليه ، حتى لاينسى المؤمن ربه تعالى عند اهتمامه بالشأن من شؤون الدنيا . وما بيناه من فقه الاستخارة وحكمتها فى بدء الكلام عنها مبنى على ما اشتهر من معناها عند الجمهور ، ولا أعرف له أصلا صحيحاً فى السنة . ولكن روى ابن السنى فى عمل يوم وليلة ،

والديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس « إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى الذى يسبق إلى قلبك فإن الخيرة فيه » قال النووى فيه أنه يفعل بعد الاستخارة ماينشرح له صدره ، لكنه لايقدم على ما كان له فيه هوى قبل الاستخارة . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح بعد ماعزى الحديث إلى ابن السنى : لو ثبت لكان هو المعتمد ولكن سنده واه جداً ، وقوله تعالى « ذلكم فسق » إشارة إلى ماذكر تحريمه ، أى خروج عن الطاعة ، وقيل : إشارة إلى الاستقسام وكونه فسقا ، لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب ، وقد قال تعالى : « قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » ، وقول الفاسق : أمرنى ربى ونهانى ربى افتراء على الله عز وجل ، إن كان أراد (ربى) الله . وما يدريه أن الله أمره أو نهاه . فالكهنة والمنجمون بهذه المثابة ؛ وهو جهالة وشرك إن أراد الصنم ، وقوله تعالى « اليوم » لم يرد به يوما بعينه ، وإنما أراد الحاضر ، وما هو متصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية ، وقيل : الألف واللام للعهد ، قيل : أراد يوم نزولها ، وقيل : نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع ، وقيل : يوم دخوله صلى الله عليه وسلم مكة سنة تسع ، وقيل : ثمان .. وقوله تعالى « يئس الذين كفروا من دينكم » فيه قولان : أحدهما : يئسوا من أن يحلوا هذه الخبائث بعد أن جعلها الله محرمة ، والثانى يئسوا من أن يغلبوكم على دينكم فترتدوا عنه بعد أمانيهم الباطلة ، ذلك لما رأوا من قوته ، لأنه تعالى كان وعد بإعلاء هذا الدين على كل الأديان بقوله تعالى « ليظهره على الدين كله » ، فحقق ذلك النصر وأزال الخوف « فلا تخشوهم » أن يظهروا عليكم « واخشون » أى وأخلصوا الخشية لى وحدى ، فإن دينكم قد اكتمل وجل عن الزوال أو الإندثار وقوله تعالى « اليوم » مسوقاً مساق التعليل « أكملت لكم دينكم » أى الذى أرسلت به أكمل خلق صلى الله عليه وسلم . وقد نزلت هذه الآية يوم الجمعة يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات ، وعن عمر رضى الله عنه أن رجلا من اليهود قال

له : يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها ، لو علينا معاشر اليهود نزلت لاتخذناذلك اليوم عيدا قال : أى آية ؟ قال « اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » قال عمر : قد عرفنا ذلك والمكان الذى أنزلت فيه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة ، أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيدا ، قال ابن عباس : كان ذلك اليوم خمسة أعياد : جمعة وعرفة وعيد اليهود وعيد النصارى والمجوس ، ولم يجتمع أعياد أهل الملل فى يوم قبله ولا بعده ، وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله عنه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : مايبكيك ياعمر ؟ قال : أبكانى ناكنا فى زيادة من دينا ، فإذا كمل فلم يكمل شىء إلا نقص ، قال : صدقت ، فكانت هذ الآية نعيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عاش بعدها إحدى وثمانين يوما ومات يوم الإثنين بعد مازاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وقيل : توفى يوم الثانى عشر من ربيع الأول وكانت هجرته فى الثانى عشر منه . فقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » أى الفرائض والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام ، فلم ينزل بعد هذه حلال ولا حرام ، ولا شىء من الفرائض ، وهذا معنى قول ابن عباس ، وقال سعيد بن جبير وقتادة : الوم أكملت لكم دينكم وأمنتكم من العدو ، فإن قيل : إن قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ـ يقتضى أن الدين كان ناقصا قبل ذلك ، وذلك يوجب أن الدين الذى كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم أكثر عمره كان ناقصا ، وإنما وجد الدين الكامل فى آخر عمره مدة قليلة ، فالجواب أن الدين لم يكن ناقصا ، بل كان كاملا ، وكانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت ، إلا أنه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ، وأما فى آخر الزمان المقدر فيه انتهاء نزول الرسالة ، فأنزل شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة ، فالشرع أبدا كان كاملا إلا أن الأول كامل إلى زمان مخصوص ، والثانى كامل إلى يوم القيامة ، ولهذا قال :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » أى بإكماله ، وقيل : بدخولهم مكة آمنين ، ورضيت ـ أى اخترت لكم الإسلام دينا من بين الأديان ، وهو الدين عند الله لا غير ، قال تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » وقوله تعالى : « فمن اضطر » هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما فهو اعتراض بما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضى ؛ والمعنى : فمن اضطر إلى تناول شىء من المحرمات « فى مخمصة » أى مجاعة « غير متجانف » أى مائل « لإثم » أى معصية ، بأن يأكل ذلك تلذذا ومجاوزا حد الرخصة كقوله تعالى « غير باغ ولا عاد » . « فإن الله غفور » له ما أكل « رحيم » به فى كل إباحته فلا يؤاخذه.

« يسألونك » يا محمد « ماذا أحل لهم » من الطعام « قل » يا محمد لهم « أحل لكم الطيبات » أى ما ليس بخبيث منها ، وهو كل مالم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة أو قياس مجتهد ، ولا مستقذر من ذى الطباع السليمة ، وهذا يشمل كل ما ذبح وهو مأذون فى ذبحه مما كانوا يحرمونه على أنفسهم من السائبة وما معها ، وكل ما أذن فيه من غير ذبح كحيوان البحر ، وما أذن فيه من غير المطاعم ، والتعبير بالطيبات يشعر بأن الإسلام إنما يحافظ على الإنسان ، ولا يحل له إلا ما تطيب به نفسه ، وما يجوز له أكله ، وما لا يكون أكله مستبشعاً قذرا فى نفسه ، وقوله تعالى : « وما علمتم من الجوارح » معطوف على الطيبات أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم ، فحذف المضاف للعلم به ، والجوارح جمع جارحة من سباع البهائم والطير ، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والباز والشاهين ، والهاء للمبالغة ، سميت بذلك لأن الجرح : الكسب ، لأنها تكسب الصيد ؛ ومنه قوله تعالى : « ويعلم ما جرحتم بالنهار » أى كسبتم ، أو لأنها تجرح الصيد غالبا .. وقوله تعالى : « مكلبين » حال من ضمير علمتم أى حال كونكم معلمين هذه الكواسب الصيد ، والمكلب : المؤدب الجوارح ومغريها لأن التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب ، أو لأن السبع يسمى كلبا ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عتبة بن أبى لهب — وقد أراد سفر الشام ، وكان

يعادي النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، فأكله الأسد ، وقوله تعالى : « تعلمونهن » المعنى: أن يكون من يعلم الجوارح فقيها عالما بالشرائط المعتبرة في الشرع لحل الصيد ؛ وفي هذه فائدة جليلة ، وهي أن على كل طالب لشيء أن لا يأخذه إلا من أجلّ العلماء به وأشدهم دراية له ، ووقوفا على حقائقه ، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل ، فكم من آخذ من غير متقن قد ضيع أيامه وعض أنامله « مما علمكم الله » أي من العلم بطرق الصيد ووسائله ، لأنه إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه ، أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه « فكلوا مما أمسكن » أي الجوارح مستقرا إمساكها عليكم أي على تعليمكم ، وإن قتلته بأن لم تأكل منه بخلاف غير المعلمة : فلا يحل صيدها . والتعليم فيها ثلاثة أشياء : إذا أرسلت سارت ، وإذا زجرت انزجرت، وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل منه ؛ وأقل ما يعرف به ذلك ثلاث مرات ، فإن أكلت منه فليس مما أمسكن على صاحبها ، فلا يحل أكله كما في حديث الصحيحين، وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه . وعن علي رضي الله عنه : إذا أكل البازي فلا تأكل ، وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء ، وقال بعضهم : لا يشترط ذلك في سباع الطير ، لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر ، وقال آخرون : لا يشترط مطلقا . وفي الحديث : إن صيد السهم إذا أرسل وذكر اسم الله عليه كصيد المعلم من الجوارح « واذكروا اسم الله عليه » في مرجع الضمير ثلاثة أوجه : أحدها : أنها تعود إلى المصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل ، كأنه قيل : واذكروا اسم الله على الأكل ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : سم الله وكل مما يليك ، الثاني : أنها تعود على ما علمتم ، أي اذكروا اسم الله على الجوارح عند إرسالها على الصيد ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه ، الثالث : أنها تعود على (ما أمسكن) ، أي أذكروا اسم الله على ما أدركتم ذكاته مما أمسكن عليكم

الجوارح « واتقوا الله » أى فى محرماته « إن الله سريع الحساب » فيؤاخذكم بما جل ودق . « اليوم أحل لكم الطيبات » أى المستلذات « وطعام الذين أوتوا الكتاب » أى ذبائح اليهود والنصارى « حل » أى حلال « لكم » ، وأما المجوس فقد فرض تقريرهم بالجزية دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم ، قال صلى الله عليه وسلم : سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم ، رواه الإمام مالك « وطعامكم » إياهم « حل لهم » فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوهم منه ، ولو حرم عليهم لم يجز ذلك « والمحصنات من المؤمنات » أى الحرائر أى قد أحل لكم الزواج بهم « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » وهم اليهود والنصارى ، أى حل لكم الزواج بهن « إذا آتيتموهم أجورهن » أى مهورهن وتقييد الحل بإتيانهن المهور لتأكيد وجوبها ، فإن من تزوج امرأة وعزم أن لا يعطى صداقها لها كان فى صورة الزانى « محصنين » أى قاصدين الإعفاف والعفاف ، وقيل : متزوجين « غير مسافحين » أى معلنين بالزنا بهن « ولا متخذى أخدان » أى مسرين بالزنا منهن ، والخدان : الصديق يقع على الذكر والأنثى ، قال الشعبى : الزنا ضربان : السفاح وهو الزنا على سبيل الإعلان ، واتخاذ الخدن ، وهو الزنا الخفى ، والله تعالى حرمهما فى هذه الآية وأباح التمتع بالمرأة على جهة الإحصان ، وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » فبقى على التحريم ما تضمنته تلك ، ما عدا الكتابيات من الوثنيات وغيرهن من جميع المشركات ، حتى المنتقلة من الكتابيات من دينها إلى غير دين الإسلام ؛ وقوله تعالى « ومن يكفر بالإيمان » اختلف المفسرون فى معناه : فقال ابن عباس ومجاهد : ومن يكفر بالإيمان ، أى بالله الذى يجب الإيمان به ، وقال الكلبى : ومن يكفر بالإيمان ، أى بكلمة التوحيد ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، لأن الإيمان من لوازمها ، وقال قتادة : إن ناسا من المسلمين قالوا : كيف نتزوج نساءهم مع كونهم من غير ديننا ؟ فأنزل الله هذه الآية : ومن يكفر بما أنزل الله فى القرآن فهو كذا وكذا ، فسمى القرآن

إيمانا لأنه مشتمل على بيان كل مالابد منه فى الإيمان ، والمراد من ذلك أن يأتى بشىء يصير به مرتدا ، فقد حبط ، أى فسد ، عمله ، الصالح قبل ذلك إذا اتصل ذلك الموت ، بدليل قوله تعالى ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وقوله تعالى فى آية أخرى ، فيمت وهو كافر ، أما من أسلم قبل الموت فإن ثوابه يفسد دون عمله ، فلا يجب عليه إعادة حج قد فعله ولا صلاة صلاها قبل الردة .

٦ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

٧ - وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

ها ان الآيتان الكريمتان توجبان الوضوء والطهارة والغسل من أجل الصلاة ، وتجوزان التيمم عند فقدان الماء أو تعذر استعماله لجرح أو غيره ، وقد امتن الله عز وجل على عباده بنعمه الكثيرة عليهم ، وطالبهم بشكرها ، وأمرهم بذكرها ذكر حمد وثناء وولاء لله رب العالمين . وذكرهم كذلك بمواثيق الله التى أخذها الناس على أنفسهم والتزموا العمل بها من شريعة الدين وأوامر سيد المرسلين ، وما بينه القرآن الكريم للناس من الحلال والحرام والخير والشر والحسنى والسوءى ، والإيمان والكفر والهدى والضلال .

ويقول الرازى فى وجه اتصال آية الوضوء بما قبلها : اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية فقوله « أوفوا بالعقود » طلب من عباده أن يفوا بعهد العبودية فكأنه قيل إلى هنا : العهد نوعان : عهد الربوبية منك وعهد العبودية منا ، فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعد الربوبية والكرم ، ومعلوم أن منافع الدنيا محصورة فى نوعين : لذات المطعم ولذات المنكح ، فاستقصى سبحانه فى بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح ، ولما كانت الحاجة إلى المطعوم فوق الحاجة إلى المنكوح لا جرم قدم بيان المطعوم على المنكوح ، وعند تمام البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب فى الدنيا من المنافع واللذات فاشتغل أنت فى الدنيا بالوفاء بعهد العبودية . ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لا جرم بدأ الله تعالى بذكر شرائط الوضوء . وقد يكون وجه المناسبة بين آية الوضوء وما قبلها هو ما ذكره الشيخ رشيد رضا من أن الحدثين اللذين هما سبب الطهارتين هما أثر الطعام والنكاح ، فلولا الطعام لما كان الغائط الموجب للوضوء ، ولولا النكاح لما كانت ملامسة النساء الموجبة للغسل : وأما المناسبة بين آية الميثاق وما قبلها ، فهى أن الله تعالى بعد أن بين لنا طائفة من الأحكام المتعلقة بالعبادات والعادات ، ذكرنا بعهده وميثاقه علينا وما ألزمناه من السمع والطاعة لله ولرسوله بقبول دينه الحق ، لنقوم بها مخلصين .

قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » أى أردتم القيام إليها ، كقوله تعالى « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » ، عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغى أن يبادر إليها بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة ، وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة ، وإن لم يكن محدثا ، لكن قيده بمن كان محدثا الإجماع ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح ، فقال له عمر : صنعت شيئا لم تكن تصنعه ، فقال : عمدا فعلته ، فقيل : إن ما هنا مطلق أريد به التقييد ، والمعنى : إذا

قمتم إلى الصلاة محدثين ، وقيل : الأمر فيه للندب ، وقيل : كان ذلك أول الأمر ثم نسخ ، قال البيضاوى : وهو ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم : المائدة من آخر القرآن نزولا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها « فاغسلوا وجوهكم » أى بالماء ، ولا يجب الدلك خلافا لمالك رحمه الله «و» اغسلوا «أيديكم إلى المرافق» أى معها إن وجدت وقدرها إن فقدت ، لما روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فى صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ، ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد إلى آخره ، وللإجماع ، أو أن (إلى) فى الآية بمعنى (مع) كما فى قوله تعالى « من أنصارى ؟ » « ويزدكم قوة إلى قوتكم » ، والمعنى : اغسلوا أيديكم من رؤوس أصابعها إلى المرافق ، وتجعل باقية على حقيقتها إلى المنكب مع جعل (إلى) غاية للترك المقدر فتخرج الغاية ، والمعنى : اغسلوا أيديكم واتركوا منها إلى المرافق ، والمرافق : جمع مرفق ، وهو مفصل مابين العضد والمعصم ؛ ولو قطع بعض ما يجب غسله وجب غسل الباقى « وامسحوا برؤوسكم » أى ببعضها لما روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم مسح بناصيته وعلى عمامته واكتفى بمسح البعض ، لأنه المفهوم من المسح عند إطلاقه . والتقدير بالربع مذهب الحنفية «وأرجلكم» قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائى بنصب اللام عطفا على وجوهكم ، وقيل : على أيديكم ، والباقون بالكسر عطفا على (رؤوسكم) ليفيد مسح الخف ، وعطف على المنصوب على قراءة النصب على المغسول ، ليفيد غسل الرجل المتجردة منه ، فيفيد كل من القراءتين غير ما أفادته الأخرى ، وقوله تعالى « إلى الكعبين » هما العظمان الناتئان فى كل رجل عند مفصل الساق والقدم ، دل على دخولهما فى الغسل ما دل على دخول المرفقين فيه ، والفصل بين الأيدى والأرجل المغسولة بالرأس الممسوح فيه دليل على وجوب الترتيب فى طهارة هذه الأعضاء ، وعليه الشافعى رضى الله عنه ، ولو قطع بعض القدم وجب غسل الباقى ، وإن قطع فوق الكعب فلا فرض عليه وندب غسل الباقى كما مر فى اليد ، ويؤخذ من السنة وجوب النية فيه كغيره من العبادات « وإن

كنتم جنبا » من جماع وغيره « فاطهروا » أى بالغسل لجميع البدن لأنه أطلق ، ولم يحص الأعضاء كما فى الوضوء « وإن كنتم مرضى » أى مرضا يضره الماء « أو على سفر » أى مسافرين سفرا طويلا أو قصيرا « أو جاء أحد منكم من الغائط » أى الموضع المطمئن من الأرض الذى تقضى فيه حاجة الإنسان التى لابد منها ، « أو لامستم النساء » ، كناية عن الجماع على رأى أبى حنيفة ، أو هو شامل لذلك ولغيره من المس باليد عند الشافعية « فلم تجدوا ماء » بعد طلبه لفقده حسا أو معنى بالعجزعن استعماله للمرض بجرح أوغيره « فتيمموا » أى اقصدوا «صعيدا» أى ترابا «طيبا» أى طهورا خالصا « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » مع المرفقين « منه » بضربتين . وبينت السنة أن المراد استيعاب العضوين بالمسح . وتقدم مثل هذه الآية فى سورة النساء ، قال البيضاوى: ولعل تكريره ليتصل الكلام فى بيان أنواع الطهارة « مايريد الله ليجعل عليكم فى الدين « من حرج » أى ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم « ولكن يريد ليطهركم » من الأحداث والذنوب ، فإن الوضوء تكفير للذنوب « وليتم نعمته عليكم » ببيان شرائع الدين « لعلكم تشكرون » نعمه فيثيبكم « واذكروا نعمة الله عليكم » أى فى هدايته لكم إلى الإسلام بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، أو غير ذلك من جميع النعم ، ليذكركم المنعم ويرغبكم فى شكره ، لأن كثرة النعم توجب على المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعم والانقياد لأوامره ونواهيه ، وقال تعالى « نعمة الله » ولم يقل «نعم الله» ، لأن هذا الجنس لايقدر عليه إلا الله، لأن نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات ، وإيصال الخيرات فى الدنيا والآخرة لايعلمه إلا الله تعالى ، وأن المراد التأمل فى هذا النوع من حيث أنه يمتاز عن نعمة غيره ، وقوله تعالى : واذكروا نعمة الله ـ يشعر بسبق النسيان، وكيف يعقل نسيانها مع أنها متواترة متوالية علينا فى جميع الأوقات والساعات ، اللهم إلا أن يقال : إنها لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد ؛ فصارغاية ظهورها وكثرتها سببا لوقوعها فى محل النسيان «و» اذكروا «ميثاقه» أى عهده الوثيق «الذى واثقكم به »

أى بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم حين بايعكم ليلة العقبة على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره . والمنشط مفعل من النشاط ، وهو الأمر الذى يُنشط له ، والمكره مفعل من الكره وهو الأمر الذى تكرهه النفس ، وأضاف الميثاق الصادر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسه كقوله « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ، وأكد ذلك بأنكم التزمتموه « إذ » أى حين « قلتم سمعنا وأطعنا » وفى ذلك تذكير بما أوجب الله له صلى الله عليه وسلم عليكم من الشكر بهدايته لكم إلى الإسلام ، ثم حذركم عن نقض تلك العهود بقوله « واتقوا الله » أى فى ميثاقه أن تنقضوه « إن الله » الذى له منتهى الكمال « عليم » أى بالغ العلم « بذات الصدور » أى بما فى القلوب فبغيره أولى فيجازيكم عليها ، فضلا عن جليات أعمالكم . . وقيل : المراد بالميثاق هو الذى أخذه الله منهم حين أخرجهم من ظهر آدم « وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » قاله مجاهد ، وقيل : المراد به الدلائل العقلية والشرعية التى نصبها الله على التوحيد والشرائع ، قاله السدى .

٨ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

٩ — وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ .

١٠ — وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

١١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

أربع آيات كريمات دعا الله عز وجل فيها المؤمنين إلى القيام بحقوق الله وأدائها والتزام العمل بأوامر الدين وشرائعه وعباداته ، وإلى القيام بحقوق العباد من التزام الأمانة التامة فى أداء الشهادة ، ومن الصدق فيها وتحرى الحقيقة والإنصاف بها . كما دعاهم إلى التزام العدل حتى مع الأعداء والخصوم؛ ووعد الله عز وجل المؤمنين العاملين بهذه التعاليم السماوية الكريمة المغفرة والثواب العظيم والأجر الكريم ، أما الكافرين والمكذبين بالدين فهددهم بالنار والعذاب الشديد . . ثم ذكر الله عز وجل المؤمنين بنعمه عليهم ، وطالبهم بشكرها ، وبشكر الله عز وجل المنعم بها عليهم ، وخاصة حين أيد خطاهم ، وسدد سعيهم ، ونصر جهادهم ، ووفقهم فى كفاحهم . ورد كيد الأعداء عنهم، ومنع شر المشركين من أن يصل إليهم ، وكف أذى خصوم الإسلام عن المسلمين . . وأمر الله عز وجل المؤمنين بالتقوى وبالعمل والإخلاص فيه ، وبالتوكل على الله بعد أن يفرغ المؤمن جهده فى السعى والعمل والكفاح من أجل الله ومن أجل الدين ومن أجل الحياة ؛ ولما نادى الله عز وجل المؤمنين فى الآية الأولى من هذه السورة الكريمة ، وأمرهم بالوفاء بالعقود عامة ، ثم امتن عليهم بإباحة بهيمة الأنعام لهم إلا ما استثنى وما حرم من الصيد فى حال الإحرام . وناداهم فى الآية الثانية بل الثالثة فنهاهم عن أشياء وأمرهم بأشياء ، وحرم عليهم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة التى يرجح فيها أخف الضررين على أشدهما ، وأحل لهم الطيبات وصيد الجوارح المعلمات ، وطعام أهل الكتاب ونساءهم إذا كن محصنات ، وذلك فى أربع آيات ، وناداهم ثالثا فأمرهم بالطهارة ، وامتن عليهم برفع الحرج ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وميثاقه الذى واثقهم به ، ثم ناداهم بعد ذلك فى الآية الأولى والآية الأخيرة من هذه الآيات بما ترى . وهذه السورة تجد النداء فيها كثيراً ، منه نداء بنى إسرائيل فى سياق الكلام عنهم ، ونداء النبى صلى الله عليه وسلم مراراً ، ونداء المؤمنين مراراً أيضاً . وهذا أسلوب فى الخطاب يجوز أن يكون كل نداء منه مبدأ موضوع مستقل لا يناسب ما قبله ، على أن المناسبة بين هذه الآيات ظاهرة ،

فإنه تعالى بعد أن ذكرنا بميثاقه أمرنا بأن نكون قوامين له شهداء بالقسط ، وذكرنا بوعده ووعيده ، لأننا بذلك يرجى أن نفى بميثاقه ولا ننقضه كما نقضه الذين من قبلنا ، كما حكى عنهم بعد هذه الآيات .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين » أى مجتهدين فى القيام « لله » تعالى بحقوقه « شهداء » أى متيقظين تحضرون أذهانكم غاية الإحضار بحيث لا يشذ عنها شىء مما تريدون الشهادة عليه « بالقسط » أى العدل « ولا يجرمنكم » اى لا يحملنكم « شنآن » اى شدة بغض « قوم » أى الكفار « على أن لا تعدلوا » فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثله وكأسر وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا بما فى قلوبكم « اعدلوا » أى تحروا العدل واقتصدوه فى كل شىء « هو » أى العدل « اقرب » من تركه « للتقوى » لكونه من أهم أسبابها فيها . وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه ؟ ويؤخذ من هذا أن التكاليف مع كثرتها محصورة فى نوعين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، فقوله تعالى « كونوا قوامين لله » إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، ومعنى القيام : هو أن تقوم لله بالحق فى كل شىء ، وقوله تعالى : « شهداء بالقسط » إشارة إلى الشفقة على خلق الله ؛ قال عطاء : اى لا تحاف فى شهادتك أهل ودك وقرابتك ، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك . أو ان الله تعالى قد أمرهم بالصدق فى أفعالهم وأقوالهم ، وتقدم نظير هذه الآية فى سورة النساء ، وهناك قدم لفظة القسط وهنا أخرها ، قال ابن عادل: كأن الغرض فى ذلك والله أعلم أن آية النساء جىء بها فى معرض الإقرار على نفسه ووالديه وأقاربه ، فبدأ فيها بالقسط الذى هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة ، أما التى هنا فقد جىء بها فى معرض ترك العداوة ، فبدأ فيها بالأمر بالقيام به ، لأنه أردع للمؤمنين ، ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء فى كل معرض بما يناسبه ، وقال البيضاوى : وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأول نزلت فى المشركين وهذه فى اليهود ؛ ولمزيد الاهتمام

بالعدل أو المبالغة فى إطفاء ثائرة الغيظ « واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » فيجازيكم به « وعد الله الذين آمنوا » أى أقروا بالإيمان بألسنتهم « وعملوا » تصديقا لهذا الإقرار « الصالحات » حذف ثانى مفعولى « وعد » استغناء بقوله « لهم مغفرة وأجرعظيم » فإنه استئناف يبينه ، وقيل: الجملة فى موضع المفعول؛ فإن الوعد ضرب من القول لأنه لا ينعقد إلا به ، فكأنه قال: وعدهم هذا القول والأجر العظيم هو الجنة « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » أى النار الذى اشتد توقدها فاشتد احمرارها فلا يراها أحد إلا أحجم عنها ، فيلقون فيها ثم يلازمونها فلا ينفكون عنها ، وهذا من عادة الله سبحانه تعالى أنه يتبع حال أحد الفريقين حال الفريق الآخر وفاء بحق الدعوة ، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا ، وذلك بعسفان — وهو واد بينه وبين مكة مرحلتان — فى غزوة ذى المنار ، فلما صلوا ندموا أن لا كانوا كبوا عليهم ، فقالوا : إن لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم — يعنون صلاة العصر — وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها . فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام بصلاة الخوف ، والآية إشارة إلى ذلك ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظه ومعه أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وذلك ليستقرضهم أى يطلب منهم مالا قرضا لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ ، يحسبهما مشركين ، لكن فى رواية البيهقى أن المقتولين كانا معاهدين لا مسلمين ، وكان الخروج لبنى النضير لا إلى قريظة ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وكانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم على ترك القتال وعلى أن يعاونوه فى الديات ، فقالوا : قد آن لك أن تأتينا أو تسألنا حاجة ، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن ، فمن يظهر على هذا البيت فيطرح

عليه صخرة فيريحنا منه ، فقال عمرو بن جحاش . أنا، فجاء إلى رحاً عظيمة ليطرحها عليه ، فأمسك الله تعالى يده ، فنزل جبريل عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بالأمر ، فقفل عليه السلام راجعا إلى المدينة ودعا عليا وقال : لا تبرح مقامك فمن خرج عليك من أصحابى فسأل عنى فقل توجه إلى المدينة ، ففعل ذلك حتى تناهوا إليه ثم تبعوه لحربهم . وقيل: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا وتفرق الناس فى الأودية يستظلون ، فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابى فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه ، فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله ، فأسقطه جبريل من يده ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : من يمنعك منى ؟ فقال : لا أحد ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فنزلت «إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم» ليفتكوا بكم يقال : يبسط إليه لسانه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به ؛ قال تعالى «ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء» ومعنى بسط اليد مدها إلى المبطوش به «فكف أيديهم عنكم» إذ منعها أن تمتد إليكم ، ورد مضرتها عنكم «واتقوا الله» فى جميع أموركم «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» فإنه الكافى لإيصال الخير ودفع الشر .

وبذلك ينتهى الربع الثالث من هذا الجزء ، أو الأول من سورة المائدة ، الذى احتوى على كثير من الأوامر الإلهية العالية التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — الأمر بأن يلتزم المؤمنون الوفاء بعقودهم وعهودهم التى التزموا بها أمام الله أو أمام أنفسهم أو أمام الناس .

٢ — الأمر بأن لا يحل المؤمنون شعائر الله ولا حرمة الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ، وأن لا يعتدوا على القاصدين لبيت الله .

٣ — بيان ما أحل للناس أكله من لحوم الحيوانات المختلفة وغير الحيوانات ، وما حرم عليهم ..

٤ — بيان من يحل للرجل التزوج بها .

٥ — فرض الوضوء والتيمم من أجل الصلاة .

٦ — التذكير بنعم الله على عباده ، وبمواثيقه عليهم التى التزموها .

٧ — الأمر بأداء حقوق الله ، والصدق فى الشهادة ، والعدل التام بين الناس ولو كانوا غرباء عنك .

٨ — ذكر جزاء المؤمنين والكافرين عند الله .

٩ — التذكير بنعمة الله على المؤمنين ، وكف أذى المشركين عنهم .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الربع قد احتوى على كثير من الأحكام ، ومن بينها ما يلى :

١ — حل ذبائح أهل الكتاب وطعامهم للمسلمين .

٢ — إباحة تزوج المسلمين من أهل الكتاب ، أى من الكتابيات ، ويرى الشيخ محمود شلتوت أن هذه الإباحة يجب الوقوف عندها إذ أصبحت لا تتفق والغرض المقصود منها لسيطرة النساء الأوربيات على منزل الزوج المسلم وعلى الزوج نفسه وعلى أولاده وعلى دينهم أيضا .

٣ — كل طيب من الطعام فهو حلال ، وكل خبيث منه فهو حرام ، إلى غير ذلك من العديد من الأحكام التى تناولها هذا الجزء بالذكر والشرح والبيان ...

١٢ — وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ .

١٣ — فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ .

١٤ — وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

١٥ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ .

١٦ — يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

بهذه الآيات الخمس يبتدىء الربع الرابع من هذا الجزء ، أو الثانى من سورة المائدة . . وهذا الربع كله وقف على عرض تاريخ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وعلى دعوتهم إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام . . ومن العجب أن هذه الآيات الخمس تبتدىء بالحديث عن بنى إسرائيل ، ثم يلى ذلك حديث عن النصارى أتباع عيسى عليه السلام ، ويلى هذا كله دعوة عامة لأهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد والقرآن . . وكذلك الشأن فى الآيات الثلاث الآتية (١٧ — ١٩) يبتدىء الحديث بذكر أشياء من تاريخ النصارى وكفرهم ، ثم يلى ذلك تكذيب لليهود وللنصارى معا فى قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه ، وبعد هذا دعوة عامة لأهل الكتاب للإيمان بالرسول ورسالته .. أما الآيات

السبع الأخيرة ، ففيها حديث عن اليهود وصنيعهم مع موسى عليه السلام . .. وهكذا نجد هذا الربع كله وقفا على حجاج أهل الكتاب ونقاشهم ، بل والرد عليهم ، وتفنيد مزاعمهم الباطلة ..

قوله تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل » أى العهد الموثق بما أخذ عليكم من السمع والطاعة « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا » أى شاهدا على كل سبط نقيب يكفلهم بالوفاء بما عليهم الوفاء به ،كما بعثنا منكم ليلة العقبة اثنى عشر نقيبا ، وأخذنا منكم الميثاق على الإسلام واتباع أوامر الله عز وجل ، والنقيب الذى نقب عن أحوال القوم .كما قيل له (عريف) لأنه يتعرفها ، ومن ذلك المناقب وهى الفضائل ، لأنها لا تظهر إلا بالتنقيب عنها ، روى أن بنى إسرائيل لما استقروا بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا بأرض الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال : إنى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا إليها وجاهدوا فيها وإنى ناصركم ، وأمر موسى صلوات الله وسلامه عليه أن يأخذ كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به يوثقه عليهم ، واختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون ، فرأوا أجساما عظيمة وقوة وشوكة ، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ، وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم ، فنكثوا الميثاق إلا اثنين منهم هما : كالب من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون وكان من النقباء « وقال » لهم « الله إنى معكم » بالعون والنصرة « لئن أقمتم الصلاة » التى هى وصلة العبد والخالق بجميع شروطها وأركانها « وآتيتم الزكاة » أى أديتموها للفقراء ، تقربا من العبد إلى الله عز وجل « وآمنتم برسلى » أى بجميع الرسل « وعزرتموهم » أى نصرتموهم ، وقيل: التعزير التعظيم ، وقيل : هو الثناء بخير وهو قريب من الثانى ، وأخر الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه مقدم عليهما ، لأن اليهود كانوا مقرين بأنه لا بد فى حصول النجاة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل ، فذكر أنه بعد إقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة لابد من الإيمان بجميع الرسل حتى يكون قائما على التوحيد، وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير فى حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل ، وقوله تعالى « وأقرضتم الله قرضا حسنا » داخل تحت إيتاء الزكاة ، وأعاد ذكره، لأن المراد بالزكاة : الواجبة وبالقرض : الصدقة المندوبة ، وخصها تنبيها على شرفها «لأكفرن» أى لأسترن «عنكم سيئاتكم» أى فعل الذى من شأنه أن يسوء « ولأدخلنكم » فضلا ورحمة منى « جنات تجرى من تحتها الأنهار» فهى أشد نضارة « فمن كفر بعد ذلك » الميثاق « منكم فقد ضل » أى ترك وضيع « سواء السبيل » أى أخطأ طريق الحق ، والسواء فى الأصل : الوسط ، فإن قيل : من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سواء السبيل. فالجواب أن الضلال بعده أظهر وأعظم لأنه الكفر بعد البيان العظيم ؛ فهو أعظم من غيره، لأنه قد يكون له قبل ذلك شبه ويتوهم له معذرة .. وقد نقضوا الميثاق مرة بعد مرة بتكذيب الرسل وقتل الأنبياء وكتمهم صفة النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى سورة البقرة ، قال تعالى «فبما نقضهم ميثاقهم» أى بسبب نقضهم له «لعناهم» قال عطاء : أبعدناهم من رحمتنا ، وقال الحسن ومقاتل : مسخناهم قردة وخنازير، وقال ابن عباس : ضربنا الجزية عليهم «وجعلنا قلوبهم قاسية» أى لا تلين لقبول الإيمان وقوله تعالى « يحرفون الكلم عن مواضعه » استئناف لبيان قسوة قلوبهم فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله تعالى والافتراء عليه «ونسوا حظا» أى نصيبا نافعا « مما ذكروا به » أى من التوراة ؛ وقيل : إنهم حرفوها ؛ وقيل : تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والبشارة به « ولا تزال » أى مما يطلعك الله عليه عز وجل يا أشرف الخلق ، وهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم « تطلع » أى تظهر « على خائنة » أى خيانة « منهم » بنقض العهد وغيره . لأن ذلك من عادتهم وعادة أسلافهم ، لا تزال ترى ذلك منهم « إلا قليلا منهم » لم يخونوا ، وهم الذين آمنوا منهم « فاعف عنهم » أى امح ذنبهم ذلك « واصفح » أى وأعرض عنهم عن ذلك أصلا ورأسا إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية . وقيل: ماهنا مطلق

نسخ بآية السيف ، وقوله تعالى « إن الله يحب المحسنين » تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان ، فضلا عن العفو عن غيره .

وانظر إلى عفو الرسول صلى الله عليه وسلم وصفحه وإحسانه فى معاملتهم، من خلال هذا الحديث المروى عن أسامة بن زيد رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحرث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى بن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى ، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبى بن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة : بلى يارسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ياسعد ألم تسمع ماقال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبى - قال كذا وكذا ؟ قال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح عنه فو الذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ويصبرون على الأذى حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش ،

قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا .

وروى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره رجل من اليهود ، يقال له لبيد بن الأعصم ، وفى رواية للبخارى أنه رجل من بنى زريق حليف اليهود وكان منافقا ، حتى كان يخيل إليه أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، وذلك أشد السحر ـ ثم إن الله تعالى شفاه من هذا السحر ، وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : كان رجل يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فعقد له عقدا فجعله فى بئر رجل من الأنصار فأتاه ملـكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما : أتدرى ماوجعه ؟ قال : فلان الذى يدخل عليه عقد له عقدا فألقاه فى بئر فلان الأنصارى ، فلو أرسل رجلا لوجد الماء أصفر ، فبعث رجلا فأخذ العقد فحلها فبرىء ، فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر له شيئا منه ولم يعاتبه ، وعن أنس رضى الله تعالى عنه ، أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن ذلك فقالت : أردت لأقتلك ، فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك ـ أو قال : علىّ ـ قالوا : أفلا نقتلها ؟ قال : لا ، قال أنس: فما زلت أعرفها فى لهوات النبى صلى الله عليه وسلم ، فانظروا إلى عفوه صلى الله عليه وسلم واقتدوا به ، وفى ذلك غاية العفو والإحسان امتثالا لأمر ربه تعالى . وقيل: فاعف عنهم عن مؤمنهم ولا تواخذهم بما سلف منهم « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم » أى وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم ، ولم يقل « من النصارى » لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله تعالى لقولهم لعيسى : نحن أنصار الله ، وليسوا موصوفين به ، قال الحسن : فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى « فنسوا » أى تركوا « حظا » أى نصيبا عظيما يتنافس فى مثله « مما ذكروا به » أى فى الإنجيل من الإيمان والبشارة بمحمد وغير ذلك ، ونقضوا الميثاق .

يقول الشيخ رشيد رضا :

١ — إن الكتب التى يسمونها الأناجيل الأربعة تاريخ مختصر للمسيح عليه السلام ، لم يذكر فيها إلا شىء قليل من أقواله وأفعاله فى أيام معدودة ، بدليل قول يوحنا فى آخر إنجيله : « هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا ، وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق . وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة .

٢ — الإنجيل فى الحقيقة واحد ، وهو ما جاء به المسيح عليه السلام من الهدى والبشارة بخاتم النبيين ، وهو ما كان يدور ذكره على ألسنة كتاب تلك التواريخ الأربعة وغيرهم حكاية عن المسيح وعن ألسنتهم أنفسهم ، قال متى حكاية عنه : « الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى كل العالم يخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكارا لها » . وسميت تلك التواريخ أناجيل لأنها تتكلم عن إنجيل المسيح وتجىء بشىء منه . ولذلك بدأ مرقس تاريخه بقوله « بدء إنجيل يسوع المسيح » ثم قال حكاية عن المسيح «فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» ، فالإنجيل الذى أمر الناس أن يؤمنوا به ليس هو أحد هذه التواريخ الأربعة ولا مجموعها ، وهو الذى سماه بولس فى رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكى « الإنجيل » المطلق ، وإنجيل الله ، وإنجيل المسيح ، والكتاب الإلهى يضاف إلى الله بمعنى أنه أوحاه ، وإلى النبى بمعنى أنه أوحى إليه أو جاء به ، كما يقال : توراة موسى .

٣ — كانت الأناجيل فى القرون الأولى للمسيح كثيرة جدا ، حتى قيل : إنها بلغت زهاء سبعين إنجيلا . وقال بعض مؤرخى الكنيسة : إن الأناجيل الكاذبة كانت ٣٥ إنجيلا . وقال الدكتور بوست البروتستانى فى قاموس الكتاب المقدس : إن نقص الأناجيل غير القانونية ظاهر ؛ لأنها مضادة لروح المخلص وحيانه .

٤ — وقد بدىء تحريف الإنجيل من القرن الأول ، قال بولس فى رسالته إلى أهل غلاطية « إنى أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذى دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر . لا ، ليس هو آخر ، غير أنه يوجد قوم

يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح » ، فالمسيح كان له إنجيل واحد ، وبين بولس أنه كان فى عصره من القرن الأول أناس يدعون المسيحيين إلى إنجيل غيره بالتحويل أى التحريف كما فى الترجمة القديمة ، وبين بولس أن الناس كانوا ينتقلون سريعا إلى دعاة هـذا الإنجيل المحرف المحول عن أصله الذى جاء به المسيح وقد بين بولس فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثيوس أن هؤلاء القوم الذين يحرفون إنجيل المسيح «رسل كذبة ماكرون مغيرون شكلهم إلى رسل المسيح » ، وتتمة العبارة تدل أنهم كانوا كرسل المسيح ويشتبهون بهم كما يشتبه الشيطان بالملائكة ، إذ « يغير شكله إلى ملاك نور » ، وفى الفصل الخامس عشر من سفر الأعمال مايوضح هـذه المسألة ، وهو أن اليهود كانوا يفبثون بين المسيحيين ويعلمونهم غير ما يعلمهم رسل المسيح ، وأن المشايخ والرسل أرسلوا برنابا وبولس إلى انطاكية ليحذروا أهلها من هؤلاء المعلمين الكاذبين ، وأن بولس وبرنابا تشاجرا وافترقا هنالك . وهما ماتشاجرا وافترقا إلا لاختلافهما فى حقيقة تعليم المسيح ، فبرنابا يذكر فى مقدمة إنجيله أن بولس كان من الذين خالفوا المسيح فى تعليمه . ولا شك أن برنابا أجدر بالتقديم والتصديق من بولس ، لأنه تلقى عن المسيح مباشرة ، وكان بولس عدوا للمسيح والمسيحيين ، ولولا أن قدمه برنابا للرسل لما وثقوا بدعواه التوبة والإيمان بالمسيح ، ولـكن النصارى رفضوا إنجيل برنابا المملوء بتوحيد الله وتنزيهه وبالحكمة والفضيلة ، وآثروا عليه رسائل بولس وأناجيل تلاميذه لوقا ومرقس ، وكـذا يوحنا كما حققه بعض علماء أوربا ، لأن تعاليم بولس كانت أقرب إلى عقائد الرومانيين الوثنية ، فكانوا هم الذين رجحوها ورفضوا ماعداها . إذ كانوا هم أصحاب السلطة الأولى فى النصرانية ، وهم الذين كونوها بهذا الشكل .

٥ — اختلاف علماء الكنيسة وعلماء التاريخ فى الأناجيل الأربعة التى اعتمدوها فى القرن الرابع : من هم الذين كتبوها ؟ ومتى كتبوها ؟ وبأى لغة كتبت ؟ وكيف فقدت نسخها الأصلية ؟ كما ترى ذلك مفصلا فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى وفى غيرها من كتب الدين والتاريخ . وهـذه كلمات من

كتب المدافعين عنها : قال صاحب كتاب « مرشد الطالبين ، إلى الكتاب المقدس الثمين » : « إن (متى) بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا ، ومرقس ولوقا كتبا إنجيلهما قبل خراب أورشليم ، ولكن لا يمكن الجزم فى أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص ؛ لأنه ليس عندنا نص إلهى على ذلك ، أما القديس متى فقد كتب إنجيله فى السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين وهى العبرانية ، وترجم هذا الإنجيل إلى اليونانية ، ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدى النساخ الأبونيين ومسخته ، ويمتاز إنجيل متى بأن من نسب إليه من تلاميذ المسيح ، وبأنه أقرب إلى التوحيد وأبعد عن الوثنية من سائر الأناجيل . وأما مرقس فقد كان عبرانيا ، وكان تلميذا لبطرس وتبناه بطرس ، واقتبس إنجيله من إنجيل متى ومن خطب بطرس ، وأما لوقا فقد كان من انطاكية ، وقد أغفل متى ومرقس بعض حوادث وأمور تتعلق بسيرة المسيح ، وقام بعض الكتبة واختلقوا ترجمة مموهة ليسوع المسيح ، وكثيراً مافاتهم فيها الرواية والتدقيق ، فبعث ذلك بلوقا على وضع إنجيله ضنا بالحق ، فكتبه باليونانية ، وجاء كلامه أصح وأفصح وأشد انسجاما من كلام باقى مؤلفى العهد الجديد ، وذهب كثير من المحققين إلى أنه كتب إنجيله فى السنة ٥٣ للمسيح ، وقيل : بل سنة ٥١ » . وأما يوحنا فقد كان من تلاميذ بولس ، وذكر فى « الذخيرة » ثلاثة أقوال فى تاريخ كتابته ، وهى ٦٤ و ٩٤ و ٩٧ ، وأنه كتبه باليونانية ليثبت ألوهيه المسيح ويسد النقص الذى فى الأناجيل الثلاثة « إجابة لرغبة أكثر الأساقفة ونواب كنائس آسيا وإلحاحهم عليه أن يبقى من بعده ذكراً مخلداً » ، ومن تأمل أساليب الأناجيل ونحواها يرى أن إنجيل يوحنا غريب عنها ، ويجزم بأن كاتبه متأخر سرت إليه عقائد الوثنيين ، فأحب أن يلقح بها المسيحيين .

٦ — ولم يكن عند النصارى أسانيد متصلة ولا منقطعة لكتبهم المقدسة ، وإنما بحثوا ونقبوا فى كتب الأولين والآخرين ليستدلوا على أن لها أصلا

كان معروفا فى القرون الثلاثة الأولى للسيح ، ولكنهم لم يجدوا شيئا صريحا يثبت شيئاً منها ، وإنما وجدوا كلمات مجملة أو مبهمة فسروها كما شاءوا ، ونظموها فى سلك الحجج والبينات ، وإن كانت هى أيضاً غير منقولة عن الثقات . فثبت بهذا صدق قول القرآن المجيد « فنسوا حظاً مما ذكروا به » وثبت به أنه كلام الله ووحيه . إذ ليس هذا مما يعرف بالرأى حتى يقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم قد اهتدى إليه بعقله ونظره ، « فأغرينا » أى أوقعنا « بينهم » أى النصارى بعد أن جعلناهم فرقا متباينين وهم: نسطورية ويعقوبية وملكانية ، وكذا بينهم وبين اليهود « العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » أى بتفرقهم واختلاف أهوائهم . فكل فرقة تكفر الأخرى « وسوف ينبئهم الله » أى يخزيهم فى الآخرة « بما كانوا يصنعون » أى فيجازيهم عليه « ياأهل الكتاب » خطاب لليهود والنصارى ووحد الكتاب لأنه للجنس « قد جاءكم رسولنا » وهو أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم « يبين لكم » أى يوضح إيضاحا شافيا « كثيرا مما كنتم تخفون » أى تكتمون « من الكتاب » أى التوراة والإنجيل ، كنعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وآية الرجم فى التوراة ، وبشارة عيسى بأحمد فى الإنجيل « ويعفو عن كثير » أى مما يخفونه . فلا يبينه إذا لم يكن فيه مصلحة فى أمر دينى أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه « قد جاءكم من الله نور » هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى جلا ظلمات الشك والشرك « وكتاب » هو القرآن العظيم « مبين » أى لنفسه ، مبين لما كان خافيا على الناس من الحق « يهدى به الله » أى بالكتاب ، وقيل: بهما ووحد الضمير لأن المراد بهما واحد لأنهما كواحد فى الحكم « من اتبع رضوانه » أى رضاه « سبل » أى طرق « السلام » أى السلامة من العذاب ، أو الله باتباع شرائع دينه « ويخرجهم من الظلمات » أى أنواع الكفر والوساوس والأساطير والوثنية « إلى النور » أى الإسلام « بإذنه » أى بإرادته أو بتوفيقه « ويهديهم إلى صراط مستقيم » أى طريق هى أقرب الطرق إلى الله تعالى المؤدية إليه ، وهو الدين الحق .

١٧ — لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

١٨ — وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .

١٩ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

هذه الآيات الثلاث رد على النصارى أولا ، ثم توبيخ لليهود والنصارى معا بسبب كفرهم ، ثم دعوة لأهل الكتاب ليؤمنوا بمحمد ورسالته . .

وقوله تعالى : « لقد كفر الذين » ، قال البيضاوى : « هم الذين قالوا بالاتحاد منهم ، وقيل : لم يصرح به أحد منهم ، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتا : وقالوا : لا إله إلا واحد ، لزمهم أن يكون هو المسيح ، فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم ، وتفضيحاً لمعتقدهم . وذكر الفخر الرازى فى تفسيره أن هذا القول مبنى على عقيدة الحلول والاتحاد ، وأنه لازم مذهب النصارى وإن كانوا لا يقولونه أو لا يقوله أحد منهم . وصرح بعض المفسرين بأن هذا المذهب مذهب اليعقوبية منهم خاصة ، دون الفرقتين الآخرتين : الملكانية والنسطورية . والعمدة عندهم فى هذه العقيدة أول عبارة من إنجيل يوحنا وهى :

«فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ،والله هو الكلمة» وقد أطلقوا لفظ الكلمة على المسيح ، فصار معنى الفقرة الثالثة من عبارة إنجيل يوحنا : والله هو المسيح بن مريم . وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، فكيف يقول البيضاوى والرازى : إنه أسند إليهم لازم مذهبهم ؟ على ما يقول الشيخ محمد رشيد رضا .

فقوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » أى حيث جعلوه إلها ، وهم اليعقوبية من النصارى خاصة ، وقيل : ما صرحوا به ، ولكن مذهبهم يؤدى إليه من حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ويدبر أمر العالم « قل » لهم يا محمد « فمن يملك » أى يدفع « من » عذاب « الله شيئا » أى من الأشياء التى يتوهم أنها قد تمنعه مما يريد « إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا » أى لا أحد يملك ذلك ، ولو كان المسيح إلها لقدر عليه ، فدل ذلك على أنه بمعزل من الألوهية ، وأراد بعطف (من فى الأرض) على المسيح وأمه أنهما من جنسهم ، لاتفاوت بينهم وبينهما فى البشرية « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » أى بين السموات والأرض «يخلق ما يشاء » أى على أى كيفية أراد « والله على كل شيء قدير » أى قادر على الإطلاق ، يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ، ومن أصل كما خلق ما بينهما ، وينشىء من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ؛ ومن أصل يجانسه ، إما من ذكر وحده كما خلق حواء من آدم ، أو من أنثى وحدها كعيسى بن مريم ، أو منهما كسائر الناس ؛ وقوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى » أى كل طائفة منهما قالت على حدتها « نحن أبناء الله وأحباؤه » . واختلف المفسرون فى معنى ذلك على أربعة أوجه :

أحدها : أن المعنى : نحن أبناء رسل الله، كقوله تعالى « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » .

الثانى : أن لفظ الإبن كما يطلق على ابن الصلب قد يطلق أيضا على من

اتخذ ابنا بمعنى يخصصه بمزيد الشفقة والمحبة ، فالقوم لما ادعوا عناية الله بهم ادعوا أنهم أبناء الله .

الثالث : أن اليهود زعموا أن العزير والمسيح كانا منهم. فصار كأنهم قالوا: نحن أبناء الله ، ألا ترى أن أقارب الملك إذا فاخروا أحدا يقولون: نحن ملوك الدنيا ، والمراد : كونهم مختصين بالشخص الذى هو الملك فكذا هنا .

الرابع : قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن النبى صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام وخوفهم من عقاب الله ، فقالوا : كيف تخوفنا من عذاب الله ونحن أبناء الله تعالى وأحباؤه ؟ فهذه الرواية إنما وقعت عن تلك الطائفة ، وأما النصارى فإنهم يتلون فى الإنجيل أن المسيح قال لهم : أذهب إلى أبى وأبيكم ، وقيل : أرادوا أن الله كالأب لنا فى الحنو والعطف ، ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة ، وقال إبراهيم النخعى : إن اليهود وجدوا فى التوراة: يا أبناء أحبارى ، فبدلوها بيا أبناء أبكارى ، فمن ذلك قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه ، ومن جملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على سائر الخلق بسبب أسلافهم من الأنبياء إلى أن دعوا ذلك « قل » لهم يا محمد « فلم يعذبكم بذنوبكم » أى فإن صح ما زعمتم فلم يعذبكم بذنوبكم ولا يعذب الأب ولده ولا الحبيب حبيبه ، وقد عذبكم الله فى الدنيا بالقتل والأسر ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياما معدودة « بل أنتم بشر من » جملة « من خلق » الله تعالى من البشر ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم « يغفر لمن يشاء » أى من خلقه منكم ومن غيركم تفضلا منه تعالى « ويعذب من يشاء » كذلك ، كما تشاهدونه يكرم ناسا منكم فى هذه الدار ويهين آخرين ، لا اعتراض عليه « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » أى وأنتم مما بينهما ، فمن كان هكذا ، وقدرته هكذا كيف يستحق عليه البشر الضعيف حقا واجبا ؟ وكيف يملك عليه الجاهل بعبادته الناقصة دينا لازما ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، ثم قال تعالى : « وإليه المصير » أى المرجع . فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .. « يا أهل الكتاب » أى من الفريقين

« قد جاءكم رسولنا » محمد صلى الله عليه وسلم « يبين لكم » أى ما كتمتم ، أو الدين ، وحذف لظهوره ، ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى : ويبذل لكم البيان ، وجملة (يبين لكم) فى موضع الحال ، أى جاءكم رسولنا مبينا لكم ، وقوله تعالى « على فترة من الرسل » متعلق بجاءكم أى جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحى ، قال ابن عباس : يريد على انقطاع من الأنبياء ، فشبه فقدهم وبعد العهد بهم ونسيان أخبارهم واندثار آثارهم وانطماس معالمهم وأنوارهم بشىء كان يغلى ففتر ، ولم يبق من وصفه المقصود منه إلا أثر خاف ورسم دارس . يقال : فتر الشىء يفتر فتورا ، إذا سكنت حركته وصار أقل مما كان عليه ، وسميت المدة بين الأنبياء فترة لفتور الدواعى فى العمل بترك الشرائع .. واختلفوا فى مدة الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . فقال أبو عثمان النهدى : ستمائة سنة ، وقال قتادة : خمسمائة وستون سنة ، وقال معمر الكلبى : خمسمائة وستة وأربعون سنة ، وعن الكلبى : بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى ، وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أربعة من الأنبياء : ثلاثة من بنى إسرائيل وواحد من العرب ، وهو خالد بن سنان العبسى . . وفى الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى وكانوا أحوج ما يكون إليه ، قال البقاعى : ولعله عبر بالمضارع فى (يبين) إشارة إلى أن دينه وبيانه لا ينقطع أصلا بحفظ كتابه ، فكلما درست سنة منح الله تعالى من يرد الناس إليها بالكتاب المعجز القائم أبدا . فلذلك لا يحتاج الأمر إلى نبى مجدد إلا عند الفتنة التى لا يطيقها العلماء ، وهى فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج . ثم علل ذلك بقوله تعالى « أن » أى كراهة أن « تقولوا » أى إذا حشرتم وسئلتم عن أعمالكم « ماجاءنا من بشير » أى بشير ، فمن زائدة لتأكيد النفى ، أى يبشرنا لنرغب فنعمل بمايسعدنا فنفوز « ولا نذير » أى يحذرنا لنرهب فنترك ما يشقينا فنسلم ، وقوله تعالى « فقد جاءكم بشير ونذير » متعلق بمحذوف ، أى لا تعتذروا فتقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير « والله على كل شىء قدير » أى فيقدر على إرسال الرسل واحدا بعد واحد

على التعاقب ، كما فعل بين موسى وعيسى عليهما السلام ، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

٢٠ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٢١ — يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ .

٢٢ — قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ .

٢٣ — قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

٢٤ — قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ .

٢٥ — قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ .

٢٦ — قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ .

ولقد أقام الله تعالى الحجج القيمة على بنى إسرائيل ، وأثبت لهم رسالة

نبيه محمد عليه السلام حتى فيما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبيائهم ، من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها ، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه ، وكون ما جاء به من عند الله تعالى هو من جنس ما جاء به أنبياؤهم ، إلا أنه أكمل منه على سنة الترقى فى البشر ، وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال دعاويهم وبيان منشأ غرورهم ، ثم لما لم يزدهم ذلك كله إلا كفراً وعناداً — بين الله تعالى فى هذه الآيات واقعة من وقائعهم مع موسى عليه الصلاة والسلام الذى أخرجهم الله على يديه من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم إلى الحرية والاستقلال وملك أمرهم ، وكونهم على هذا كله كانوا يخالفونه ويعاندونه حتى فيما يدعوهم إليه من العمل الذى تتم به النعمة عليهم فى دنياهم التى هى أكبر همهم ، ليعلم الرسول بهذا أن مكابرة الحق ومعاندة الرسل خلق من أخلاقهم الموروثة عن سلفهم ، فيكون ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ومزيد عرفان بطبائع الأمم وسنن الاجتماع البشرى . وبهذا يظهر حسن نظم الكلام ووجه اتصال لاحقه بسابقه .

فهذه الآيات السبع فيها قصة لبنى إسرائيل مع موسى عليه السلام ، قصة أمره لهم أن يدخلوا الأرض المقدسة وعصيانهم إياه ومخالفتهم أمره ، ففى سفر التثنية — أحد أسفار العهد القديم — يقول موسى لبنى إسرائيل فى الإصحاح الأول : « كفاكم قعود فى الجبل ، تحولوا وارتحلوا ، وادخلوا جبل الأموريين ، وكل ما يليه من الجبل والسهل والجنوب وساحل البحر ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات ، ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم : إبراهيم واسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم » ، ثم يقول موسى : « لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا ، وعصيتم قول الرب إلهكم ، وقلتم : الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا ، إلى أين نحن صاعدون » الخ .

يقول الله تعالى « وإذ قال موسى لقومه » أى اليهود « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » أى إنعامه ، فذكرهم بثلاثة أمور ، أولها قوله تعالى : « إذ » اى

حين « جعل فيكم » أى منكم « أنبياء » فأرشدكم وشرفكم بهم ، ولم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ، وثانيها قوله تعالى « وجعلكم ملوكا » أى جعل منكم أو فيكم ، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء بعد فرعون ، حتى قتلوا يحيى وهموا بقتل عيسى . وقال ابن عباس : معنى (جعلكم ملوكا) أى أصحاب خدم وحشم ، قال قتادة : كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن قبلهم خدم ، وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا ، وقال أبو عبد الرحمن الجبلى : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وقد سأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المسلمين المهاجرين؟ فقال عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال: فأنت من الأغنياء؟ قال : لى خادم ، قال : فأنت من الملوك . وقال السدى : المعنى : وجعلكم أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعد ماكنتم فى أيدى القبط يستعبدونكم . وقال الضحاك : كانت منازلهم واسعة فيها مياة جارية ؛ فمن كان مسكنه واسعاً وفيه نهر جار فهو ملك ؛ وثالثها قوله تعالى « وآتاكم مالم يؤت احدا من العالمين » وذلك لأنه تعالى خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام : كفلق البحر ، وأهلك عدوهم ، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأخرج لهم المياه الغزيرة من الحجر ، وأظل فوقهم الغمام ، ولم يجتمع الملك والنبوة لقوم كما اجتمعا لهم ؛ وكانوا فى تلك الأيام هم العلماء بالله تعالى، وهم أحباب الله تعالى وأنصار دينه. وقيل : المراد بالعالمين عالمو زمانهم . وقال الكلبى : إن جعلت العالمين عاما وجب تخصيص (ما) لئلا يلزم أنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من هذه الأمة من الكرامة والفضل وغير ذلك ، وإن خصصته بعالمى زمانهم فإن (ما) باقية على عمومها إذ لا محذور ، ولما ذكرهم هذه النعم وشرحها لهم ، أمرهم بعد ذلك بجهاد العدو فقال « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة » أى المطهرة ، وهى أرض بيت المقدس ، سميت بذلك لأنها كانت مسكن الأنبياء والمؤمنين . وقال الكلبى : هى

فلسطين وبعض الأردن(١) « التي كتب الله لكم » أى فى اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن . وقال السدى : أمركم بدخولها ، ومعنى « كتب الله لكم » بعد قوله تعالى بعد « فإنها محرمة عليهم » هو ما قاله ابن عباس أنها كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم ، أو أن اللفظ وإن كان عاما لكن المراد به الخصوص، فكأنها كتبت لبعضهم وحرمت على بعضهم ، أو أن الوعد بقوله تعالى (كتب الله لكم) مشروط بقيد الطاعة ، فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط، أو أنها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الأربعون حصل ما كتب « ولا ترتدوا على أدباركم » أى ولا ترجعوا مدبرين خوفا من العدو « فتنقلبوا خاسرين » أى فى سعيكم ، وقوله تعالى « كتب الله لكم » يريد به موسى ما وعد الله به إبراهيم ، يعنى كتب لهم الحق فى سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد ، أو فى علمه . وليس معناه أنها تكون ملكا لهم دائماً ، أو لا يزاحمهم فيها أحد ، وقد جاء فى سفر التكوين أنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب ، وقال « لنسلك أعطى هذه الأرض » وجاء فيه أيضا ما نصه « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض » وهذا الوعد ذكر فى سفر التكوين قبل ذكر ولادة إسماعيل . وجاء فيه بعد ذكر ولادة إسماعيل له ، ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون امام جميع اخوتهم : « وأعطى لك ولنسلك من بعدك كل أرض كنعان » ، فهذا وذاك يدلان على أن العرب أولى أولاد إبراهيم بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق ، والوفاء الأبدى لا يتحقق إلا به . والأمر كذلك ، فقد أصبحت تلك البلاد كلها عربية محضة سوى أرض فلسطين الطاهرة التى نرجو أن تتطهر منهم قريبا بعون الله .

وجاء فى سفر تثنية الاشتراع عن موسى « الرب إلهنا كلمنا فى حوريب قائلا : كفاكم قعود فى هذا الجبل، تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من الجبل والسهل والجنوب وساحل البحر وأرض الكنعانى

---

(١) هو بضم الدال وتشديد النون : اسم نهر وإقليم معروفين بأرض الشام .

ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات ، انظروا قد جعلت أمامكم الأرض . ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم ، وكرر هذا الوعد فى الفصل الثالث من هذا السفر .

وذكر الرب لإسحق ماوعد به أباه إبراهيم من إعطاء نسله تلك البلاد معلل بحفظ أوامره وفرائضه وشرائعه ، وهو يدل على انتفاء المعلول بانتفاء علته ويلاحظ أنه ليس فى العبارة «كفاكم قعود فى الجبل .. الخ » شىء يدل على اختصاص بنى إسرائيل بهذا الوعد ، ولا أنه وعد مؤبد . ويدخل فى عموم نسل إبراهيم نسل ولده إسماعيل .

ويروى أن قوم موسى لما خرجوا من مصر وعدهم الله تعالى إسكان أرض الشام ، قال الكلبى : صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان ، فقيل له : انظر ما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك ، وكان بنو إسرائيل يسمون أرض الشام أرض الموعد ، ثم بعث موسى عليه السلام اثنى عشر نقيبا من الأنبياء يتجسسون لهم عن أحوال تلك الأراضى ، فلما دخلوا تلك الأماكن رأوا أجساما عظيمة ، ثم انصرف هؤلاء النقباء إلى موسى عليه السلام اثنى عشر نقيبا ، فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوا ، فلم يقبلوا قوله إلا رجلان منهم ، وهما : يوشع بن نون فتى موسى ، وكالب فتى موسى كذلك ، وكان سبط يهودا ، فإنهما سهلا الأمر وقالا : هى بلاد طيبة كثيرة النعم والأقوام ، وإن كانت أجسامهم عظيمة إلا أن قلوبهم ضعيفة ، وأما العشرة الباقية من النقباء فإنهم أوقعوا الجبن فى قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ياليتنا متنا فى أرض مصر ، أو ليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم ، فيكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم ، ويقولون لأصحابهم : نجعل علينا رؤساء وننصرف إلى مصر ، فذلك قوله تعالى « قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين » أى عتاة قاهرين لغيرهم مكرهين لغيرهم على مايريدون « وإنا لن ندخلها » خوفا منهم « حتى يخرجوا منها » أى بأى وجه كان « فإن يخرجوا منها

فإنا داخلون» لها ، وأصل الجبار المتعظم الممتنع عن القهر يقال : نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدى إليها ، وسمى القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسامهم ، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهموا بالانصراف إلى مصر ، خرَّ موسى وهارون عليهما السلام ساجدين ، وخرق يوشع وكالب ثيابهما ، وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما فى قوله «قال رجلان من الذين يخافون» أى مخالفة أمر الله تعالى «أنعم الله عليهما» أى بالتوفيق والعصمة «ادخلوا عليهم الباب» أى باب قرية الجبارين ولا تخشوهم ؛ فإنا رأيناهم وأجسادهم عظيمة بلا قلوب «فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» أى لأن الله تعالى منجز وعده «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» به ومصدقين بوعده ، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما ثم «قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا» نفوا دخولهم على التأكيد والتأبيد، وقوله تعالى «ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» أى عن القتال لا القعود الذى هو ضد القيام ، قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما ، وقيل : معنى «وربك» هارون لأنه كان أكبر منه ، وقيل: تقديره: اذهب أنت وربك يعينك، فلما سمع من قومه ذلك قال «رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى» أى لا ملك التصرف ولا ينفذ أمرى إلا فى نفسى وأخى ، قال ذلك شكوى منه إلى الله عز وجل لما خالفه قومه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام والرجلان المذكوران ، وإن كانا يوافقانه لم يثق بهما مما كابد من قومه، أو أن المراد بأخى من يؤاخينى فى الدين فيدخلان فيه «فافرق» اى فافصل «بيننا وبين القوم الفاسقين» بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه أو بالتبعيد بيننا وبينهم «قال» تعالى «فإنها» اى الأرض المقدسة «محرمة عليهم» أن يدخلوها .. وقوله تعالى «اربعين سنة يتيهون» اى يتحيرون «فى الأرض» فالتحريم إذن مؤقت غير مؤبد ، فلا يخالف ظاهر قوله تعالى «التى كتب الله لكم» ، وقيل المعنى : يتيهون فى الأرض أربعين سنة . او يسيرون فيها متحيرين . فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ ، وقيل : فى تسعة فراسخ .

وفى الإصحاح الخامس من سفر يشوع: أن بنى إسرائيل ساروا أربعين سنة فى القفر حتى فنى جميع الشعب ، قال ابن عباس : وهم ستمائة ألف مقاتل، وكانوا يسيرون كل يوم جادين، فإذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود نور يطلع بالليل فيضىء لهم ، وكان طعامهم المن والسلوى، واختلفوا: هل كان موسى وهارون عليهما السلام فيهم أو لا؟ قال البغوى الأصح أنهما كانا فيهم، إلا أنه كان ذلك راحة لهما وزيادة فى درجتهما وعقوبة لهم، وهو أبلغ فى الإجابة أن يشاهدوهم فى حال العقوبة ولا يصيبهما ما أصابهم، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال : لن ندخلها ، بل هلكوا فى التيه ، وإنما قاتل الجبابرة أولادهم . واختلفوا هل مات موسى وهرون فى التيه أم لا ؟ قال البيضاوى: الأكثرون أنهما كانا معهم فى التيه . وأنهما ماتا فيه. مات هارون قبل موسى وموسى بعده بسنة ، قال عمرو بن ميمون : مات هارون قبل موسى ، وكانا خرجاً إلى بعض الكهوف ، فمات هارون فدفنه موسى وانصرف إلى بنى إسرائيل فقالوا : قتله لحبنا إياه . وكان محبباً فى بنى إسرائيل، وعاش موسى بعده سنة وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة ، فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الأربعون سنة بعث الله تعالى يوشع عليه السلام نبيا فأخبرهم أن الله تعالى قد أمرهم بقتال الجبابرة فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق، وأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر وفتحوها فى الشهر السابع ودخلوها ، فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم ، وكان القتال يوم الجمعة ، فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت فقال: اللهم اردد الشمس على. وقال للشمس : ألك فى طاعة الله وإنا فى طاعته ، فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد فى النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين . وروى أن الشمس لم تحبس على بشر إلا يوشع ليالى سار إلى بيت المقدس ، ثم تتبع ملوك الشام فاستباح منهم إحدى وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت الشام كلها لبنى إسرائيل ، وفرق عماله فى نواحيها وجمع الغنائم كلها ، ثم مات

يوشع ودفن فى جبل إبراهيم ، وكان عمره مائة وعشر سنين ، وتدبيره أمر بنى إسرائيل بعد موسى سبعا وعشرين سنة ، ولما ندم موسى عليه السلام على الدعاء عليهم قال تعالى : « فلا تأس » أى تحزن « على القوم الفاسقين » فبين تعالى أنهم جديرون بذلك لفسقهم . وهذه القصة مبسطة فى الفصل الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد وهو السفر الرابع من أسفار التوراة .

وفى الفصل الرابع عشر أن بنى إسرائيل لما تمردوا وعصوا أمر ربهم سقط موسى وهرون على وجوههما أمامهم ، وأن يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين، فهمّ الشعب برجمهما . وظهر مجد الرب لموسى فى خيمة الاجتماع . وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ ، إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم ، فشفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون وبه ، فقبل الرب شفاعته ثم قال : إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولى ، لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها ، واستثنى الرب كالبا فقط . ثم قال لموسى وهرون : حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علىّ ؟ قد سمعت تذمرَ بنى إسرائيل الذى يتذمرونه علىّ ، قل لهم « حى أنا » يقول الرب ، لأفعلن بكم كما تكلمتم فى أذنى ، فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تذمروا على ، لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكننكم فيها ما عدا كالب ويشوع بن نون ، وأما أطفالكم الذين قلتم إنهم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها ، فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر ، وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر ، كعدد الأيام التى تجسستم فيها الأرض أربعين يوماً للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى . أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علىّ ، فى هذا القفر يفنون ، وفيه يموتون .

وبذلك ينتهى الربع الرابع من هذا الجزء ، أو الثانى من سورة المائدة ، وقد كان كله فى الحديث عن ماضى بنى إسرائيل القريب على عهد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وماضيهم البعيد على عهد موسى عليه السلام ، ثم فى الحديث عن النصارى وصنيعهم فى تحريف الإنجيل وتفرقهم مذاهب وجماعات وطوائف دينية منذ مات عيسى إلى اليوم ، وانقسامهم كذلك دولا متباغضة متشاحنة ، تثور بينهم الخلافات والحروب حتى الآن لأوهى الأسباب ، فيهلكون الحرث والنسل .. وما الحرب العالمية الأولى والثانية عنا ببعيد ، وأحداث الحربين فى التدمير والتخريب معروفة ، وهزيمة الشعب الألمانى ونتائجها فى الحربين لا تزال ملء الأسماع حتى اليوم ، وهاهى ذى روسيا تقف فى جانب ومن حولها حلفاؤها ، وأمريكا ومن حولها حلفاؤها كذلك ، والفريقان يستعدان لصراع جديد ، وحرب مدمرة .

ويدعو الله عز وجل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى إلى الإيمان برسالة محمد صلوات الله عليه ، وبهداية القرآن الكريم ليفوزوا فى الدنيا والآخرة برضوان من الله ويتحدث الله عز وجل بعد ذلك عن مغالاة النصارى فى شأن عيسى ، ومغالاة اليهود والنصارى معا فى زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ويرد عليهم فى ذلك ردا بليغا ، ويدعو الفريقين إلى الإيمان بمحمد وشريعته ، ويقص الله عز وجل إثر ذلك قصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام ، وبذلك ينتهى هذا الربع الجامع البليغ ، ويبدأ الربع الخامس من الجزء السادس ، أو الربع الثالث من سورة المائدة الشريفة ..

٢٧ – وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

٢٨ – لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

٢٩ — إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ .

٣٠ — فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

٣١ — فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ .

٣٢ — مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

فى هذه الآيات الست يقص الله عز وجل علينا قصة أول جريمة وقعت فى الأرض فى عهد آدم عليه السلام ، وهى جريمة قتل ، ويذكر غضبه عز وجل على القاتل ـ قابيل ـ بسبب هذه الجريمة ، ويبين أن سفك الدماء وإزهاق الأرواح لايجوز بأى حال من الأحوال إلا بإذن من الشرع ، وتشارك ـ فى إثم جريمة القتل ـ جريمة الانتحار ، فكما يغضب الله على القاتل وسفاك دماء الناس ، يغضب كذلك على الذى يقتل نفسه ، فيزهق روحه ، ويقدم على الانتحار ، لأى سبب من الأسباب ، وجريمة القتل هذه حدثت من قابيل ابن آدم عليه السلام إذ قتل اخاه هابيل .

وأشد من ذلك جريمة قتل الشعوب واستغلال القوى للضعيف لمصالح نفسه باسم الوصاية أو الاستعمار ، أو أى اسم من أسماء الاستعباد التى ماأنزل الله بها من سلطان .

ولقد جاءت هذه القصة فى سياق الكلام على أهل الكتاب ، وشأنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم. والقرآن بين قصة بنى إسرائيل الذين عصوا ربهم فيما كلفهم من قتال الجبارين ، وبين ما شرعه الله من جزاء الذين يخرجون على أئمة العدل ، ويهددون الأمن ، ويفسدون فى الأرض ، ومايتلوه من عقاب السرقة . فمناسبة هذه الآيات للسياق فى جملته ، أنها بيان لكون الحسد الذى صرف اليهود عن الإيمان بالنبي وحملهم على عداوته : عريق فى الآدميين وأثر من آثار من سلفهم كان لهؤلاء القوم منه النصيب الأوفر ، ويتضمن تسلية النبي والمؤمنين ، وإزالة استغرابهم من إعراض هذا الشعب عن الإسلام . على وضوح برهانه وكثرة آياته . وأما مناسبتها لما قبلها وما بعدها مباشرة . فهو - كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار - بيان حكمة الله فى شرع القتال والقود على ماشدد فيه من تحريم قتل النفس . ذلك أنه لما كان القتال بين الأمم ، وقتل الحكومات للأفراد ، أو تعذيبهم بقطع الأطراف - كل ذلك قبيحاً فى نفسه ، كان من مقتضى رحمة الله تعالى وحكمته ، أنه لا يباح إلا لدرء ماهو أقبح منه وأضر . وكان من كمال الدين أن يبين لنا حكمة ذلك ، فجاءت هذه القصة فى هذا المقام تبين لنا أن اعتداء بعض البشر على بعض حتى بالقتل هو اصيل فيهم ، وقع بين أبناء أبيهم آدم فى أول العهد بتعددهم .

وقوله تعالى « واتل عليهم نبأ ابنى آدم » وهما هابيل وقابيل « بالحق » أى تلاوة متلبسة بالحق ، أو أن النبأ نفسه متلبس بالحق والصدق ، أى اتل عليهم هذا النبأ الصادق الحق. وخلاصة قصتهما أن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر، وكانت حواء تلد لآدم كل بطن غلاماً وجارية ، وظاهر كلام المؤرخين أن آدم لا يحل له أن يتزوج بواحدة من بناته ولا من بنات أولاده ، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ولدا فى عشرين بطنا أولهم قابيل ، ثم هابيل ، وبارك الله تعالى فى نسل آدم عليه السلام ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده اربعين ألفا ، فأراد آدم أن ينكح هابيل أخت هابيل ، وينكح هابيل أخت قابيل ، وكانت أحسن من أخت هابيل ، فذكر ذلك

لولده فرضى هابيل وسخط قابيل ، وقال : هى أختى وأنا أحق بها ، فقال له أبوه : إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك ، وقال : إن الله لم يأمر بهذا وإنما هو من رأيك ، فقال لهما آدم : قربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها ، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها . وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكله الطير والسباع ، فخرجا ليقربا ، وكان قابيل صاحب زرع ، فقرب طعاماً زرعه وأضمر فى نفسه : ما أبالى تقبل منى أم لا ، لا يتزوج هابيل أختى أبدا، وكان هابيل صاحب غنم، فعمد إلى أحسن كبش فى غنمه فقربه وأضمر فى نفسه رضاء الله عز وجل ، فوضعا قربانهما على الجبل ، ثم دعا آدم فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل ، كما قال تعالى « إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما » وهو هابيل « ولم يتقبل من الآخر » وهو قابيل ؛ لأنه سخط حكم الله ولم يخلص النية فى قربانه وقصد إلى عمل الشر ، فغضب قابيل لرد قربانه ، وأضمر الحسد فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت الحرام ، فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل وهو فى غنمه « قال لأقتلنك » قال : ولم ؟ قال : لأن الله تعالى قبل قربانك ورد قربانى ، وتنكح أختى الحسناء وأنكح أختك الذميمة ، فيتحدث الناس أنك خير منى ويفتخر ولدك على ولدى « قال » هابيل : وما ذنبى « إنما يتقبل الله من المتقين » فإن قيل: كيف كان قول هابيل « إنما يتقبل الله من المتقين » جوابا لقوله لأقتلنك؟ أجيب بأنه لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى فلا تقتلنى ، ومالك لا تعاقب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حليم مختصر جامع . . وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغى أن يرى أن حرمانه من تقصيره هو ويجتهد فى تحصيل ما صار به المحسود محظوظا ، لا فى إزالة حظ المحسود فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه ، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متق ، وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له : ما يبكيك وقد كنت وكنت ، فقال : إنى أسمع الله يقول : إنما يتقبل الله من المتقين .

ومعنى هذه الآية الأولى : واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس ذلك النبأ العظيم ـ نبأ ابنى آدم ـ تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له ، بأن تذكره كما وقع ، مبيناً ما فيه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر . وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف الذى يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه فى الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغى من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم ، وإنما هو من حسدهم وبغيهم ، فهم فى هذا كابنى آدم إذ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله ، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات . والجمهور على أن هذين الإبنين هما ابنا آدم من صلبه ، وعن الحسن أنهما من بنى إسرائيل . وفى سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم ، اسم أحدهما قايين وهو البكر ، ويقول علماء التفسير والتاريخ اسم الأول : قابيل وهو القاتل ، واسم الثانى : هابيل بالاتفاق .

أما الآية الثانية « لئن بسطت » فمعناها : مددت « إلىّ يدك لتقتلنى » ظلما وعدواناً « ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » أى إنما الباسط غيرى وهو أنت أى المخاطب المعتدى « إنى أخاف الله رب العالمين » والتعبير بخوف الله أروع تعبير ، لأنه يجمع إتيان كل عمل صالح والامتناع عن كل معصية ، والإيمان بالله وعظمته ، والأمل فى ثوابه ، والخوف من عقابه أى أخافه أن يرانى باسطا يدى إلى الإجرام وسفك الدم بغير حق ، فإن ذلك يسخطه ويكون سبب عقابه ، لأنه رب العالمين الذى يغذيهم بنعمه ، ويربيهم بفضله وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أعظم مفسد لهذه التربية ومعارض لها فى بلوغ غاية استعدادها ، ومن يخاف الله لا يعتدى هذا الاعتداء . وهذا الجواب من الأخ التقى يتضمن أبلغ الموعظة وألطف الاستعطاف لأخيه العازم على الجناية ، ولا يقال : إنه كان يجوز له الدفاع عن نفسه ولو بقتل الصائل عليه ، حتى يحتاج إلى الجواب بأن شرع آدم لم يكن يبيح ذلك ، فإن هذا من الرجم بالغيب، والدفاع قد يكون بما دون القتل ، وليس فى الكلام تصريح بعدم الدفاع

البتة ، وإنما فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل ، وقد قال نبينا صلوات الله عليه: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه ».

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده خوفا من الله عز وجل ، لأن الدفاع لم يكن قد أبيح أو تحريا لما هو الأفضل ، قال عليه الصلاة والسلام : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وإنما قال : ما أنا بباسط ـ فى جواب « لئن بسطت » للتبرى عن هذا الفعل الشنيع رأسا ، والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه ، ولذلك أكد النفى بالباء « إنى أريد أن تبوء » أى ترجع « بإثمى » أى إثم قتلى « وإثمك » الذى ارتكبته من قبل « فتكون من أصحاب النار » ولا أريد أن أبوء بإثمك إذا قتلتك فأكون منهم ، وقال : أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، وإرادة القتل والمعصية لا تجوز ، وقد قيل : إن ذلك ليس فى الحقيقة إرادة ، لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام طلبا للثواب ، فكأنه صار مريدا لقتله مجازا وإن لم يكن مريداً حقيقة « وذلك جزاء الظالمين » أى الراسخين فى وصف الظلم ، وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لى بإحسانى فى إيثارى حياتك على حياتى ، وذلك جزاء المحسنين « فطوعت » قال قتادة : فزينت « له نفسه قتل أخيه فقتله » قيل : رضخ رأس هابيل بين حجرين وهو مسلم ؛ وقيل : اغتاله فى النوم وهو نائم فشدخ رأسه فقتله « فأصبح من الخاسرين » بقتله ولم يدر ما يصنع به ، لأنه أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم ؛ وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة فحمله بعد قتله فى جراب ، فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجله ثم ألقاه فى الحفرة وواراه ، وقابيل ينظر إليه ، فذلك قوله تعالى : « فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه » أى الله ، أو ليريه الغراب أى ليعلمه ، لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز « كيف يوارى » أى يستر

« سوأة » أى جثة « أخيه » وقيل : عورته ، لأنه سلب ثيابه ، فلما رأى قابيل ذلك « قال : ياويلتا » كلمة جزع وتحسر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم والمعنى : يا ويلتالى فهذا أوانك ، والويل والويلة الهلكة « أعجزت » أى مع ما جعل الله لى من القوة الناطقة « أن » أى عن أن « أكون » مع مالى من الجوارح الصالحة لأعظم من ذلك « مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى » أى لا أهتدى إلى ما اهتدى إليه ، وقوله «فأوارى» عطف على (أكون) وليس جواب الاستفهام ، إذ ليس المعنى على ذلك « فأصبح » أى بسبب قتله « من النادمين » أى على ما فعل ، لأنه فقد أخاه وأغضب ربه وأباه ، وما انتفع بقتله شيئا .

قال عبد المطلب : لما قتل ابن آدم أخاه رجت الأرض بما فيها سبعة أيام ، وعن ابن عباس لما قتله وكان آدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت وملح الماء واغبرت الأرض ، فقال آدم عليه السلام : قد حدث فى الأرض حدث ، وروى أنه لما قتله اسود جسده ، فسأله آدم عليه السلام بعد مجيئه من مكة عن أخيه ، فقال : ما كنت عليه وكيلا ، فقال : بل قتلته ، ولذلك اسود جسدك ، قال : فأين دمه إن كنت قتلته . فحرم الله عز وجل فى الأرض القتل وسفك الدماء ، وروى أن آدم صلوات الله وسلامه عليه مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك ، فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة ـ وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ـ ولدت له حواء (شيثا) ومعناه هبة الله ، أى أنه خلقه الله عوضا من هابيل ، وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وأعلمه عبادة الخلق فى كل ساعة منها ، وأنزل عليه خمسين صحيفة ، وأما قابيل فقيل له : اذهب طريدا شريدا ، فهرب إلى عدن من أرض اليمن وعبد النار ، فهو أول من عبد النار ، وكان نسله مطبوعين على الفساد حتى أغرقهم الله تعالى بالطوفان أيام نوح عليه السلام ، وبقى نسل شيث عليه السلام ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تقتل نفس ظلما إلا كان

على ابن آدم الأول كفل منها من دمها لأنه أول من سن القتل « من أجل ذلك » أى الذى فعله قابيل « كتبنا » أى قضينا « على بنى إسرائيل » فى التوراة؛ لأنهم كانوا أشد الناس جرأة على القتل، وكانوا يقتلون الأنبياء « أنه » أى الشأن « من قتل نفساً » أى من بنى آدم « بغير نفس » أى بغير قتل نفس يوجب القصاص « أو » قتلها بغير « فساد » أتاه « فى الأرض » كالشرك والزنا بعد الإحصان وقطع الطريق ، وكل ما يبيح إراقة الدم « فكأنما قتل الناس جميعا » أى من حيث هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه ، أو من حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء فى استحلال غضب الله تعالى والعذاب العظيم « ومن أحياها » أى بسبب من الأسباب كإنقاذ من هلاك أو غرق أو دفع من يريد أن يقتلها ظلما « فكأنما أحيا الناس جميعا » قال ابن عباس : من حيث المحافظة على حرمتها وصونها ، وقال سليمان بن على : قلت للحسن : يا أبا سعيد : أهى لنا ؟ أى هذه الآية لنا كما كانت لبنى إسرائيل؟ قال : إى والذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا ، « ولقد جاءتهم » أى بنى إسرائيل « رسلنا بالبينات » أى بالمعجزات « ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك » أى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم ، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للأمر وتجديدا للعهد « فى الأرض لمسرفون » أى مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك ولا يبالون به ، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها .

هذا وقصة قابيل وهابيل مذكورة فى الإصحاح الرابع من سفر التكوين ؛ وما هناك يدل على أن قابيل وهابيل هما ابنا آدم وحواء - من صلبهما ؛ وجاء فى هذا الإصحاح ما معناه : أن حواء حبلت وولدت قابين ، ثم هابيل ، وعمل الأول فى الأرض وكان الثانى راعيا للغنم ، وقدم قابين قربانا للرب من أثمار الأرض ، وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه وسمانها ، فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل من قابين ، فقتل قابين هابيل . . ثم يتحدث الإصحاح عن غضب الله على قابين ، وعن أبناء قابين ، ويقول : وعرف آدم امرأته أيضا

فولدت ابنا ، ودعت اسمه شيثا ، قائلة : لأن الله قد وضع لى نسلا آخر عوضا عن هابيل ، لأن قايين كان قد قتله .

ومغزى هذه القصة حرمة الدماء ، وأن الذى يقتل نفسا يعتاد القتل حتى ليصبح القتل سهلا على نفسه وميسرا عليه حتى لا يبالى بقتل الناس جميعا ، ولذلك اشتدت الشرائع والقوانين فى عقاب القتلة ، وسفاكى الدماء ، ونرجو أن يأتى اليوم القريب الذى توضع فيه القوانين بالقصاص من الزعماء الذين يستعبدون الشعوب رغم إرادتها ، ويستعمرونها لأنفسهم ويقتلون شرفها وكرامتها وحريتها ، إن عهد الاستعمار يجب أن يزول ، ووصمته الكبرى فى جبين الإنسانية يجب أن تمحى ، وتاريخه مع الشعوب يجب أن يباد ، حتى تصبح الأمم كافة حرة عزيزة كريمة مستقلة . وها نحن أولاء نشاهد اليوم جريمتين فى الشرق العربى تقعان بيد الاستعمار وبطشه : أولاهما احتلال الصهيونيين لأرض فلسطين واغتصابها من أهلها العرب المشردين فى الأرض ، وثانيتهما احتلال فرنسا لأرض الجزائر وإبادتها لأهلها العرب المسلمين بالجملة ، قاصدة من وراء ذلك أن تصبح وطنا للمستغلين الفرنسيين . . وخاب فألهم وفشلوا ، وحق على المستعمرين الهوان والعذاب والخزى بإذن الله .

٣٣ — إِنَّمَا جَزَآؤُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

٣٤ — إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

هاتان الآيتان تتحدثان عن جريمة أخرى غير جريمة القتل ، وعن عقابها ، هذه الجريمة هى جريمة الخروج على الإمام ، والعبث بالنظام ،

وترويع السلم ، وإفزاع الناس .. وقد نزلت هاتان الآيتان الكريمتان فى شأن العرنيين لما قدموا المدينة وهم مرضى ، أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وهم كذبة ، فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها ، فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الإبل .. « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » أى يحاربون أولياءهما وهم المسلمون ، جعل محاربتهم هى محاربتهما تعظيما « ويسعون فى الأرض فساداً » أى بقطع الطريق « أن يقتلوا » أى إن قتلوا « أو يصلبوا » مع ذلك إن قتلوا وأخذوا المال « أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ، أى إن اقتصروا على أخذ المال « أو ينفوا من الأرض » أى إن أرعبوا ولم يأخذوا شيئا ، أى ينفوا من بلد إلى بلد إن رأى الإمام ذلك ، وإن رأى حبسهم فله ذلك ولو فى بلدهم ، هكذا فسر الآية ابن عباس رضى الله عنهما لحمل كلمة (أو) على التنويع لا التخيير، كما فى قوله تعالى: وقالوا كونوا هوداً أو نصارى - إذ لم يخير أحد منهم بين اليهودية والنصرانية « ذلك » أى ذلك الجزاء العظيم « لهم خزى » أى ذل وإهانة « فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » هو عذاب النار ، واحتج أكثر أهل العلم على أن هذه الآية نزلت فى قطاع الطريق بقوله تعالى « إلا الذين تابوا » أى رجعوا عما كانوا عليه من المحاربة خوفاً من الله تعالى « من قبل أن تقدروا عليهم » أى فإن حقوقه تعالى تسقط عنهم كالقطع والصلب والقتل ، ويبقى القصاص والمال ، لأنه حق آدمى لا يسقط بالتوبة « فاعلموا أن الله غفور » لهم ما أتوه « رحيم » بهم ، ولو كانت نزلت فى الكفار لكانت توبتهم بالإسلام ، وهو رافع العقوبة قبل القدرة وبعدها . وروى أبو داود والنسائى عن أبى الزناد أن رسول الله عليه السلام لما أمر بقطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار عاتبه الله فى ذلك ، فأنزل « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » الآية ، وفى القصة روايات أخرى مفصلة . ومنها أنه أباح لهم إبل الصدقة كلها فى غدوها ورواحها . وروى أبو داود والنسائى عن ابن عباس فى الآية قال :

نزلت فى المشركين منهم ، من تاب قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الأرض ، أو حارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدروا عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام فيه الحد الذى أصابه ، وروى ابن جرير والطبرانى فى الكبير عن ابن عباس أيضاً أنه قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله عليه السلام عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض ، فخير الله نبيه فيهم إن شاء أن يقتل وإن شاء يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . وفى بعض الروايات زيادة : إلا من أسلم قبل أن يؤخذ . وروى ابن جرير أيضاً ما تقدم من كون الآية نزلت عتابا للنبى صلى الله عليه وسلم على سمل أعين العرنيين وقطع أيديهم وتركها بدون حسم ، فكانت الآية تحريما للمثلة عند هؤلاء ، على أنه ثبت أنه كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن المثلة قبل نزول المائدة . وروى عن آخرين أنه عليه السلام كان أمر بسمل[1] أعينهم وقطعهم كما فعلوا بالراعى المسلم ، وفى بعض الروايات (الرعاة) بالجمع ، فنزلت الآية فترك ذلك ولم يفعله .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار : اختلف العلماء فى حكم هذه الآية ، فقال بعضهم : إنه خاص بمثل من نزلت فيهم من الكفار مطلقا ؟ أو الذين غدروا من اليهود ، أو الذين خدعوا النبى والمسلمين بإظهار الإسلام حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم . وذهب أكثر الفقهاء إلى أنها خاصة بمن يفعلون هذه الأفعال من المسلمين ، وكأنهم اقتدوا بما أظهره العرنيون من الإسلام ، ورووا عدة روايات فى تطبيق الآية على الخوارج ، بل قالوا : إنها نزلت فيهم . والظاهر المتبادر ـ بصرف النظر عن الروايات المتعارضة ـ أنها عامة لكل من يفعل هذه الأفعال فى دار الإسلام إذا قدرنا عليهم وهم متلبسون بها بالفعل أو الاستعداد ، وقد قال الذين جعلوها خاصة بالمسلمين : إن أحكام الكفار فى الحرب معروفة بالنصوص والعمل ،

---

(١) سملها وسمرها : كحلها بمسامير الحديد المحماة .

وليس فيها هذه الدرجات فى العقاب ، وجوابه أن هذا العقاب خاص بمن فعل مثل أفعال العرنيين ، فلا يقتضى ذلك أن يتبع فى حرب كل من حاربنا من الكفار ، وقال بعضهم : إن استثناء (من تابوا قبل القدرة عليهم) دليل على إرادة المسلمين ، لأن الكفار لا يشترط فى توبتهم أن تكون قبل القدرة عليهم . ويجاب عن هذا بأن التوبة من هذا الإفساد هى التى يشترط فيها أن تكون قبل القدرة عليهم لا التوبة من الكفر . ومجموع الروايات فى قصة العرنيين تفيد أنهم جعلوا الإسلام خديعة للسلب والنهب ، وأنهم سملوا أعين الرعاة ثم قتلوهم ومثلوا بهم ، وفى بعضها أنهم اعتدوا على الأعراض أيضاً ، وأن النبى عاقبهم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وقوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » إن صح أن الآية نزلت بعد عقابهم ، ولم يعف عنهم كعادته لئلا يتجرأ على مثل فعلتهم أمثالهم من أعراب المشركين وغيرهم ، فأراد بذلك القصاص وسد الذريعة ، وأن الله تعالى أنزل الآية بهذا التشديد فى العقاب على مثل هذا الإفساد ، لهذه الحكمة ، وهى سد ذرية هذه المفسدة ، ولكنه حرم مع ذلك كله المثلة .

ويعرف ابن جرير وغيره (المحاربين) ؛ فيروى عن مالك بن أنس أنه قال : المحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين فى مصر أو خلاء ، فكان ذلك منه على غير ثائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة ، قاطعاً للسبيل والطريق والديار ، مخيفاً لهم بسلاحه . وذكر أن من قتل منهم قتله الإمام ، ليس لولى المقتول فيه عفو ولا قود . وقال ابن المنذر . اختلفت الرواية فى مسألة إثبات المحاربة فى المصر عن مالك ، فأثبتها مرة ونفاها أخرى ، نقول : والصواب الإثبات ، لأنه المعروف فى كتب مذهبه ، وإنما اشترط انتفاء العداوة وغيرها من الأسباب ليتحقق كون ذلك محاربة للشرع ومقاومة للسلطة التى تنفذه .

وفى حاشية المقنع من كتب الحنابلة تليخص لمذاهب الفقهاء فى ذلك هذا نصه — على مانقله صاحب المنار — : يشترط فى المحاربين ثلاثة شروط :

أن يكون معهم سلاح ، فإن لم يكن معهم سلاح فليسوا محاربين ؛ لأنهم

لا يمنعون من يقصدهم . ولا نعلم فى هذا خلافا ، فإن عرضوا بالعصى والحجارة فهم محاربون ، وهو المذهب ، وبه قال الشافعى وأبو ثور ، وقال أبو حنيفة : ليسوا محاربين .

٢ — أن يكون ذلك فى الصحراء ، فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين فى قول الخرقى ، وجزم به فى الوجيز ، وبه قال أبو حنيفة والثورى وإسحق ، لأنه حد قطاع الطريق ، وقطع الطريق لا يثبت إلا عند فعل ذلك فى الصحراء ، لأن فى المصر يلحق الغوث غالبا ، فتذهب شوكة المعتدين ويكونون مختلسين . والمختلس ليس بقاطع ولا حد عليه . وقال أبو بكر : حكمهم فى المصر والصحراء واحد وهو المذهب . وبه قال الأوزاعى والليث والشافعى وأبو ثور ، لتناول الآية بعموم كل محارب ، ولأنه فى المصر أعظم ضرراً فكان أولى .

٣ — أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال قهراً ، فأما إن أخذوه مختفين فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذلك إن خرج الواحد والإثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا ، لأنهم لا يرجعون إلى منعة وقوة . وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق .

وهذه العقوبات الأربع للمحاربين المفسدين فى الأرض ، وقد اختلف العلماء فى كيفية تنفيذها ، فقال بعضهم (أو) للتخيير ، فللإمام أن يحكم على من شاء من المحاربين المفسدين عند التمكن منهم بما شاء منها وقال الجمهور : إنها لتفصيل أنواع العقاب لا للتخيير ، جعل الله لهذا الإفساد درجات من العقاب ؛ لأن إفسادهم متفاوت ، منه القتل ومنه السلب ومنه هتك الأعراض ، ومنه إهلاك الحرث والنسل — أى قطع الشجر وقطع الزرع وقتل المواشى والدواب — ومنهم من يجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فليس الإمام مخيراً فى معاقبة من شاء منهم بما شاء منها ، بل عليه أن يعاقب كلا بقدر جرمه ودرجة إفساده ، ثم اختلفوا فى تقدير هذه العقوبات بقدر الجرائم اختلافا كثيراً ، وجاؤوا فيه بفروع كثيرة ترجع إلى الرأى والاجتهاد فى التقدير ومراعاة ماورد من الحدود على بعض هذه الأعمال ، كقتل القاتل ،

وقطع آخذ المال لأنه كالسارق ، والجمع بين القتل والصلب ، لمن جمع بين القتل والسلب ، والنفى لمن أخاف السبيل ولم يقتل ولا أخذ مالا . وقد روى هذا عن ابن عباس وبعض علماء التابعين . وأنت ترى أن الآية لاتدل عليه ولا تنفيه ، فهو اجتهاد حسن فى كيفية العمل بها ، ولكنه غير كاف ، لأن للمفسدين فى الأرض بالقوة أعمالا أخرى أشرنا إلى أمهاتها آنفاً . فإذا قامت عصبة مسلحة من الأشقياء بخطف العذارى أو المحصنات لأجل الفجور بهن ، أو بخطف الأولاد لأجل بيعهم أو فديتهم ، فلا شك أنها تعد من المحاربين المفسدين ، إن الآية حددت لعقاب المفسدين بقوة السلاح والعصبية أربعة أنواع من العقوبة . وتركت لأولى الأمر الاجتهاد فى تقديرها بقدر جرائمهم ، فلاهى خيرت الإمام بأن يحكم بما شاء منها على من شاء بحسب هواه ، ولاهى جعلت لكل مفسدة عقوبة معينة منها . والحكمة فى عدم تعيين الآية وتفصيلها للفروع والجزئيات هى أن هذه المفاسد كثيرة ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك والفروع تكثر فيها حتى أن تفصيلها لايمكن . ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية روحية ، ليس لأحكام المعاملات الدنيوية منه إلا حظ القليل . إذ وكل أكثرها إلى أولى الأمر من المؤمنين ، وبين بإيجازه المعجز الضرورى منها ، بعبارة يؤخذ من كل آية منها الكثير من انواع التأديب ، كهذه الآية وآيات المواريث ، والقاعدة فى الإسلام أن ما لا نص فيه بخصوصه يستنبط أولو الأمر — ومنهم العلماء — حكمه من النصوص والقواعد العامة فى دفع المفاسد وحفظ المصالح .

وليس أضر على الأمة من العبث بالأمن فيها ، ومن الإخلال بالنظام والطمأنينة ، وما هذه العصابات المسلحة الموجودة وسطنا الآن ، والتى تحترف قتل الناس بالجملة ، وسلب أموالهم بالإكراه ، وخطف الأطفال والرجال ، ماهى عنا ببعيد ، ولا ينكر احد أنها تستحق من العقاب الشديد أكثر مما جاء فى الآية ، ويلاحظ أن القرآن الكريم يحتم الشدة مع مثل هذه الطبقات من المجرمين ، وذلك حرصا على استتباب الأمن ، وعملا على محاربة الجريمة من

جذورها ، ومنعا للناس أن يتخذوا الجريمة مصدرا لحياتهم ومعاشهم كما يحدث اليوم . . .

٣٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

٣٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٣٧ — يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

وهـذه الآيات الثلاث الكريمة جاءت عقب ذكر جريمة القتل وجريمة محاربة الله ورسوله ، دعوة للمؤمنين إلى الإيمان وطاعة الله ، وإلى الإخلاد إلى السكينة والحرص على السلام ؛ وهى بما تضمنته من وعد بالفوز والفلاح للمؤمنين المتقين الطائعين ، ومن إنذار بالعذاب فى الدنيا والآخرة للكافرين العاصين ، هى بذلك سلاح زجر لمن تسول لهم أنفسهم أن يجعلوا حياتهم لترويع المجتمع ، ومعيشتهم وقفا على العبث بالأمن والنظام . . ويذهب الرازى مذهبا آخر فى فهم الآية والربط بينها وبين الآيات السابقة ، يقول : إن وجه الاتصال والتناسب بين هذه الآيات وما قبلها يرجع إلى سياق الكلام على أهل الكتاب ، لأن ما بعده جاء على سبيل الاستطراد ، وقد جاء فى ذلك السياق أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول وبعض المؤمنين بالسوء وقصد الاغتيال . لما كانوا عليه من العتو على الأنبياء وشدة الإيذاء لهم ، وإنهم كانوا هم والنصارى مغرورين بدينهم ، يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فأرشد الله المؤمنين وأمرهم بأن يتقوه ويبتغوا إليه وحده الوسيلة بالعمل الصالح ، ولا يكونوا

كأهل الكتاب فى افتتانهم وغرورهم ، وقال الشيخ رشيد رضا : والوجه فى التناسب أن يبنى على أسلوب القرآن ، الذى امتاز به على سائر الكلام ، من حيث كونه مثانى للهداية ، والموعظة والعبرة ، لا تبلى جدته ، ولا تمل قراءته ، والركن الأول لهذا الأسلوب أن يكون الكلام فى كل موضوع مختصرا مفيدا تتخلله أسماء الله وصفاته والتذكير بوحدانيته ، ووجوب تقواه والإخلاص له والتوجه إليه وحده ، وبالدار الآخرة والجزاء فيها على الأعمال ، ولذلك نرى القرآن الكريم يأمر بتقوى الله بعد ذكر جرائم القتل وقطع الطريق ، والإفساد فى الأرض . ويوصى بالأمر بالتقوى ، ومنها اتقاء الحسد والبغى والفساد الذى هو سبب الخزى والعذاب فى الدنيا والآخرة ـ ويأمر بابتغاء الوسيلة إليه تعالى والجهاد فى سبيله ، رجاء الفلاح والفوز بالسعادة . وبوعيد الكفار الذين لايتقون الله ولا يتوسلون إليه بما يرضيه ، فقال : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله » أمر للمؤمنين بتقوى الله وطاعته والخوف من عقابه . . « وابتغوا » أى اطلبوا . « إليه الوسيلة » أى ماتتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه ، من فعل الطاعات وترك المعاصى ؛ من : توسل إلى الأمير بكذا ـ أى تقرب به إليه ، وفى الحديث : الوسيلة منزلة فى الجنة « وجاهدوا فى سبيله » بمحاربة أعدائه لتكون كلمة الله هى العليا « لعلكم تفلحون » بالوصول إلى الله عز وجل والفوز بكرامته « إن الذين كفروا لو » ثبت « أن لهم ما فى الأرض » من صنوف الأموال ، وأكده بقوله « جميعا ومثله معه ليفتدوا به » أى ليجعلوه فدية لأنفسهم « من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم » أى لأن المدفوع إليه ذلك تام القدرة وله الحكم المطلق « ولهم » أى بعد ذلك « عذاب أليم » أى مؤلم « يريدون أن يخرجوا » أى يكون لهم الخروج « من النار » ثم نفى خروجهم على وجه التأكيد فقال « وما هم بخارجين منها » أى مايثبت لهم خروج أصلا « ولهم » أى للكافرين خاصة دون عصاة المؤمنين « عذاب مقيم » أى دائم .

فهذه الآيات الثلاث إذن دعوة إلى الإيمان والتقوى وإلى التقرب إلى الله بالعمل الصالح الكريم ، وإلى الجهاد فى سبيل الله . فتلك هى أسباب الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة ، أما الكافرون فعليهم غضب الله ولهم عذابه المقيم فى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

٣٨ — وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٣٩ — فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٤٠ — أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وفى هذه الآيات الثلاث الأخرى بيان لجريمة السرقة وعقوبتها فى الإسلام ، وهذه العقوبة هى أداة زجر وردع للسارقين واللصوص ، الذين يأتون بأفظع الجرائم ، وتروى لهم كل يوم غرائب الاحتيال ، والذين يهددون الناس فى أرزاقهم وأمنهم وسلامهم ، ويخلون بنظام المجتمع وهدوئه وسلامه ، ويخالفون أوامر الله تعالى وشرائعه . إن الإسلام لم يرحم طبقات المجرمين ومن فى حكمهم ، لأنهم أكثر إفساداً لأمن الناس وطمأنينتهم . ولقد علق كثير من الكتاب على عقوبة جريمة السرقة هذه وشدتها ، ووصفوها تارة بأنها تخلو من الجانب الإنسانى فى معاملة اللصوص ، وتارة أخرى بأنها لا تصلح علاجا لمثال هذه الجريمة ، وفاتهم أن الإسلام يحارب الجريمة من جذورها ، ولا يريد لها أن تعيش فى المجتمع ، ولا أن تصبح أداة لاحتراف الناس ولحياتهم منها ، هم ومن يتسترون على اللصوص ويأخذون منهم الإتاوات من كل ذى نفوذ صغير أو كبير .

وقوله تعالى « والسارق والسارقة » أى الذى سرق والتى سرقت « فاقطعوا أيديهما » أى يمين كل منهما من الكوع كما بينته السنة ؛ وكما بينت أنه لا بد أن يكون المسروق ربع دينار فصاعدا من حرز مثله من غير شبهة له فيه ، وأنه إذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، ثم اليد اليسرى، ثم الرجل اليمنى، ثم بعد ذلك يعزر ، وقد علل الله تبارك وتعالى ذلك بقوله عز وجل « جزاء بما كسبا » أى فعلا من ذلك ، ثم علل تعالى هذا الجزاء بقوله « نكالا » أى عقوبة لهما « من الله » وكرر الإسم الأعظم تعظيما للأمر فقال « والله عزيز » أى غالب على أمره « حكيم » أى بالغ الحكم والحكمة فى خلقه « فمن تاب » أى من السارقين واللصوص « من بعد ظلمه » أى سرقته « وأصلح » أمره بالتخلص من التبعات والعزم على أن لا يعود إليها « فإن الله يتوب عليه » أى يقبل توبته فضلا منه تعالى « إن الله غفور رحيم » فلا يعذبه فى الآخرة. وأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين ؛ وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم ، وقال سفيان الثورى وأصحاب الرأى : لا غرم بالاتفاق ، إن كان المسروق عنده يسترد وتقطع يده ؛ لأن القطع حق الله عز وجل والغرم حق العبد ، ولا يمنع أحدهما الآخر، وقوله تعالى « ألم تعلم » الاستفهام للتقرير ، والخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: معناه : ألم تعلم أيها الإنسان، فيكون خطابا لكل أحد من الناس « أن الله له ملك السموات والأرض » أى أن الملك خالص له من جميع الشوائب « يعذب من يشاء » تعذيبه « ويغفر لمن يشاء » المغفرة له « والله على كل شيء قدير » أى ومنه التعذيب والمغفرة. فليس هو كغيره من الملوك الذين قد يعجز أحدهم عن تقريب ابنه وتبعيد عدوه .

وقد اختلف العلماء فى القدر الذى يوجب الحد من السرقة ، فروى عن الحسن البصرى وداود الظاهرى انه يثبت القطع بالقليل والكثير عملا بإطلاق الآية وحديث « لعن الله السارق ، يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » رواه الشيخان من طريق الأعمش عن أبى هريرة ، وعليه

الخوارج . وذهب جمهور السلف والخلف — ومنهم الخلفاء الأربعة — إلى أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار أى ربع مثقال من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة . والشافعى جعل ربع الدينار هو الأصل فى تقويم الأشياء المسروقة ، لأنه الأصل فى جواهر الأرض كلها ، وروى عن مالك أن كلا من الذهب والفضة أصل معتبر فى نفسه ، وفى رواية أخرى — قيل إنها المشهور عنه — أن التقويم بدراهم الفضة لا بربع الدينار . وقال بعض العلماء : إن العروض تقوم بما كان غالبا فى نقود أهل البلد ، فيختلف باختلاف البلاد . والأصل فى هذا المذهب وفى هذا الخلاف فى التقدير حديث عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا » رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن إلا ابن ماجه . وفى رواية مرفوعا « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا » رواه أحمد ومسلم وابن ماجه ، وفى رواية أخرى للنسائى مرفوعا « لا تقطع اليد فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار ، ويؤيده حديث ابن عمر فى الصحيحين والسنن الثلاث « ان النبى صلى الله عليه وسلم قطع فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم » وفى رواية « قيمته ثلاثة دراهم » وأجابوا عن حديث أبى هريرة بأن الأعمش راويه فسر البيضة ببيضة الحديد التى تلبس للحرب وهى كالمجن أى الترس ، وقد يكون ثمنها أكثر من ثمنه ، ومذهب الحنفية أن النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم فأكثر ، ولا قطع فى أقل منها ، واحتجوا برواية عند البيهقى والطحاوى والنسائى عن ابن عباس وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى تقدير ثمن المجن بعشرة دراهم . ورجحوها على حديث الصحيحين والسنن بإدخالها فى عموم درء الحدود بالشبهات ، ولكن فى إسنادها محمد بن إسحق وقد عنعن ولا يحتج بحديثه معنعنا ، فكيف يعارض حديث الصحيحين بل الجماعة كلهم ؟ وهنالك مذاهب أخرى كثيرة فى قدر النصاب . وتثبت السرقة بالإقرار وبالبينة . ويسقط الحد بالعفو عن السارق قبل رفع أمره إلى الحاكم . وكذا بعده عند بعض العلماء ، وهو مخالف للأحاديث الصريحة . وورد النهى عن إقامة الحد فى الغزو .

ولا عقاب على من سرق جائعاً ليأكل إذا كان ما سرقه لا يتعدى طعامه، إذ الأصل أن جريمة السرقة لابد أن يكون ارتكابها بقصد الجريمة لا بقصد شريف، كسد الرمق عند فقدان الوسائل أمام الإنسان، والقرآن الكريم يفرق بين المحترفين للسرقة فيعاقبهم عقاباً رادعا، وبين من توقعه الضرورة فى السرقة لسد رمقه مثلا، فهذا وما شابهه لهم مغفرة الله ورحمته.

وبهذه الآيات ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء أو الثالث من سورة المائدة الكريمة، ويليه الربع السادس ..

وقد كان هذا الربع كله فى ذكر جريمة القتل، وقطع الطريق والسرقة، ومحاربة الإمام، وفى ذكر عقوبة هذه الجرائم والغرض منها؛ وماأروع تشريعات الإسلام وأحكامه وآدابه .. إن عقاب الجريمة فى الإسلام يجب النظر فيه بهذا المنظار، ومقياسه بهذه المقاييس، وهى:

١ — العقوبة فى الإسلام، يلاحظ فيها أن تكون قاضية على الجريمة لمنع وقوعها وتكرارها.

٢ — الفرق بين محترفى الجريمة وطبقات أخرى تقع فى الجريمة خطأ أو لظرف إنسانى قاهر.

٣ — عقوبة الجريمة يجب أن تكون مناسبة لمدى فظاعة الجريمة وشدتها وهزتها للمجتمع وترويعها للأمن والهدوء وللطمأنينة ولسلام الناس.

٤١ — يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ

ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

٤٢ — سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ.

٤٣ — وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ.

٤٤ — إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ.

٤٥ — وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ.

هذه الآيات الخمس صدرت بالمنافقين ، ثم باليهود ، وقد أفاض القرآن الكريم فى ذكر أحوال اليهود وحربهم للإسلام والرسول ، وتحريفهم للتوراة طمسا لمعالم بشارتها بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويذكر القرآن

الكريم حب اليهود للمال وأنهم يأكلونه سحتا أى بالباطل ، كأخذهم له بالربا والرشورة وسوى ذلك من كسب المال من وجوهه الغير الشريفة .

ويفيض القرآن الكريم فى ذكر خبث اليهود وتساؤلهم عن حكم الديات وهى عندهم فى التوراة ، وسوى ذلك مما ذكره القرآن فى هذه الآيات الشريفة .

وعن ابن عمر قال «إن اليهود أتوا النبى برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال: ماتجدون فى كتابكم ؟ قالوا : نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم إن فيها الرجم ، فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارىء لهم — وفى رواية أحمد زيادة : أعور ، يقال له ابن صوريا — فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا هى — أى آية الرجم — تلوح . فقالوا : يا محمد ، إن فيها الرجم ولكنا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله فرجما . فلقد رأيته يجنأ — أى ينحنى — عليها يقيها الحجارة بنفسه » ولفظ مسلم « نسود وجوههما » ويروى أن الذى أمر القارىء أن ترفع يده هو عبد الله بن سلام . وعن البراء بن عازب قال : مر النبى بيهودى محمماً مجلوداً . فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » وأمر به فرجم ، فأنزل الله « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر — إلى قوله — إن أوتيتم هذا فخذوه » يقول : ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا . فأنزل الله عز وجل « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » قال : هى فى الكفار كلها .

قوله تعالى «يأيها الرسول» أى المبلغ لما أرسل به، وقوله تعالى «لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر» أى يقعون فيه بسرعة بأن يظهروه إذا وجدوا منه فرصة؛ «من الذين قالوا آمنا» للبيان «بأفواههم» أى بألسنتهم متعلق بقالوا «ولم تؤمن قلوبهم» وهم المنافقون «ومن الذين هادوا» عطف على من الذين قالوا «سماعون للكذب أى هم سماعون، والضمير فى (سماعون) للفريقين أو للذين يسارعون أو أن المعنى: ومن اليهود قوم سماعون للكذب الذى افترته أحبارهم سماع قبول «سماعون» منك «لقوم» أى لأجل قوم «آخرين» من اليهود «لم يأتوك» أى لم يحضروا مجلسك أو تجافوا عنك تكبراً وإفراطا فى البغضاء «يحرفون الكلم» أى الذى فى التوراة كآية الرجم «من بعد مواضعه» أى التى وضعه الله عليها أى يبدلونه «يقولون» أى الذين يحرفون لمن يرسلونهم للنبى صلى الله عليه وسلم: «إن أوتيتم هذا» أى المحرف أى أفتاكم به محمد صلى الله عليه وسلم «فخذوه» أى فاقبلوه منه واعلموا أنه الحق واعملوا به «وإن لم تؤتوه» أى بأن أفتاكم بخلافه «فاحذروا» أن تقبلوه منه فإنه الباطل والضلال، يروى أن شريفا فى خيبر زنا بشريفة وكانا محصنين وحدهما الرجم فى التوراة، فكرهوا رجمهما لشرفهما وقالوا: إن هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرجم ولكن الضرب، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم[1] فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا: ما حدهما فى كتابك؟ فقال: هل ترضون بقضائى؟ فقالوا: نعم؛ فنزل جبريل عليه السلام بالرجم، فأخبرهم بذلك، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن قرية فدك يقال

---

(١) أى تسويد الوجه، من الحمة بالضم والتشديد وهى السواد.

له ابن : صوريا ؟ قالوا : نعم ؛ فقال : هو أى رجل فيكم ؟ فقالوا : هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة ، قال : فأرسلوا إليه ، ففعلوا ، فأتاهم فقال له النبى : أنت ابن صوريا ؟ قال : نعم ، قال : أعلم اليهود ؟ قال : كذلك يزعمون ، قال : تجعلونه بينى وبينكم ؟ قالوا : نعم ، فقال له رسول الله : أنشدك الله الذى لا إله إلا هو ، الذى فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور ، وأنجاكم وأغرق آل فرعون ، والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه : هل تجدون فيه الرجم على من أحصن ؟ قال : نعم ؛ فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال : خفت إن كذبت أن ينزل علينا العذاب ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله النبى الأمى العربى الذى بشر به المرسلون ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده وقال : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأنزل الله عز وجل «يا أيها الرسول» الآية . . وروى أن اليهود جاءوا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ قالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة ، فأتوا بها فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ مابعدها، قال له عبد الله: ارفع يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا : صدق يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما الرسول فرجما ، قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة . هذا وقد كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها وبقى حكمها . روى البيهقى عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبة له : إن الله بعث محمدا وأنزل عليه كتابا ، وكان فيما أنزل عليه آية الرجم فتلوناها ووعيناها ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم . وسيأتى الكلام عنها فى سورة الأحزاب ، وإن هذه الآية كانت فيها «ومن يرد الله فتنته» أى إضلاله أو فضيحته «فلن تملك» أى لن تستطيع

« له من الله شيئاً » فى دفعها ، وإذا لم تملك أنت وأنت أقرب الخلق إلى الله تعالى فمن يملك ؟ « أولئك » أى البعداء من الهدى « الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » أى من الكفر ، ولو أراده لكان « لهم فى الدنيا خزى » أى ذل بالفضيحة والجزية والخوف من المؤمنين « ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » وهو الخلود فى النار ، والضمير للذين هادوا إن استأنفت بقوله (ومن الذين) وإلا فللفريقين ، وقوله تعالى « سماعون للكذب » كرره للتأكيد « أكالون للسحت » وهو كل ما لا يحل كسبه ، وهو من سحته إذا استأصله ، لأنه مسحوت البركة ، كما قال تعالى : « يمحق الله الربا » والربا باب منه ، وكانوا يأخذون الربا على الأحكام وتحليل الحرام ، وعن الحسن رحمه الله تعالى : كان الحاكم فى بنى إسرائيل إذا أتاه رجل برشوة جعلها فى كمه فأراها إياه وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه ، فيأكل الرشوة وينصر الكذب ، وعنه صلى الله عليه وسلم : كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به « فإن جاءوك » أى لتحكم بينهم « فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » هذا تخيير لرسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا : هل نسخ هذا التخيير أو لا ؟ فقال أكثر أهل العلم : هو محكم ثابت ، وليس فى سورة المائدة منسوخ ، وحكام المسلمين بالخيار فى الحكم بين أهل الكتاب : إن شاءوا حكموا ، وإن شاءوا لم يحكموا بحكم الإسلام ، وهو قول النخعى والشعبى وعطاء وقتادة ، وقال قوم : يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بينهم. والآية منسوخة نسخها قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » وهو قول مجاهد وعكرمة ، وروى ذلك أيضاً عن ابن عباس وقال : لم ينسخ من المائدة إلا آيتان : قوله تعالى « لاتحلوا شعائر الله » نسخها قوله تعالى « اقتلوا المشركين » ، وقوله تعالى « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » نسخها قوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » . ومذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه أن الذميين وإن اختلفت ملتهما كيهودى ونصرانى يجب الحكم بينهما عند الترافع ، وكذا الذمى مع المعاهد بخلاف المعاهدين ؛ فإن الحكم لا يجب بينهما لأنهم لم يلتزموا حكمنا ولا التزمنا دفع بعضهم عن بعض فتحمل التخيير

على هذا ، والآية الأخرى على أهل الذمة « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً» بأن يعادوك لإعراضك عنهم ، فإن الله يعصمك من الناس « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » أى بالعدل الذى أمر الله تعالى به « إن الله يحب » أى يثيب «المقسطين» أى العادلين فى الحكم ، وقوله تعالى «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » استفهام تعجب من تحكيمهم من لا يؤمنون به والحال أن الحكم منصوص عليه فى كتابهم (التوراة) ، « ثم يتولون » أى يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم «من بعد ذلك» التحكيم وهذا داخل فى حكم التعجب وهو معطوف على يحكمونك « وما أولئك » أى البعداء من الله « بالمؤمنين » أى بكتابهم لإعراضهم عنه ؛ وهذه الآية الكريمة هى - كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار فى تفسيره - تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم . وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبى جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به . أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية ، والحال أن عندهم التوراة التى هى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه ، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته لها ؟ أى إذا فكرت فى هذا رأيته من عجيب أمرهم ، وسببه أنهم ليسوا بالمؤمنين إيمانا صحيحاً بالتوراة ولا بك ، وإنما هم ممن جاء فيهم « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » ؛ فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضا أيد به الأول ، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده. وهؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها واتباعها لأنه لم يوافق هواهم ، وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم ، ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم . فماهم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك ، ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن ، وقد يقولون : إنهم مؤمنون ، وقد يظنون أيضا أنهم مؤمنون ، غافلين عن كون الإيمان يقينا فى القلب ، يتبعه الإذعان بالفعل ، ويترجم عنه اللسان بالقول . ولكن اللسان قد يكذب ،

عن علم وعن جهل ، فمن أيقن أذعن ، ومن أذعن عمل ، لأن الإيمان الإذعانى هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة ، والإرادة هى المصرفة للجوارح فى الأعمال. أما حكم الرجم فى التوراة التى بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة . ففى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التثنية ـ بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها ـ : « إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الإثنان ، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة ، فتنزع الشر من إسرائيل ، إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل فى المدينة فاضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ؛ الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، فتنزع الشر من وسطك » ثم ذكر أحكاما أخرى فى الزنا ، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزنى بها .

وقوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى » أى للهداية من الضلال إلى الحق « ونور » أى يكشف ما استبهم من الأحكام . « يحكم بها النبيون » أى من بنى إسرائيل « الذين أسلموا » ذكر هذا الوصف على وجه الصفة للأنبياء ، للتنويه بشأن الصفة دون التخصيص والتمييز ، لأنهم كلهم بهذه الصفة منقادون لله تعالى ، وللتنبيه على عظم قدرها حيث وصف بها عظيم كما وصف الأنبياء بالصلاح والملائكة بالإيمان ، فإن أوصاف الأشراف أشرف الأوصاف ، وقوله تعالى «للذين هادوا» متعلق بأنزل أو بيحكم ، أى يحكمون بها فى تحاكمهم « والربانيون » أى الزهاد الذين انسلخوا من الدنيا وبالغوا فيما يوجب النسبة إلى الرب « والأحبار » أى العلماء السالكون طريقة أنبيائهم ، عطف على (النبيون) « بما » أى بسبب الذى «استحفظوا» أى استودعوه « من كتاب الله » وهو التوراة الذى استحفظهم الله تعالى إياه ، بأن يحفظوه من التضييع والتحريف أو بأن يحفظ فلا ينسى ، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتاب الله من هذين الوجهين معا : أحدهما أن يحفظه فى صدورهم ويدرسونه بألسنتهم ، والثانى أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه « وكانوا عليه شهداء » أى

رقباء حاضرين لا يغيبون عنه ولا يتركون مراعاته أصلا « فلا تخشوا الناس واخشونِ » نهى للحكام أن يخشوا غير الله تعالى فى حكوماتهم خوفا من سلطان ظالم أو خيفة من إيذاء أحد « ولا تشتروا » أى تستبدلوا « بآياتى » أى بأحكامى التى نزلتها « ثمنا قليلا » أى من الرشوة وغيرها ، لتكتموها وتبدلوها كما فعل أهل الكتاب ، وقوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال عكرمة معناه : ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له فقد كفر ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق ، وقال الضحاك وقتادة : نزلت هذه الآيات الثلاث فى اليهود ، وقيل : إن « أولئك هم الكافرون » نزلت فى المسلمين لاتصالها بخطابهم ، والظالمون فى اليهود ، والفاسقون فى النصارى « وكتبنا » أى فرضنا « عليهم » أى اليهود « فيها » أى التوراة « أن النفس » إذا قتلتها « بالنفس » إذا قتلتها « والعين » تفقأ « بالعين » أى بعين من فقأها « والأنف » تجدع « بالأنف » أى بأنف من جدعه « والأذن » تقطع « بالأذن » أى بأذن من قطعها « والسن » تقلع « بالسن » أى بسن من قلعها « والجروح قصاص » أى يقتص فيها إذا أمكن ، كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك ، ومالا يمكن فيه القصاص فيه الحكومة ، وهذا الحكم وإن كتب عليهم فهو مفروض فى شرعنا . . « فمن تصدق به » أى القصاص بأن مكن من نفسه « فهو » أى التصدق بالقصاص « كفارة له » أى لما أتاه فلا يعاقب ثانيا فى الآخرة ، وقيل : فمن تصدق به من أصحاب الحق فالتصدق به كفارة للمتصدق ، يكفر الله من سيئاته ما يقتضيه الموازنة كسائر الطاعات ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به ، وقيل : فهو كفارة للجانى ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه « ومن لم يحكم بما أنزل الله » أى فى القصاص وغيره « فأولئك هم الظالمون » أى الذين تركوا العدل فضلوا ، فصاروا كمن يمشى فى الظلام ..

ومعنى الكفر والظلم والفسق هنا هو ما يقوله الشيخ رشيد رضا ، من أنها كلمات تتوارد فى القرآن على حقيقة واحدة وترد بمعانى مختلفة ، وقد اصطلح

علماء الأصول والفروع على التعبير بلفظ الكفر عن الخروج من الملة وما ينافى دين الله الحق . دون لفظى الظلم والفسق . ولا يسع أحدا منهم إنكار إطلاق القرآن لفظ الكفر على ما ليس كفرا فى عرفهم ، ولكنهم يقولون (كفر دون كفر) ولا إطلاقه لفظى الظلم والفسق على ما هو كفر فى عرفهم ؛ وما كل ظلم أو فسق يعد كفرا عندهم، بل لا يطلقون لفظ الكفر على شيء مما يسمونه ظلما أو فسقا ؛ لأجل هذا كان الحكم القاطع بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله محلا للبحث والتأويل عند من يوفق بين عرفه ونصوص القرآن . وإذا رجعنا إلى المأثور فى تفسير الآيات نراهم نقلوا عن ابن عباس أقوالا منها قوله : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ؛ ومنها أن الآيات الثلاث فى اليهود خاصة ليس فى أهل الإسلام منها الشيء . وروى عن الشعبي أن الأولى والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى . وهذا هو الظاهر ، ولكنه لا ينفى أن ينال هذا الوعيد كل من كان منا مثلهم وأعرض عن كتابه إعراضهم عن كتبهم ، والقرآن عبرة يعبر به العقل من فهم الشيء إلى مثله ، وعن سعيد بن جبير عن قوله تعالى : « ومن لم يحكم . . ومن لم يحكم ... ومن لم يحكم ... قال فقلت : زعم قوم أنها نزلت على بنى إسرائيل ولم تنزل علينا . قال اقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقرأت فقال : لا ، بل نزلت علينا . والمراد أن عدم الحكم بما أنزل الله أو تركه إلى غيره — وهو المراد — لا يعد كفرا بمعنى الخروج من الدين ، بل بمعنى أكبر المعاصى . وإذا تأملت الآيات أدنى تأمل تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر فى الأولى وبوصف الظلم فى الثانية ، ثم بوصف الفسوق فى الآية الثالثة الآتية ، فالألفاظ وردت بمعانيها فى أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء . ففى الآية الأولى كان الكلام فى التشريع وإنزال الكتاب مشتملا على الهدى والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء العمل والحكم به والوصية بحفظه . وختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له ، رغبة من هدايته ونوره ، مؤثرا لغيره عليه ، فهو الكافر به . وهذا واضح لا يدخل فيه من

لم يتفق له الحكم به أو من ترك الحكم عن جهالة ثم تاب إلى الله . وهذا هو العاصى بترك الحكم الذى يتحامى أهل السنة القول بتكفيره ، والسياق يدل على ما ذكرنا من التعليل . وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها فى أصل الكتاب الذى هو ركن الإيمان وترجمان الدين ، بل فى عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء بالعدل والمساواة : فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم فى حكمه كما هو ظاهر ، وأما الآية الثالثة فهى فى بيان هداية الإنجيل ، وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة على الوجه الذى يطابق مراد الشارع وحكمته ، لا بحسب ظواهر الألفاظ فقط ، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية والخروج من محيط تأديب الشريعة . وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والأحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم ، وتركوا بالحكم بها بعض ما أنزل الله عليهم . فالذين يتركون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام من غير تأويل يعتقدون صحته . فإنه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى فى الآيات الثلاث أو فى بعضها ، كل بحسب حاله . فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم إن كان فى ذلك إضاعة الحق أو ترك العدل والمساواة فيه ، وإلا فهو فاسق فقط . إذ لفظ الفسق أعم هذه الألفاظ ، فكل كافر وكل ظالم فاسق ، ولا عكس ، وحكم الله العام المطلق الشامل لما ورد فيه النص ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال هو العدل ، فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله .

٤٦ — وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

٤٧ — وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ

هاتان الآيتان الكريمتان فى شأن النصارى ، وأن رسالة عيسى جاءت نهاية لرسالة موسى عليهما السلام ، ومتممة لها ، وأن الإنجيل متمم للتوراة ، والحكمة ما جمع العهد الجديد والقديم فى مجموعة واحدة ، وقد أمر النصارى بالعمل بالإنجيل والحكم به قبل أن تنزل شريعة الإسلام على محمد صلى الله عليه وسلم . «وقفينا على آثارهم» أى أتبعنا على آثار النبيين الذين يحكمون بالتوراة «بعيسى ابن مريم» عليه السلام ، ونسبه الله تعالى إلى أمه إشارة إلى أنه لا والد له تكذيبا لليهود وتكذيبا للنصارى ، وهم جميعا قد غلوا فى أمره : بين منتقص له ، وما بين معتقد ألوهيته «مصدقا لما بين يديه» أى قبله مما أتى به موسى عليه السلام «من التوراة» وأشار تعالى بقوله «وآتيناه الإنجيل» أى أنزلناه عليه كما أنزلنا التوراة على موسى عليهما السلام ـ إلى أنه ناسخ لكثير من أحكام التوراة «فيه هدى» من الضلالة «ونور» أى بيان للأحكام . وقوله تعالى «ومصدقا» أى الإنجيل حال «لما بين يديه» أى قبله ، ولما كان الذى نزل قبله كثير ، بين المراد بقوله «من التوراة» أى لما فيها من الأحكام ، فالأول صفة لعيسى عليه السلام ، والثانى صفة لكتابه ، أى فهو والتوراة والإنجيل يتصادقون . فكل من الكتاب يصدق الآخر وهو يصدقهما ، لم يتخالفوا فى شىء «وهدى وموعظة للمتقين» أى كل ما فيه يهتدون به ويتعظون ، فترق قلوبهم ويعتبرون به «وليحكم أهل الإنجيل» وهم أتباع عيسى عليه السلام «بما أنزل الله فيه» أى من الأحكام ، أى فليفته أهل التوراة عما نسخ منها وليحكم أهل الإنجيل ـ إلى آخره «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» أى المختصون بكمال الفسق ، فإن كان تدينا كان كفرا وإن كان لاتباع الشهوات كان مجرد معصية ؛ لأن الحظوظ والشهوات تحمل على الخروج من دائرة الشرع مرة بعد أخرى .

وهكذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره رسالة موسى وكتابه «التوراة» يذكر رسالة عيسى ونزول الإنجيل عليه ، وأن النصارى كلفوا العمل بالإنجيل

قبل أن ينزل القرآن من السماء خاتما للرسالات وللكتب السماوية .

٤٨ — وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

٤٩ — وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ .

٥٠ — أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث يذكر الله عز وجل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد رسالة موسى وعيسى ، ونزول القرآن عليه خاتما للرسالات السماء ، وفاصلا بين الحق والضلال والهدى والكفر ، فقوله تعالى فى الآية الأولى : « وأنزلنا إليك » أى يامحمد خاصة « الكتاب » أى الكامل فى جمعه لكل مايطلب منه وهو القرآن الكريم . وقوله تعالى « بالحق » متعلق بأنزلنا « مصدقا لما بين يديه » أى قبله ، ولما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشىء الواحد ، عبر الله تعالى بالمفرد فقال « من الكتاب » أى الكتب المنزلة التى جاء بها الأنبياء من قبل .

وقوله تعالى : « ومهيمنا عليه » يعنى أمينا عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب . وقيل : يعنى مؤتمنا عليه . وفى رواية أخرى قال : شهيداً على كل كتاب قبله . والمهيمن من أسماء الله تعالى ومعناه : القائم على خلقه ؛ وفى المهيمن خمسة أقوال ـ قال ابن عباس : المهيمن المؤتمن . وقال الكسائى : المهيمن الشهيد . وقال غيره : هو الرقيب : يقال : هيمن يهيمن هيمنة إذا كان رقيبا على الشىء . وقيل : وقائما على الكتب ، وهكذا نجد أن المهيمن على الشىء هو من يقوم بشؤونه ويكون له حق مراقبته والحكم فى أمره بحق ، كما وصف بذلك أبو بكر فى قيامه بأعباء خلافة الرسول عليه الصلاة والسلام والقيام بالأمر يستلزم المراقبة والإئتمان والشهادة عليه . وحسبهم أنه قال فى هذه السورة نفسها ، فى كل من أهل التوراة والإنجيل ـ أنهم : نسوا حظا مما ذكروا به . كما قال فى سورة النساء قبلها أنهم : أوتوا نصيبا من الكتاب . وقال فيهما جميعاً : إنهم كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ـ وقال النبى عليه السلام : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا .. » الآية . رواه البخارى فى صحيحه ، وذكر أن سببه أنه كان بعض أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها لبعض المسلمين بالعربية ، فنهاهم النبى عليه السلام عن الاستماع إليهم وقبول كلامهم ، وعن جابر قال : نسخ عمر كتابا من التوراة بالعربية ، فجاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ ـ ووجه النبى عليه السلام يتغير ـ فقال له رجل من الأنصار : ويحك يا ابن الخطاب ، ألا ترى وجه رسول الله ؟ فقال رسول الله عليه السلام : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى » ، وورد فى هذا المعنى أحاديث أخرى ضعيفة . والمراد من النهى عن سؤالهم النهى عن سؤال الاهتداء ، وتلقى ما يرونه بالقبول ، لأجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الأنبياء ، لزيادة العلم أو لتفصيل بعض ما أجمله القرآن وسببه ما هو ظاهر من السياق ، وهو أنهم لنسيانهم بعض ما أنزل إليهم وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة

برواياتهم ، فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل ، والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق ، إذ لا يتيسر لنا أن نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وغيره ، فالاحتياط أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . إلا إذا رووا شيئاً يصدقه القرآن أو يكذبه ، فإنا نصدق ما صدقه ، ونكذب ما كذبه ، لأنه مهيمن على تلك الكتب وشهيد عليها ، وشهادته حق ، لأنه نزل بالحق ، وحفظه الله من التحريف والتبديل ، بتوفيق المسلمين لحفظه فى الصدور والسطور ، من زمن النبى عليه السلام إلى اليوم ، وسيحفظه كذلك إلى آخر الزمان « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ولا يعارض هذا قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر » لأن ذلك ورد فى السؤال عن أمر متواتر قطعى وهو أن الرسل كانوا رجالا يوحى إليهم .

فمعنى قوله تعالى « مهيمنا عليه » أى رقيبا على سائر الكتب « فاحكم بينهم » أى بين جميع أهل الكتب إذا ترافعوا إليك « بما أنزل الله » إليك فى هذا الكتاب الناسخ لكتبهم المهيمن عليها فى إثبات ما أسقطوه منها من أمرهم باتباعك ونحو ذلك من أوصافك ، وكثير من الأحكام التى اشتملت عليها التوراة والإنجيل قد بينها القرآن الكريم « ولا تتبع أهواءهم » فيما خالفه عادلا « عما جاءك من الحق » بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه « لكل جعلنا منكم » أيها الأمم « شرعة » أى دينا موصلا إلى الحياة الأبدية . والشرعة هى الطريقة إلى الماء يشبه بها الدين لأنه موصلة إلى الماء الذى به الحياة الدنيوية « ومنهاجاً » أى طريقا واضحا فى الدين ناسخا لما قبله ، وقد جعلنا شرعتك ناسخة لجميع الشرائع وأمثاله ، مما يدل على أنا كنا متعبدين بالشرائع المتقدمة وإن كل رسول غير متعبد بشرع من قبله ، وهو محمول على الفروع ، وما دل على الاجتماع كآية « شرع لكم من الدين » محمول على الأصول « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » أى جماعة أى متفقة على دين واحد فى جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل ، وهذا ما لم يحدث « ولكن » أى لم يشأ ذلك بل شاء أن تكونوا على شرائع مختلفة « ليبلوكم » أى ليختبركم « فيما آتاكم » من

الشرائع المختلفة، ليبرز إلى الوجود المطيع منكم والعاصى « فاستبقوا الخيرات » أى ابتدروا إليها بغاية الجهد ، فعل من يسابق شخصا يخشى أن يسبقه، وقوله تعالى : « إلى الله مرجعكم جميعا » أى بالبعث استئناف فيه تعليل للأمر بالاستباق ، ووعد للمبادرين ووعيد للمقصرين « فينبئكم » أى يخبركم « بما كنتم فيه تختلفون » أى من أمر الدين ويجزى كلا منكم بعمله .

ومعنى قوله تعالى « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » ، أى بأن يرتقى الله عز وجل بالإنسان فى جميع أطوار الحياة بالتدريج وعلى سنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل طور من أطوار حياته ، فى جميع أقوامه وجماعاته ، وآتاكم من الشرائع والمناهج فى الفهم والهداية فى طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه مايصلح له — وفى طور تمييزه وغلبة الوجدانات النفسية عليه مايصلح له — حتى إذا مابلغ النوع سن الرشد ومستوى استقلال العقل بظهور ذلك فى بعض الأقوام بالقوة وفى بعضها بالفعل ، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنية على أصل الاجتهاد ، وجعل أمره فى القضاء والسياسة والاجتماع شورى بين أولى الأمر ، من أهل المكانة والعلم والرأى — « ليبلوكم » أى ليعاملكم بذلك معاملة المختبر لاستعدادكم « فيما آتاكم » أى أعطاكم من الشرائع والمناهج ، فتظهر حكمته فى تمييزكم على غيركم من أنواع الخلق فى أرضكم . واليهودية شريعة مبنية على الشدة فى تربية قوم ألفوا العبودية والذل ، وفقدوا الاستقلال فى الإرادة والرأى ، فهى مادية جسدية شديدة ، ليس لأهلها فيها رأى ولا اجتهاد ، فالقائم بتنفيذها كالمربى للطفل العارم الشكس : والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهى تأمر أهلها بأن يسلبوا أمورهم الجسدية والاجتماعية للمتغلبين من أهل السلطة والحكم . مهما كانوا عليه من الفساد والظلم ، وأن يتقبلوا كل مايسامون به من الخسف والذل ، ويجعلوا عنايتهم كلها بالأمور الروحية ، وتربية العواطف والوجدانات النفسية ؛ فهى تربية للنوع فى طور التمييز عندما كان كالغلام اليافع الذى تؤثر فى نفسه

الخطابيات والشعريات . وأما الإسلامية فهى القائمة على أساس العقل والاستقلال ، المحققة لمعنى الإنسانية بالجمع بين مصالح الروح والجسد ، وبهذا يصدق عليها قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ، وقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ؛ فهى مبنية على أساس الاستقلال البشرى اللائق بسن الرشد ، وطور ارتقاء العقل ، ولذلك كانت الأحكام الدنيوية فى كتابها قليلة ، وفرض فيها الاجتهاد لأن الراشد يفوض إليه أمر نفسه ؛ فلا يقيد إلا بما يمكن أن يعقله من الأصول القطعية ، ومن مقومات أمته الملية ، التى لاتختلف باختلاف الزمان والمكان : وبهذا تعلم أن حجة الله تعالى بإكمال الله الدين بالقرآن ، وختمه النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجعل شريعته عامة دائمة ، لاتظهر إلا ببناء هذا الدين على أساس العقل ، وبناء هذه الشريعة على أساس الاجتهاد وطاعة أولى الأمر ، الذين هم جماعة أهل الحل والعقد . فمن منع الاجتهاد فقد منع حجة الله تعالى وأبطل مزية هذه الشريعة على غيرها ، وجعلها غير صالحة لكل الناس فى كل زمان ، فما أشد جناية هؤلاء الجهال على الإسلام ، على أنهم يسمون أنفسهم علماء الإسلام .

هذا والشرعة والشريعة فى اللغة الطريق إلى الماء ، أو مورد الماء من النهر ونحوه ، وهى من الشروع فى الشىء . قال ابن جرير : وكل ماشرعت فيه من شىء فهو شريعة ، ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة ، لأنه يشرع منها إلى الماء ، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع لشروع أهله فيه ، ومنه قيل للقوم إذا تساووا فى الشىء : هم شرع : أى سواء . وأما المنهاج ، فإن أصله الطريق البين الواضح ، يقال منه : هو طريق نهج ومنهج بين .

وقال بعضهم : سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة روى وتطهر ، والمراد : الرى المعنوى وطهارة النفس وتزكيتها ، وقد جعل الله الماء سبب حياة كل شىء ، وسبب الحياة الروحية والإنسانية ، وعن قتادة فى قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

يقول: سبيلاوسنة . والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة ، وللإنجيل شريعة ، وللقرآن شريعة ؛ يحل الله فيها ما يشاء ويحرم مايشاء ؛ كى يعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ، ولكن الدين الواحد الذى لايقبل غيره التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل . وفى رواية عنه : الدين واحد والشريعة مختلفة . وروى ابن جرير من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال فى تفسير « شرعة ومنهاجا » سنة وسبيلا . وظاهر من قول قتادة - كما يقول صاحب المنار - أن الشريعة أخص من الدين إن لم تكن مباينة له ، وأنها الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل ، وينسخ لاحقها سابقها ، وأن الدين هو الأصول الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأنبياء . وهذا يوافق أو يقارب عرف الأمم حتى اليوم ، لايطلقون اسم الشريعة إلا على الأحكام العملية ، بل يخصونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام ، دون ما يدان الله تعالى به من أحكام الحلال والحرام . والمشهور فى عرف فقهائنا وعامتنا أن الدين والشرع أو الشريعة بمعنى واحد . ولكن مع ذلك ترى استعمال : علم الشرع ، وعلماء الشريعة ، وكتب الشريعة ، ألصق بالفقه وكتبه وعلمائه منها بعلم العقائد والأخلاق وعلمائها وكتبها . وتجد الفقهاء يقولون : يجوز هذا ديانة لاقضاء ، ونحو ذلك . وتحرير القول أن الشريعة اسم للأحكام العملية وأنها أخص من كلمة الدين ، وإنما تدخل فى مسمى الدين من حيث إن العامل بها يدين الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه مبتغيا مرضاته وثوابه بإذنه ؛ إن دين الله على لسان رسله وأنبيائه واحد فى أصوله ومقاصده ، وهى توحيد الله وتنزيهه وإثبات صفات الكمال له ، والإخلاص له فى الأعمال ، والإيمان بالله واليوم الآخر ، والاستعداد له بالعمل الصالح . وأما الشرائع فهى مختلفة اختلاف القوانين اللازمة لكل أمة فى مختلف عصورها .

وقوله تعالى « وأن احكم بينهم » أى بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهو معطوف على قوله تعالى « الكتاب » أى أنزلنا إليك

الكتاب والحكم ، أو على الحق ، أى أنزلناه بالحق والحكم ، أو على ما سبق من قوله تعالى « فاحكم بينهم » . ومعنى الحكم بينهم إلزامهم بشريعة الإسلام التى نسخت شرائعهم ، وبالقرآن الذى هو كتاب الإنسانية عامة ، « ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن » أى لئلا « يفتنوك » أى يضلوك ويصرفوك « عن بعض ما أنزل الله إليك » روى أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا : يا محمد ، قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم ، فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت « فإن تولوا » أى عن الحكم المنزل وأرادوا غيره « فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم » أى العقوبة فى الدنيا « ببعض ذنوبهم » أى التى أتوها ، ومنها إعراضهم عن التوراة والقرآن ، ويجازيهم على جميعها فى الآخرة « وإن كثيراً من الناس » أى هم وغيرهم «لفاسقون» أى خارجون عن الطاعة والإيمان « أفحكم الجاهلية » أى خاصة ، مع أن أحكامها لا يرضى بها عاقل لكونها لم يدع إليها كتاب بل هى مجرد أهواء ، وهم أهل الكتاب « يبغون » أى يريدون بإعراضهم عن حكمك مع مادعا إليه كتابهم من اتباعك ، وشهد كتابك المعجز عن معارضته من وجوب تبليغ رسالتك إلى جميع الخلائق ، وهذا استفهام إنكارى ، وقيل : نزلت فى بنى قريظة والنضير ، طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما كان حكم به الجاهلية من التفاضل بين القتلى ، أى بين ديات بعضهم على بعض « ومن » أى لا أحد « أحسن من الله حكما لقوم » أى عند قوم « يوقنون » به خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم ، فيعلمون أن لا أحسن حكما من الله جل وعلا .

وبهذا ينتهى الربع السادس من هذا الجزء الكريم ، وهو خاص بذكر رسالات السماء : رسالة موسى ، ثم رسالة عيسى ، ثم رسالة محمد صلوات الله عليه ، وأن رسالة محمد هى المهيمنة على جميع رسائل السماء ، وهى خاتمتها كذلك ، وهى شريعة الإنسانية كلها ؛ وقد تضمن هذا الربع كذلك كثيرا من ماضى اليهود

والنصارى ، وموقفهم حيال كتبهم المقدسة التي كفروا بها ، وأعرضوا عنها ، وصدوا صدودا بعيدا .

٥١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ .

٥٢ — فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ .

٥٣ — وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَٰسِرِينَ .

٥٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ .

٥٥ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ .

٥٦ — وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ .

٥٧ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا

وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

٥٨ — وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ .

فى هذه الآيات الثمان الكريمة نهى الله عز وجل المسلمين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء يستعينون بهم على محاربة الإسلام والمسلمين ؛ وأمثلة ذلك كثيرة فى تاريخ الإسلام حتى اليوم : أن يستعين بعض المسلمين بالدول المسيحية أو باليهود لمحاربة المسلمين . . ولا تزال اليوم دول إسلامية عديدة تستعين بالاستعمار الغربى أو بأمريكا أو بالصهيونيين على محاربة دول إسلامية أخرى ، وهنا ينهى القرآن الكريم المسلمين عن هذه الجريمة الشنعاء ، ويوبخ المنافقين ودعاة الطابور الخامس فى صفوف المسلمين من أعداء الإسلام والمسلمين على مسارعتهم لصداقة النصارى واليهود ، ويصف القرآن الكريم عجب المؤمنين من صنيع المنافقين ، كما يصف هذا العمل الإجرامى بوصفه الحقيق ويعده ردة عن الدين ، وينبه القرآن المؤمنين إلى أنهم يجب أن لا يعتزوا بولاية غير الله ورسوله والمؤمنين بدينهم ، دين الإسلام الحنيف ، لأن ذلك هو الوسيلة الطبيعية للفوز والغلبة والنصر ولسحق الأعداء ؛ ثم يكرر الله عز وجل فى ختام هذه الآيات النهى عن اتخاذ أهل الكتاب من يهود ونصارى أعوانا لهم على محاربة الإسلام والمسلمين ، وخاصة أن شأنهم ظاهر واضح فى محاربة دين الله وفى محاربة الفكرة الإسلامية ، وفى الاستهزاء بالإسلام وشرائع الإسلام الكريم . ويجعل المتأخرون من المفسرين — كالزمخشرى والبيضاوى ومن تابعهما — الولاية بمعنى المودة وحسن المعاملة واستخدام المخالفين من أهل الكتاب . واستدلوا على ذلك بحديث «لا تتراءى ناراهما» ، بأمر عمر لأبى موسى الأشعرى بعزل كاتبه النصرانى . وقد حاول المتقدمون جعل النهى خاصاً بمن نزل فيهم من جعلوا الولاية ولاية النصرة .

ويقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى . « والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله . وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فإنه منهم فى التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين . وإن الله ورسوله منه بريئان . وقد يجوز أن تكون الآية نزلت فى شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبى بن سلول وحلفائهما من اليهود . ويجوز أن تكون نزلت فى أبى لبابة بسبب فعله فى بنى قريظة . ويجوز أن تكون فى شأن الرجلين اللذين ذكر السدى أن أحدهما أراد اللحاق بذلك اليهودى والآخر بنصرانى بالشام ، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجته ، فيسلم لصحته القول بأنه كما قيل . فإذا كان ذلك كذلك فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ماعم . ويجوز ماقاله أهل التأويل فيه من القول الذى لاعلم عندنا بخلافه ، غير أنه لاشك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر ؛ لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك » . وقال البيضاوى فى تفسير النهى عن اتخاذهم أولياء : فلاتعتمدوا عليهم ، ولاتعاشروهم معاشرة الأحباب . « بعضهم أولياء بعض » . إيماء إلى علة النهى ، أى فإنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم فى الدين واجتماعهم على مضادتكم « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أى ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم . وهذا التشديد فى وجوب مجانبتهم كما قال الرسول « لا تتراءى ناراهما » أولأن الموالين لهم كانوا منافقين ؛ فنجد البيضاوى يخص الولاية بمعاشرة المحبة والاعتماد على الأشخاص فى الأمور . وهو — كما يقول صاحب تفسير المنار خطأ تتبرأ منه لغة الآية فى مفرداتها وسياقها ، كما يتبرأ منه سبب النزول ، والحالة العامة التى كان عليها المسلمون والكتابيون فى عصر التنزيل كما علم مما تقدم . وسبب وقوع البيضاوى فى مثل هذا الغلط اعتماده على مثل الكشاف فى فهم الآيات دون الرجوع إلى تفاسير السلف ، على أن صاحب الكشاف أرسخ منه فى اللغة قدما . وأدق فهما وذوقا ، ولذلك بدأ تفسير الولاية بقوله « تنصرونهم وتستنصرونهم » وهو المعنى الصحيح ،

وعطف عليه ولاية الأخوة والمودة . فأخذ البيضاوى المعنى الثانى بعبارة تستحق من النقد مالا تستحقه عبارة الزمخشرى . وأخطأ كل منهما فى إيراد حديث « لاتتراءى ناراهما » فى هذا المقام . وكل منهما قليل البضاعة فى علم الحديث؛ فالحديث ورد فى وجوب الهجرة من أرض المشركين إلى النبى لنصرته، رواه أهل السنن ـ أما أبو داود فرواه من حديث جرير بن عبد الله ، وذكر أن جماعة لم يذكروا جريراً أى رووه مرسلا . وهو الذى اقتصر عليه النسائى وأخرجه الترمذى مرسلا وقال : وهذا أصح . ونقل عن البخارى تصحيح المرسل ؛ ولكنه لم يخرجه فى صحيحه ولاهو على شرطه . والاحتجاج بالمرسل فيه الخلاف المشهور فى علم الأصول . ولفظ الحديث : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم . فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف الدية ، وقال « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ـ قالوا : يارسول الله لم ؟ قال : لاتتراءى ناراهما» فجعل لهم نصف الدية وهم مسلمون، لأنهم أعانوا على أنفسهم وأسقطوا نصف حقهم بإقامتهم بين المشركين المحاربين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وشدد فى مثل هذه الإقامة التى يترتب عليها مثل ذلك من القعود عن نصر الله ورسوله . والله تعالى يقول فى أمثال هؤلاء : « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فنفى تعالى ولاية المسلمين غير المهاجرين إذ كانت الهجرة واجبة . فلأن ينفى ولاية اليهود والنصارى ـ وقد كانوا محاربين أيضا ـ أولى ؛ فذكر هذا الحديث فى تفسير هذه الآية لايصح وضعه فى الموضع الذى وضعه فيه الزمخشرى والبيضاوى ، وإنما يناسبه ما قلنا آنفا ، فهو لا يدل ـ إذا صح الاحتجاج به ـ على ما ذكر من عدم معاشرة الكتابى والإقامة معه وإن كان ذا ذمة أو عهد ، لاخوف من الإقامة معه ولا خطر . وقد كان اليهود يقيمون مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع الصحابة فى المدينة ، وكانوا يعاملونهم بالمساواة التامة . حتى إن عليا لما تحاكم

مع يهودى إلى عمر ، وخاطبه عمر أمام خصمه اليهودى بالكنية قائلا : « يا أبا الحسن » ، غضب وعاتب عمر أنه عظمه أمام خصمه ، وعمر لم يقصد تمييزه على خصمه وإنما جرى لسانه بذلك لتعوده تكريم على بمخاطبته بالكنية . على أن الحديث ورد فى المشركين لا فى أهل الكتاب ، وقد فرق الشرع بينهما .

ويقول صاحب تفسير المنار : إن النبى وادع اليهود حين قدم المدينة وأقرهم على دينهم وأموالهم . وأثبت ذلك فى الكتاب الذى كتبه فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وحقوق القبائل والبطون . ومما جاء فى ذلك الكتاب : « وإنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » ، ومنه فى حقوق الحلف والولاء فى الحرب : « وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم ، مواليهم ، وأنفسهم ، إلا من ظلم أو أثم . وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف » ، ثم أعطى مثل ما لبنى عوف ليهود بنى الحارث وساعدة وجشم والأوس وثعلبة ، ومنهم جفنة ، والشطنة . قال ابن القيم فى الهدى النبوى : « ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم ـ على كفرهم ـ آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه . بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ؛ ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون . فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى . فصالح يهود المدينة وكتب بينهم وبينه كتاب أمن . وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر . وأظهروا البغى والحسد ، ثم نقض العهد بنو النضير . قال البخارى :

وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر، وبين الله كيف تآمروا على قتل النبي ؛ فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » ، وكانت قريظة أشد عداوة للنبي ، حتى إنهم نقضوا صلحه لما خرج إلى غزوة الخندق . وبين كيف حارب كل طائفة وأظهره الله عليها . فهذا هو السبب العام فى النهى عن موالاة أهل الكتاب فى هذه الآيات ، وكان نصارى العرب حربا عليه كاليهود . ويقول المفسرون : إن الآيات نزلت لما حاربت بنو قينقاع رسول الله وتشبث بأمرهم عبد الله ابن أبى بن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل ما كان لعبد الله بن أبى ، فخلعهم إلى رسول الله وقال « أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » قال : وفيه وفى عبد الله نزلت الآيات فى المائدة « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » إلى آخره ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إن لى موالى من اليهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ؛ فقال عبدالله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى . فقال رسول الله لعبد الله بن أبى « يا أبا الحباب ! أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : إذن أقبل . فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى .. » وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية أنها نزلت فى بنى قريظة ، إذ غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله فى كتابهم إلى أبى سفيان بن حرب يدعونه وقريشا ليدخلوهم حصونهم ؛ فبعث النبى أبا لبابة بن عبد المنذر اليهم يستنزلهم من حصونهم ، فلما أطاعوا له بالنزول أشار إلى حلقه بالذبح . وفيها أن بعض المسلمين كانوا يكاتبون النصارى بالشام ، وأن بعضهم كان يكاتب يهود المدينة بأخبار النبى ،

يمتون اليهم لينتفعوا بمالهم ولو بالقرض، فنهوا عن ذلك . وروى ابن جرير أن بعضهم قال ـ لما خافوا أن يدال للمشركين يوم أحد ـ إنه يلحق بفلان اليهودى فيتهود معه . وقال آخر: إنه يلحق بفلان النصرانى فيتنصر معه ، وأن الآية نزلت فى ذلك . وكان هؤلاء من المنافقين .

وقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء » أى توالونهم وتوادونهم وتعاشرونهم معاشرة الأحباب ، « بعضهم أولياء بعض » فيه إيماء إلى علة النهى ، أى فإنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضا لاتحادهم فى الدين وإجماعهم على مضارتكم « ومن يتولهم منكم » أى ومن والاهم منكم « فإنه منهم » أى من جملتهم « إن الله لايهدى القوم الظالمين » أى الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار ، ومن لم يرد الله هدايته لم يقدر أحد أن يهديه لنبيه .. هذا وقد اختلف فى سبب نزل هذه الآية ـ كما سبق الإشارة إليه ـ فقال قوم : نزلت فى عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول المنافق ، وذلك أنهما اختصما ، فقال عبادة : إن لى أولياء من اليهود كثير عددهم شديد شوكتهم ؛ وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من موالاتهم ولا مولى إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله : لكنى لاأبرأ من ولاية اليهود ، لأنى أخاف الدوائر ولا بد لى منهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال السدى : ولما كانت وقعة أحد اشتدت على طائفة من الناس وتخوفوا أن تصبح الشوكة للكفار ، فقال رجل من المسلمين : أنا ألحق بفلان اليهودى آخذ منه أمانا ، إنى أخاف أن تدال علينا لليهود ، وقال الآخر : أما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال عكرمة : نزلت فى أبى لبابة بن المنذر ، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم ، فاستشاروه فى النزول وقالوا : ماذا يفعل بنا إذا نزلنا ، فجعل أصبعه على حلقه ، يعنى الذبح ، أى يقتلكم، فنزلت « فترى الذين فى قلوبهم مرض » أى ضعف اعتقاد كعبد الله بن أبى « يسارعون فيهم » أى فى موالاتهم « يقولون » معتذرين عنها « نخشى » أى نخاف خوفا شديداً « أن تصيبنا دائرة » أى مصيبة تحيط بنا ويدور بها الدهر علينا من جذب

أو غلبة ، ولا يتم أمر محمد فلا يميرونا « فعسى الله أن يأتى بالفتح » أى بإظهار الدين على الأعداء « أو أمر من عنده » أى بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم فيصبحوا » أى هؤلاء المنافقون «على ما أسروا فى أنفسهم» أى على مااستبطنوه من الكفر والشك فى أمر الرسول فضلا عما أظهروه مما أشعر به نفاقهم « نادمين » أى ثابت لهم غاية الندم فى الصباح وغيره ، وقوله تعالى « ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم » أى غاية اجتهادهم فيها « إنهم لمعكم » فى الدين ، أى يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال المنافقين وتبجحا بما منّ الله تعالى عليهم من الإخلاص ، إذ يقولون لليهود: إن المنافقين حلفوا لهم بالمعاونة ، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : وإن قوتلتم لننصرنكم. « حبطت» أى بطلت «أعمالهم»أى الصالحة «فأصبحوا» أى فصاروا «خاسرين» الدنيا بالفضيحة والآخرة بالعقاب « ياأيها الذين آمنوا » أى أقروا بالإيمان « من يرتد » أى يرجع « منكم عن دينه » إلى الكفر . قيل : إن هذا من الأحداث التى أخبر الله تعالى عنها فى القرآن قبل وقوعها ، على مايذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه الآية منفصلة عما قبلها وبعدها ، وكان أهل الردة إحدى عشرة فرقة : ثلاث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأولى: بنو مدلج. وكان رئيسهم ذو الحمار[1] ، كان له حمار يقول له : قف فيقف وسر فيسير ، والعنسى منسوب الى عنس[2] وهو يزيد بن مذحج بن أدد بن كعب العنسى ، ويلقب بالأسود . وكان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلادها وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه وإلى سادات اليمن ، وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم والنهوض الى حرب الأسود ، فقتله فيروز الديلمى على فراشه ، قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : وأتى الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء الليلة التى قتل فيها ، فقال رسول الله صلى الله

---

(١) بالحاء والخاء .   (٢) بفتح فسكون .

عليه وسلم : قتل الأسود البارحة ، قتله رجل مبارك ، قيل : ومن هو ؟ قال : فيروز ، فسر المسلمون ، فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهلاك الأسود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الأول ، وكان ذلك أول فتح جاء إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

والفرقة الثانية : بنو حنيفة باليمامة، ورئيسهم مسيلمة الكذاب، وكان تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة عشر ، وزعم أنه اشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النبوة ، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد؛ فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك ، وبعثه إليه مع رجلين من أصحابه ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما ، ثم أجاب : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى ، فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فى جيش كبير حتى أهلكه الله تعالى على يد وحشى غلام مطعم بن عدى ، الذى قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حرب شديدة ، وكان وحشى يقول : قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام ، أراد : فى جاهليتى وإسلامى .

والفرقة الثالثة : بنو أسد، ورئيسهم فى الجاهلية طليحة بن خويلد، وكان طليحة آخر من ارتد وادعى النبوة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الردة ؛ فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه، فهزمهم خالد ابن الوليد رضى الله عنه بعد قتال شديد ، وأفلت طليحة ، فمر على وجهه هاربا نحو الشام ، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وممن ارتد فى عهد أبى بكر سبع قبائل : الأولى فزارة قوم عيينة بن محصن، والثانية غطفان قوم قره بن سلمة ، والثالثة بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل،

والرابعة بنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، والخامسة بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها مسيلمة ، والسادسة كندة قوم الأشعث ابن قيس ، والسابعة بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد ، وكفى الله تعالى المؤمنين أمرهم على يد أبي بكر رضى الله تعالى عنه .

وارتد على عهد عمر رضى الله عنه قبيلة واحدة ، وهى غسان قوم جبلة بن الأيهم تنصر وسار إلى الشام ، والجمهور على أنه مات على ردته ، وذكرت طائفة أنه عاد إلى الإسلام ، واختلف فى قوله تعالى « فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه » قال قتادة : لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم قوم هذا ، وأشار إلى أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وعن قتادة ، كما روى ابن جرير ، أنه قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس . فلما قبض الله نبيه محمداً ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد : أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس ، قال المرتدون : نصلى ولا نزكى ، والله لا تغصب أموالنا . فكلم أبو بكر فقيل له : إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها وزادوها . فقال : لا والله ، لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه. فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ماقاتل عليه نبي الله حتى سبي وقتل وحرق بالنيران أناساً ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة . فقاتلهم حتى أقروا بالماعون - وهى الزكاة - صاغرين ، فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه على هذا هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ، وعن السدى أنه قال : إنهم الأنصار؛ لأنهم هم الذين نصروا النبي ، وقيل: نزلت في على كرم الله وجهه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وعد فى خيبر بأن يعطى الراية غداً رجلا يحبه الله ، ثم أعطاها علياً ، وليس هذا بدليل . وقد رجح ابن جرير أن الآية نزلت فى قوم أبي موسى الأشعرى من أهل اليمن للحديث فى ذلك . وإن لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر ، ومهما كان فإن الآية تصدق فى كل من اتصف بمضمونها ، ومن أشار إليهم النبي ، ومن قاتلوا المرتدين هم أهلها بالأولى . أما الذين

ارتدوا فى زمن النبى وبعده فكثيرون ، وقاتلهم كثيرون ، فكان كل مفسر يذكر قوما ممن حاربوا المرتدين ويحمل الآية عليهم .

وقوله تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإيمان يمانى والحكمة يمانية ، وقال الكلبى : هم أحياء من اليمن ، من النخع وكندة وبجيلة ، فجاهدوا فى سبيل الله يوم القادسية ، وقيل : هم الأنصار ، والتقدير : فسوف يأتى الله بقوم مكانهم أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك ، ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثنى عليهم ، ويرضى عنهم ، ومحبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه « أذلة على المؤمنين » أى عاطفين عليهم متذللين لهم ، وقد تضمن معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ، وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، وقوله تعالى « أعزة على الكافرين » أى أشداء متغلبين عليهم من (عزه) إذا غلبه ، وقوله تعالى « يجاهدون فى سبيل الله » حال ، أو صفة أخرى لقوم ، وقوله تعالى «ولا يخافون لومة لائم» صفة خامسة لقوم ، وهو تعريض بالمنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود ، فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم ، وأما المؤمنون وكانوا يجاهدون لوجه الله فلا يخافون لومة لائم قط « ذلك » إشارة إلى الأوصاف الخمسة المذكورة ، « فضل الله يؤتيه من يشاء » أى يمنحه ويوفقه له . فيبذل الإنسان جهده فى طاعته لينظر إليه هذا النظر برحمته «والله واسع» كثير الفضل « عليم » أى بمن هو أهله .

ونزل لما قال ابن سلام : يا رسول الله : إن قومنا هجرونا « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، وإنما قال : « وليكم » ، ولم يقل « أولياؤكم » للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة ولرسوله وللمؤمنين على التبع ، إذ التقدير : إنما

وليكم الله وكذلك رسوله والمؤمنون ، ولو قيل : إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ـ لم يكن فى الكلام أصل وتبع ؛ ثم وصف المؤمنين بقوله تعالى « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » أى متخشعون فى صلاتهم وزكاتهم ، وقيل : المعنى « راكعون » أى يصلون صلاة التطوع « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا » أى ومن يتخذهم أولياء ، وقيل : من يعينهم وينصرهم « فإن حزب الله هم الغالبون » أى فإنهم الغالبون ، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر إظهاراً لماشرفهم الله تعالى به ترغيبا فى ولايته وتشريفاً لهم بهذا الإسم ، فكأنه قيل : ومن يتول هؤلاء فإنهم حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، وتعريضا بمن يوالى هؤلاء بأنهم حزب الشيطان ، وأصل الحزب : القوم يجتمعون لأمر حزبهم .

ونزل فى رفاعة بن زيد وسويد بن حارث اللذين أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوالونهما « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم » أى الذى شرفكم الله به « هزوا » أى مهزوءاً به « ولعبا » . ثم بين المنهى عن موالاتهم بقوله تعالى « من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » أى اليهود ، ولما خصص عم بقوله تعالى « والكفار » أى من عبدة الأوثان وغيرهم « أولياء » فإن الفريقين اجتمعوا على حسدكم وازدرائكم فلا يصح لكم موالاتهم « واتقوا الله » أى بترك المناهى « إن كنتم مؤمنين » أى صادقين فى إيمانكم ؛ وقوله تعالى « وإذا ناديتم » معطوف على (الذين) قبله ، أى ولا تتخذوا الذين إذا ناديتم أى دعوتم « إلى الصلاة » بالأذان « اتخذوها » أى الصلاة « هزوا ولعبا » بأن يستهزئوا بها ويتضاحكوا ويقولوا : صاحوا كصياح العير ؛ وفى هذا دليل على أن الأذان مشروع للصلوات المكتوبات ، « ذلك » أى الاتخاذ « بأنهم » أى بسبب أنهم « قوم لا يعقلون » أى فإنه السفه يؤدى إلى الجهل بالحق والهزء به والعقل يمنع منه .

٥٩ — قُلْ يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ .

٦٠ — قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ .

٦١ — وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ .

٦٢ — وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٦٣ — لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

٦٤ — وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

هذه الآيات الست الكريمة خاطب بها الله عز وجل أهل الكتاب عامة ، من اليهود والنصارى ، ولكن سياق الآيات يدل على أن المقصود بها اليهود خاصة ، وهى أروع ما يقال بإنصاف فى معرض حجاج هؤلاء وهؤلاء : إنها صورة لعدالة العلى القدير وعظمته فى النقاش والحجاج والجدل ولإنصافه جميعا . .

وفى الآية الأولى يوبخهم الله عزوجل على مانقموا على المسلمين ، ويناديهم بأن يحتكموا إلى الإنصاف وإلى ضمائرهم ، وسيرون أى شيء ينقمون على المسلمين ، إنهم لاينقمون عليهم إلا إيمانهم بالله وبما أنزل عليهم من رسالة وكتاب ، وبما أنزل على الأمم من قبلهم من رسالات وكتب ، وفى الآية الثانية ـ وبعد أن سجل أوصاف المؤمنين ، وهى كلها أوصاف كريمة شريفة ، يسجل الله عزوجل صفات اليهود وخبثهم وماضيهم وحاضرهم ، وما استوجبوه من غضب الله عز وجل عليهم بهذه الصفات الذميمة ، وما كانوا هم السبب فيه من طمس الفطرة الإنسانية فى نفوسهم ، وانتكاس معنى البشرية فى قلوبهم وعقولهم ، وأنهم عادوا بالإنسان القهقرى من حيث يريد الله عز وجل له أن يمشى صعدا فى معارج الرقى والتطور والكمال الخلقى والروحى والنفسى ، وأنهم بسبب ذلك صاروا كالقردة والخنازير وكالوثنيين ، فى أنهم لايشرق فى قلوبهم نور ، ولا يضيء على عقولهم سنى من نور الإيمان والبصيرة ، وفى الآية الثالثة يسجل القرآن الكريم نفاق المنافقين منهم ممن أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، وفى الآية الرابعة يذكر الله عز وجل مسارعتهم إلى الآثام والمعاصى والعدوان ، وحرصهم الشديد على ابتزاز الأموال بالجشع والباطل والسحت والحرام ،ولذلك طارت شهرة اليهود بالربا فى القديم والحديث ، وصاروا أساتذة العالم فى سلسلة الاحتيال على الربح بالجشع والزور والباطل . وفى الآية الخامسة يوبخ الله عز وجل علماء الدين من أهل الكتاب عامة ومن اليهود خاصة ، لأنهم لم يأمروا طوائفهم ، باجتناب الإثم والربا وطرق الكسب الحرام ، ولم ينهوهم عن باطل عاشوا عليه واستمرأوه . وفى الآية السادسة يقص الله عز وجل قصة جرأة اليهود على مقامه الأعلى ، وكيف وصفوه بأوصاف ذميمة ، مثل : يد الله مغلولة ، ويرد عليهم فى ذلك ردا بليغا قويا عميقا . . يقول الله تعالى فى هذه الآيات الست التى نزلت لما سأل نفر من اليهود النبى صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به من الرسل فقال : أؤمن بالله وما

أنزل إلينا الآية ، فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى : ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم « قل : ياأهل الكتاب هل تنقمون» أى تنكرون منا وتعيبون . يقال : نقم منه كذا إذا أنكره ، وانتقم إذا كافأه « إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل » أى إلى الأنبياء « وأن أكثركم فاسقون » عطف على « أن آمنا » ، والمعنى : ماتنكرون منا إلا إيماننا ومخالفتكم فى عدم قبول الإيمان ، وعبر عن عدم قبوله بالفسق اللازم عن عدم القبول ، وليس هذا مما ينكر « قل » لهم يا محمد « هل أنبئكم » أى أخبركم « بشر من ذلك » أى الذى تنقمونه « مثوبة عند الله » أى ثوابا بمعنى جزاء ، فإن قيل : المثوبة مختصة بالإحسان كما أن العقوبة مختصة بالشر ، فإنما ورد ذلك على سبيل التهكم كما فى قوله تعالى « فبشره بعذاب أليم » ، « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ، والذى لعنهم الله فى هذه الآية هم اليهود أبعدهم من رحمته ، وسخط عليهم بكفرهم ،وانهماكهم فى المعاصى ، بعدوضوح الآيات ومَسخ بعضهم قردة ، روى أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون : ياإخوة القردة والخنازير ، فينكسون رؤوسهم « وعبد الطاغوت » أى : ومن عبد الطاغوت ، والطاغوت : الشيطان ، وقيل : العجل ، لأنه معبودهم من دون الله ، ولأن عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان ، فكانت عبادتهم له عبادة الشيطان وهو الطاغوت ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الطاغوت : الكهنة وكل من أطاعه فى معصية الله تعالى ، وقد روعى فى (منهم) معنى (مَن) وفيما قبلها لفظ (مَن) وهم اليهود .

هذا والغضب الإلهى يلزم اللعنة وتلزمه . بل اللعنة عبارة عن منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه . وفى سورة البقرة يقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » ، ويقول فى سورة الأعراف بعد بيان اعتدائهم فى السبت « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » ، وجمهور المفسرين على أن معنى ذلك أنهم

مسخوا فكانوا قردة وخنازير حقيقة ، وانقرضوا ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم . قالا : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه لهم ، مثل الحمار يحمل أسفارا ، فالمراد على هـذا أنهم صاروا كالقردة فى نزواتها ، والخنازير فى اتباع شهواتها . وقد نقل عن مجاهد من رواية ابن جرير ، قال : « مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم ، كمثل الحمار يحمل أسفارا » ، ولا عبرة برد ابن جرير قول مجاهد هـذا وترجيحه القول الآخر ، فذلك اجتهاده ، وكثيرا ما يرد به قول ابن عباس والجمهور « أولئك » أى الملعونون الممسوخون « شر مكانا » لأن مأواهم النار وجعل الوصف بالشر للمكان وهو لأهله ، وفيه مبالغة ليست فى قولك : أولئك شر . « وأضل عن سواء السبيل » أى طريق الحق ، وذكر (شر وأضل) يقتضى مشاركة المؤمنين والكفار فى الشر والضلال وأن الكفار أشر وأضل ، مع أن المؤمنين لم يشاركوا الكفار فى شىء من ذلك ، والرد على ذلك أن مكان هؤلاء فى الآخرة أضل من مكان المؤمنين فى الدنيا ، لما يلحقهم فيها من الشر والضلال الحاصل لهم بالهموم الدنيوية لسماع الأذى وغيره ، وأن ذلك على سبيل التنزيل والتسليم للخصم على زعمه إلزاما له بالحجة ، وهذا أولى .

ونزل فى يهود نافقوا النبى صلى الله عليه وسلم « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد » أى قالوا ذلك والحال أنهم قد « دخلوا » إليكم متلبسين « بالكفر وهم قد خرجوا » من عندكم متلبسين « به » أى الكفر كما دخلوا ، لم يتعلق بهم شىء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله « والله أعلم بما كانوا يكتمون » من الكفر وغيره فى جميع أحوالهم ، من أقوالهم وأفعالهم ، وفى هذا وعيد لهم « وترى كثيرا منهم » أى اليهود أو المنافقين « يسارعون » أى يقعون سريعا « فى الإثم » أى الكذب « والعدوان » أى الظلم ، وقيل : الإثم يختص بهم ، والعدوان ما يتعدى إلى غيرهم « وأكلهم السحت » أى الحرام ، كالرشوة والربا وسواهما « لبئس ما كانوا يعملون » أى عملهم هذا « لولا » أى هلا « ينهاهم الربانيون » أى المدعون التخلى عن الدنيا إلى سبيل الرب « والأحبار » أى

العلماء « عن قولهم الإثم » أى الكذب « وأكلهم السحت » أى الحرام، هذا تخصيص لعلمائهم بالنهى عن ذلك ، لأنهم أهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولأن العلماء قادة الشعوب ، وورثة الأنبياء « لبئس ما كانوا يصنعون » من ترك نهيهم ، وعبر فى الأول بيعملون والثانى بيصنعون ، لأن كل عامل لا يسمى صانعا ، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب ، وبذلك ذم بهذا خواصهم ، ولأن ترك الإنكار على المعصية أقبح من موافقة المعصية ، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ، ولا كذلك ترى ترك الإنكار عليها ، فكان جديرا بأبلغ الذم ، فيدخل فى الذم كل من كان قادرا على النهى عن المنكر من العلماء وغيرهم وتركه ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هى أشد آية فى القرآن ، وعن الضحاك : مافى القرآن آية أخوف عندى منها . « وقالت اليهود » لما ضيق عليهم بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم، وكانوا أكثر الناس مالا وأخصبهم أرضا : « يد الله مغلولة » أى هو ممسك يقتر بالرزق ، وغل اليد وبسطها كناية عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقولهم : بسط اليأس كفيه فى صدرى ، فجعلوا لليأس - الذى هو من المعانى لا من الأعيان - كفين . وقوله تعالى « غلت أيديهم » معناه الدعاء عليهم بالبخل ، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله تعالى وأنكده ، والمطابقة على هذا ظاهرة ، ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدى حقيقة ، يغلون فى الدنيا اسارى وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم ، كما قال تعالى « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل » ، وعلى هذا تكون المطابقة حاصلة من حيث لفظ مغلولة وغلت ، من حيث ملاحظة أن الأصل فى القول الشنيع أن يقابل بالدعاء على قائله « ولعنوا » أى أبعدوا مطرودين عن رحاب الله وكرمه وعفوه « بما قالوا » ومن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير ، ثم رد الله تعالى عليهم بقوله « بل يداه مبسوطتان » مشيرا

بالتثنية إلى غاية الجود ، وأن غاية ما يبذله السخى من ماله أن يعطى بيديه جميعا « ينفق كيف يشاء » أى هو مختار فى إنفاقه ، يضيق تارة ويوسع أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته لا اعتراض عليه ، وقيل : القائل لهذه المقالة هو فنحاص بن عازوراء ، فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله تعالى فيها « وليزيدن كثيرا منهم » أى ممن أراد الله فتنته ، وفاعل الزيادة ذكره القرآن الكريم فقال « ما أنزل إليك من ربك » أى القرآن « طغيانا » أى تماديا فى الجحود « وكفرا » بآيات الله فيزدادون على كفرهم وطغيانهم طغيانا وكفرا مما يسمعون من القرآن ، كما يزداد المريض مرضا من تناول الغذاء الصالح للأصحاء « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » فكل فرقة منهم تخالف الأخرى فلا تتصافى قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » أى كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ، ولم يقم لهم نصر من الله على أحد ، وقد أتاهم الإسلام وهم فى ملك المجوس ، وقيل : خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم الروم ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين ، وقيل : كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصره الله عليهم . وعن قتادة : لا تلق اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس « ويسعون فى الأرض فسادا » أى ويجتهدون فى الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم ، وإثارة الحرب والفتن ، وهتك المحارم « والله لا يحب المفسدين » أى فلا يجازيهم إلا شرا .

هذا وقد روى ابن اسحق والطبرانى فى الكبير وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق . فأنزل الله « وقالت اليهود » الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت فى فنحاص رأس يهود بنى قينقاع . وروى ابن جرير مثله عن عكرمة . وروى عن مجاهد أنهم قالوا : لقد يجهدنا الله يا بنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحره ، أو حتى أن يده إلى نحره . فعلى هذا يكون مرادهم

أنه ضيق عليهم الرزق . كأنهم اعتذروا بهذا عن إنفاق كان يطلب منهم ، أو فى حال جدب أصابهم . قيل : كانوا أغنى الناس فضاق عليهم الرزق بعد مقاومتهم للنبى ؛ وروى عن السدى فى قولهم ومرادهم ، قالوا : إن الله وضع يده على صدره فلا يبسطها حتى يرد علينا ملكنا . وروى عن ابن عباس فى معنى عبارتهم أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة . ولكنهم يقولون : إنه بخيل أمسك ما عنده . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . فجعل العبارة ابن عباس من باب الكناية لا من باب الحقيقة . وقد جعل بعض أهل الجدل الآية من المشكلات ـ كما يقول محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ـ لأن يهود عصره ينكرون صدور هذا القول عنهم ، ولأنه يخالف عقائدهم ومقتضى دينهم ، ورد بأنهم قالوا ذلك على سبيل الإلزام ، فإنهم لما سمعوا قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له » ، قالوا : من احتاج إلى القرض كان فقيرا عاجزا مغلول اليدين . بل قالوا ما هو أبعد من هذا فى تعليل قولهم فلا إشكال فى صدوره عن بعض المجازفين من اليهود فى عصر النبى وقد كان أكثرهم فاسقين فاسدين . وهذا القول لا يقوله جميع اليهود فى كل عصر ، حتى يجعل إنكار بعضهم له فى بعض العصور وجها للإشكال فى الآية ، وإنما عزاه القرآن الكريم إلى جنسهم . على أن الناس فى كل زمان يعزون إلى الأمة ما يسمعونه من بعض أفرادها إذا كان مثله لا ينكر فيهم . والقرآن يسند إلى المتأخرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون . واليد تطلق فى اللغة على عدة معان . يقول أهل البيان: إن بعضها حقيقة وبعضها من المجاز أو الكناية . فتطلق على الجارحة وعلى النعمة والقدرة والملك والتصرف وغير ذلك . وأهل التأويل يرون أن هذه الآية يجب تأويلها لأن اليد بمعنى الجارحة مما يستحيل نسبته إلى الله تعالى . ويقول بعض أهل التفويض : بل نثبت له اليد وننزهه عن لوازم هذا الإطلاق من مشابهة الناس . وتفسير ابن عباس للآية يدل على أنها ليست مما يجرى فيه الخلاف بين الخلف والسلف فى التأويل والتفويض ، لأن استعمال غل اليد فى البخل وبسطها فى الجود معروف

فى اللغة مألوف . ومنه قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .

ومعنى قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » أى بل هو صاحب الجود الكامل ، والعطاء الشامل ، وعبر عن ذلك ببسط اليدين ؛ لأن الجواد السخى إذا أراد أن يبالغ فى العطاء جهد استطاعته يعطى بكلتا يديه . وصفوه بغاية البخل والإمساك ، فأبطل قولهم وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء . ولا غرو فكل ما يتقلب فيه العالم كله من الخير والنعم ، هو سجل من ذلك الجود والكرم ، والنكتة فى قوله « كيف يشاء » بيان أن تقتير الرزق على بعض العباد ، الجارى على وفق الحكمة وسنن الله تعالى فى الاجتماع ، لا ينافى سعة الجود ، وسريانه فى كل الوجود ، فإن له الإرادة والمشيئة فى تفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق ، بحسب السنن التى أقام بها نظام الخلق .

٦٥ — وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

٦٦ — وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

فى هاتين الآيتين الكريمتين تحريض لأهل الكتاب على الإيمان برسالة محمد كما آمنوا برسالات أنبيائهم ، وفيها إنصاف شديد فى الحكم عليهم ، وبيان أن منهم جماعة منصفة جمعت إلى الإيمان بكتابهم ورسولهم الذى بعث فيهم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبكتابه الذى نزل عليه وهو القرآن الكريم ، وإن كانت الأغلبية منهم ضالة مضلة عن سبيل الله . وقول الله عز وجل فى هذا المقام : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا » أى بمحمد صلى الله عليه

وسلم وبما جاء به « واتقوا » أى الكفر « لكفرنا عنهم سيئاتهم » أى التى فعلوها ولم نؤاخذهم بها « ولأدخلناهم جنات النعيم » مع المسلمين ، وفى هذا إعلام بعظم معاصى أكثر اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص ، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى وأن الكتابى لا يدخل الجنة ما لم يسلم « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل » أى أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت محمد صلى الله عليه وسلم « وما أنزل إليهم » من الكتب المنزلة « من ربهم » لأنهم مكلفون بالإيمان بجميعها فكأنها أنزلت إليهم ، وقيل: هو القرآن ، وقوله تعالى « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » عبارة عن السعة والكثرة فى الرزق أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم من بركات السماء والأرض ، وأن تكثر الأشجار المثمرة والزروع الوارفة ، وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار ، فيجنونها من رأس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى بذلك أن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقصور الفيض ، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين « منهم أمة » أى جماعة « مقتصدة » أى عادلة غير غالية ولا مقصرة ، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : معنى مقتصدة متوسطة فى عداوته « وكثير منهم ساء » أى بئس « ما » أى شيئا « يعملون » أى يعملونه ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : وكثير منهم ما أسوأ عملهم ، أى منهم جماعة معتدلة فى أمر الدين . لا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير . قيل : هم العدول فى دينهم . وقيل : هم الذين أسلموا منهم . والمعتدلون لا تخلو منهم أمة ، ولكنهم يكثرون فى طور صلاح الأمة وارتقائها ، ويقلون فى طور فسادها وانحطاطها ، وهل تهلك الأمم إلا بكثرة الذين يعملون السوء من الأشرار ، وقلة الذين يعملون الصالحات من الأخيار ، وهؤلاء المعتدلون فى الأمم هم الذين يسبقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم

به المجددون من الأنبياء فى عصورهم . ومن الحكماء فى عصورهم ، ولما جاء الإصلاح الإسلامى على لسان خاتم النبيين والمرسلين قبله المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم ، فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب . والمحيين للعلوم والفنون والعمران ، فهل يعتبر المسلمون بذلك الآن ، ويعودون إلى إقامة القرآن ، وأخذ الحكمة من حيث يجدونها ، وعُدد الإصلاح والسيادة من حيث يرونها ، أم يفتأون يسلكون سنن من قبلهم فى طور الفساد والإفساد شبرا بشبر وذراعاً بذراع ، ومنه الغرور بدينهم مع عدم إقامة كتابه، والتبجح بفضائل نبيهم على تركهم لسننه وآدابه؟ روى ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله قال : « يوشك أن يرفع العلم » قلت : كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة ، أوليست التوراة والإنجيل بأيدى اليهود والنصارى ؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله » ؟ ثم قرأ « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل » الآية . وأخرج أحمد وابن ماجه من طريق ابن أبى الجعد عن زياد بن لبيد قال : ذكر النبى شيئاً فقال : « وذلك عند ذهاب العلم » قلنا يارسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنت لأراك أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء .

وبهذا ينتهى الربع السابع من هذا الجزء الكريم ، أو الجزء الخامس من سورة المائدة ، وقد كان هذا الربع شاملا لموضوعات عديدة ، أهمها .

١ — النهى عن موالاة اليهود والنصارى لحرب المسلمين بهم ، وللاستعانة بقوتهم على إخماد صوت الإسلام والمسلمين وإضعافهم وخضد شوكتهم ، والاعتداء على حريتهم وعزتهم وسيادتهم ، فالتعاون مع اليهود أو النصارى على هدم الإسلام والمسلمين جريمة لاتغتفر ، وذنب لايمكن تقدير مدى

خطورته . ويجب على هؤلاء المسلمين أن تكون مودتهم لله ولرسوله وللمسلمين الذين هم على شاكلتهم وعقيدتهم .

٢ — توبيخ أهل الكتاب على طعنهم فى الإسلام عقيدة التوحيد والخير، فى الوقت الذى نجدهم يرتكبون أسوأ المعاصى . ويعتقدون أسوأ الاعتقادات .

٣ — الحكم على أغلبية أهل الكتاب بالضلال وسوء العمل ، إذ ليس بناج منهم إلا المعتدلون المنصفون الذين آمنوا برسالات أنبيائهم وبرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبالكتاب المنزل عليه من السماء وهو القرآن الحكيم.

٦٧ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

هذه الآية الشريفة هى فاتحة الربع الثامن من هذه السورة الكريمة ، وهى تكليف عظيم من الله لرسوله الأعظم بتبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وإرشاد الأمة وتهذيب الإنسانية ، ودعوة الخلق إلى الخير والحق والسلام ، وهى كذلك تعهد بحماية الرسول الأعظم ورعايته فى تبليغ الدعوة ، وإعلان له بالعصمة والنجاة من أذى المشركين والكافرين .

وقد تقدم أن نداء النبى صلى الله عليه وسلم بلقب الرسول لم يرد إلا فى موضعين من هذه السورة ، وهذا ثانيهما ، وكلاهما جاء فى سياق الكلام فى دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ومحاجتهم فى الدين . وقد اختلف مفسرو السلف فى وقت نزول هذه الآية . فروى عن مجاهد مايدل على أنها نزلت فى أوائل الإسلام . وبدء العهد بالتبليغ العام . وكأنها على هذا القول وضعت فى آخر سورة مدنية للتذكير بأول العهد بالدعوة فى آخر العهد بها ، وروى عن أبى سعيد الخدرى أنها نزلت يوم غدير خم فى على بن أبى طالب . ، وروت الشيعة عن الإمام محمد الباقر: أن المراد بما أنزل إليه من ربه النص على خلافة

على بعده ، وأنه كان يخاف أن يشق ذلك على بعض أصحابه ، فشجعه الله تعالى بهذه الآية . وفى رواية عن ابن عباس أن الله أمره أن يخبر الناس بولاية على فتخوف أن يقولوا : حابى ابن عمه ، وأن يطعنوا فى ذلك عليه . فلما نزلت الآية عليه فى غدير خم أخذ بيد على وقال « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ولهم فى ذلك روايات وأقوال فى التفسير مختلفة .

« ياأيها الرسول بلغ » جميع « ماأنزل إليك من ربك » أى لاتكتم منه شيئاً « وإن لم تفعل » أى وإن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك « فما بلغت رسالته » أى لأن كتمان بعضها كتمان لها كلها ، أو لأن بعضها ليس بالأولى بأن يبلغ من بعض ، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا ، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بها كلها ، وعن ابن عباس : إن كتمت آية لم تبلغ رسالتى ، واختلف فى سبب نزول الآية فقيل : نزلت فى عتب اليهود ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام فقالوا : أسلمنا قبلك ، وجعلوا يستهزءون به ويقولون : نزلت أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك نزلت هذه الآية ، وقيل : نزلت فى الجهاد ، وذلك أن المنافقين كانوا يكرهونه ، فكان يمسك عن حقهم أحيانا على الجهاد ، وقيل : لما نزلت آية التخيير وهى قوله تعالى «يأيها النبى قل لأزواجك» فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فنزلت ، وقيل غير ذلك « والله يعصمك من الناس » أى يحفظك ويمنعك منهم ، وقد شج وجهه وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وأوذى بضروب من الأذى ، وهذا لايخالف الآية ، وأن معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك ، وفى هذا تنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل مادون النفس من أنواع البلايا . فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل : نزلت هذه الآية بعد ماشج رأسه ، لأن سورة المائدة من آخر مانزل من القرآن ، وروى إسحاق بن راهويه فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة آدم فقال:

انصرفوا يا أيها الناس ، فقد عصمنى الله من الناس ، قال البيضاوى : وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل ، ولعل المراد بالتبليغ ما يتعلق به مصالح العباد ، وقصد بإنزاله اطلاعهم عليه ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه ، ولهذا قال تعالى: بلغ ما أنزل إليك، ولم يقل: ما تعرفنا به إليك ، واعلم أن المراد من الناس هاهنا الكفار بدليل قوله تعالى : « إن الله لا يهدى القوم الكافرين » أى لا يمكنهم مما يريدون ، روى أنه عليه الصلاة والسلام نزل تحت شجرة فى بعض أسفاره وعلق سيفه عليها ، فأتاه أعرابى وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه ، وقال : من يمنعك منى يا محمد ؟ قال : الله ، فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه .

٦٨ — قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ .

٦٩ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

وفى هاتين الآيتين الشريفتين أمر من الله عز وجل لرسوله الكريم بدعوة أهل الكتاب إلى الإيمان برسالته وبما أنزل عليه ، وتبيين لهم بأنهم ليسوا على شىء حتى يخلصوا النية والعزيمة للعمل بما أنزل عليهم من السماء من رسالات ، وبما أنزل على محمد عليه السلام من دين وشريعة ودعوة ؛ ويبين الله عز وجل أن عدم إيمان أهل الكتاب بالإسلام والقرآن هو سبب زيادة أهل الكتاب فى الطغيان والكفر ، لأنهم يتحملون مسئولية فوق مسئوليتهم ،

ويتحملون أمانة أخرى فوق ماكان عليهم وفى أطواقهم أن يحملوه من أمانات ، وتبين هاتان الآيتان أيضا أن عدم إيمان أهل الكتاب برسالة السماء هو سبب لانتكاسهم فى الكفر ودوامهم عليه ؛ أما المؤمنون برسالة محمد من المسلمين ومن اليهود ومن الوثنيين ومن النصارى . فأولئك لهم ثوابهم الكبير وأجرهم العظيم عند الله .

يقول الله عزوجل فى كتابه الحكيم : «قل ياأهل الكتاب لستم على شيء» أى دين يعتد به حتى يسمى شيئا لفساده وبطلانه ، كما تقول : هذا ليس بشيء تريد تحقيره وتصغير شأنه ، وفى المثل : أقل من لاشيء «حتى تقيموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليكم من ربكم» اى بأن تعملوا بما فيها ، ومن إقامتها الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والإذعان لحكمه ، وإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقته المعجزة ، ناطقة بوجوب الطاعة ، والمراد إقامة أصولها وما ينسخ من فروعها «وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك» أى القرآن «طغيانا وكفرا» لكفرهم به «فلا تأس» أى تحزن «على القوم الكافرين» إن لم يؤمنوا بك ، أى لا تهتم بهم ، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم ، وفى المؤمنين مندوحة عنهم لك «إن الذين آمنوا والذين هادوا» وهم اليهود «والصابئون» فرقة منهم «والنصارى» ورفع (الصابئون) وكان حقه والصابئين لأنه رفع على الابتداء وخبره محذوف ، ومنزلته التأخير عما فى خبر «إن» مع اسمها و خبرها وكأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك ، وفائدة هذا التقديم والتأخير هو أن الصابئين أشد العرب المذكورين بهذه الآية ضلالا وما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها أى خرجوا عنها . فكأنه قال: هؤلاء الفرق الذين آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئين ، فإنهم إن آمنوا كانوا أيضاً كذلك . وقوله تعالى «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً» أى الأعمال والاعتقادات «فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فى الآخرة ، وقيل «الذين آمنوا من آمن» لأن المراد بالذين آمنوا الذين آمنوا

بألسنتهم وهم المنافقون ، أو أن المراد بمن آمن من ثبت على الإيمان واستقام ولم تخالجه ريبة فيه ، والمعنى العام « قل » لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى « لستم على شيء » يعتد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين « حتى تقيموا التوراة والإنجيل » فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح ، وفيما بشرا به من بعثة النبى الذى يجيء من ولد إسماعيل ، الذى عبر عنه المسيح بروح الحق وبالبارقليط « وما أنزل إليكم من ربكم » على لسانه وهو القرآن المجيد ؛ فإنه هو الذى أكمل به دين الأنبياء والمرسلين ، على حسب سنته فى النشوء والارتقاء بالتدريج . وقيل : إن المراد بما أنزل إليهم من ربهم ما أنزل على سائر أنبيائهم ، كما قيل مثله فى آية « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم » ولا يتضمن هـذا الشهادة بسلامة تلك الكتب من التحريف بأية حال من الأحوال .

٧٠ — لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ .

٧١ — وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ .

فى هاتين الآيتين الشريفتين حديث عن اليهود خاصة بعد الحديث عن أهل الكتاب عامة ، وأن الله عز وجل قد أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا برسالة موسى ومحمد عليهما السلام ، ولكنهم نقضوا العهد ، وكلما أرسل إليهم رسول بما لاتهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا آخرين ، وأسرفوا فى الضلال والكفر ، ثم تاب الله عليهم ، ولكنهم قابلوا رضاء الله عنهم بالعماية والضلال والكفر والتمادى فى الشر ، ولايزالون يتمادون فيه ، ويسرفون فى حرب

محمد والإسلام ، والله يرى مايعملون ، ويشاهد ما يمكرون به .

هـذا والميثاق المأخوذ عليهم إما من حين خلق البشر ، وإما هو ميثاق الفطرة الإنسانية الداعية إلى الإيمان برسالات السماء ، وإما هو الميثاق الذى أخذه الله عز وجل عليهم فى التوراة على عهد نبيهم موسى عليه السلام ، الذى أمرهم بالإيمان بالتوراة ، وبما ورد فيها من ضرورة الإيمان برسالة محمد عليه السلام « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » أى على الإيمان بالله ورسوله « وأرسلنا إليهم رسلا » أى ولم نكتف بهذا العهد ، بل أرسلنا إليهم رسلا ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم « كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم » أى بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكليف « فريقا » أى من الرسل « كذبوا » أى كذبهم بنو إسرائيل من غير قتل كعيسى « وفريقا » منهم « يقتلون » كزكريا ويحيى ، وإنما جيء بـ (يقتلون) موضع (قتلوا) على حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها وتنبيها على أن ذلك دينهم ماضيا ومستقبلا ، « وحسبوا » أى ظنوا ، أى ظن بنو إسرائيل « أن لاتكون » أى توجد « فتنة » أى لا يصيبهم بها عذاب فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل استخفوا بأمرها ، فلا تعجب أنت من جرأتهم فى ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه « فعموا » أى عن الحق فلم يبصروه . وهذا العمى هو الذى لاعمى فى الحقيقة سواه ، وهو انطماس البصائر ، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور « وصموا » عنه فلم يسمعوه ، أى عموا وصموا بعد موسى ويوشع عليهما السلام ، والصمم أضر من العمى فصاروا كمن لايهتدى إلى سبيل أصلا ، لأنه لا بصر له بعين ولا قلب ولا سمع « ثم تاب الله عليهم » ببعث عيسى بن مريم بالحق « ثم عموا وصموا » كرة أخرى بالكفر صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى « كثير منهم » بدل من الضمير « والله بصير بما يعملون » أى وإن دق ، فيجازيهم به وفق أعمالهم .

٧٢ — لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .

٧٣ — لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٧٤ — أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٧٥ — مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

٧٦ — قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

فى هذه الآيات الخمس الكريمة يتحدث القرآن الكريم عن بعض اعتقادات النصارى الفاسدة فى المسيح ، من قولهم: إن الله هو المسيح بن مريم ، مخالفين بذلك كلام المسيح نفسه وتعاليمه الطاهرة ؛ ومن قولهم : إن الله ثالث ثلاثة ، مع علم الجميع أن الله هو إله واحد . ثم يطلب القرآن الكريم منهم التوبة والاستغفار إلى الله، ويشرح حقيقة المسيح وأنه رسول سبقته رسل كثيرون ، وأن أمه صديقة قديسة طاهرة ، ويدلل القرآن الكريم على نفى الالوهية عن عيسى بأنه كان هو وأمه من قبل يأكلان الطعام ، وكان جسمهما محتاجا إلى الغذاء ، وكانت خلايا بدنيهما لا تنمو ولا تتركب ولا تقوى إلا بتناول الطعام ، مما يدل على أنهما كانا محتاجين إليه ، والمحتاج إلى شىء ما مهما كان هذا الشىء لا يكون إلها ، لأن الألوهية إنما هى صفة الخالق القادر الغنى عن كل شىء ، ويوبخ الله عز وجل النصارى على هذه الاعتقادات الفاسدة ، والأوهام

الباطلة ، والمفتريات الكاذبة ، وعلى هذا السفه الذى لا يصح أن يؤمن به عقل ، أو يطمئن إليه قلب إنسان ... يقول الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » وهم اليعقوبية منهم والقائلون بالاتحاد . « وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » أى إنى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم « إنه من يشرك بالله » أى يشرك فى العبادة غيره « فقد حرم الله عليه الجنة » أى منعه من دخولها منعا أبديا فإنها دار الموحدين . « ومأواه النار » أى محل سكناه فإنها المعدة للمشركين « وما للظالمين من أنصار » أى : ما لهم أحد ينصرهم من النار لا بفداء ولا شفاعة ولا بغيرهما ، فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا على أنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق. وهو يحتمل أمرين: أن يكون من كلام الله تعالى - نبه به على أنهم عدلوا عن سبيل الحق فيما تقوَّلوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره ، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره - وأن يكون من كلام عيسى عليه السلام على معنى ولا ينصركم أحد فيما تقولون : ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن العقول ، ولا ينصركم ناصر فى الآخرة من عذاب الله .. « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » أى أحد ثلاثة ، وهو حكاية عما قالته النسطورية والملكانية ، ومعناه : ثالث ثلاثة الآلهة ، لأنهم يقولون : الآلهة مشتركة بين الله ومريم وعيسى ، وكل واحد من هؤلاء إله ، فهم ثلاثة آلهة ، يبين هذا قوله تعالى للمسيح : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ » ، ومن قال: إن الله تعالى ثالث ثلاثة بالعلم ولم يرد به آلهة لم يكفر ، فإن الله تعالى يقول : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ماظنك باثنين الله ثالثهما . ثم قال الله تعالى ردا عليهم « وما من إله إلا إله واحد » أى وما فى الموجودات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدأ جميع الموجودات إلا إله واحد موصوف بالوحدانية ، متعال عن الشرك . « وإن لم ينتهوا » أى هؤلاء النصارى بجميع طبقاتهم « عما يقولون » أى من هاتين المقالتين وما شابههما

« ليمسن » أى يصيبن « الذين كفروا » أى داوموا على الكفر « منهم عذاب أليم » أى مؤلم لا ينقطع عنهم لعدم توبتهم ، ولذلك عقبه الله تعالى بقوله : « أفلا يتوبون » أى يرجعون بعد هذا الكفر الذى ليس هناك أوضح من بطلانه ولا أبين من فساده « ويستغفرونه » أى يطلبون منه غفران ما أقدموا عليه من تلك العقائد والأقوال الزائفة ، ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقريع والتهديد . « والله غفور » أى بالغ المغفرة يمحو الذنوب فلا يعاقب عليها « رحيم » أى بالغ الإكرام لمن أقبل عليه، فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا ، وفى هذا الاستفهام تعجب من إصرارهم «ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت» أى مضت «من قبله الرسل» أى ليس هو بإله كالرسل الذين مضوا ، إذ لم يكونوا آلهة ، والمعجزات التى حدثت على يديه وقع ما يشبهها من الأنبياء من قبله ، فإن كان الله قد أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب ، وإن كان قد خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب « وأمه صديقة » أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق أو يصدقن الأنبياء ، كما قال تعالى فى وصفها : « وصدقت بكلمات ربها » ، وهذه الآية من أدلة من قال: إن مريم عليها السلام لم تكن نبية ، فإنه تعالى ذكر أشرف صفاتها فى معرض الرد على من قال بألوهيتها ، إشارة إلى ما هو الحق فى اعتقاد ما لها من أعلى الصفات ، فإن أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة وأكمل صفات أمه عليها السلام الصديقة ، ولما بين سبحانه وتعالى أقصى ما لهما من الكمالات بين أن ذلك لا يوجب لهما الألوهية بقوله تعالى « كانا يأكلان الطعام » لأن من احتاج إلى الغذاء بالطعام وما ينفعه من الهضم لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وغير ذلك ، مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام فكيف يكون إلها؟ وخص الأكل بالذكر لأنه أصل الحاجات والإله لا يكون محتاجا ، وقيل : هذا كناية عن الحدث، لأن من أكل وشرب لا بد له من إخراج فضلات طعامه ، ومن كانت هذه صفته

كيف يكون إلها..؟ ثم لما أوضح الله تعالى لهم الأدلة فى أمرهما حتى ظهر كالشمس بعدهما عما ادعوه لهما عليهما السلام أتبعه بالتعجب من تفكيرهم وشأنهم «انظر» متعجبا «كيف نبين لهم الآيات» على وحدانيتنا «ثم انظر أنى» أى كيف «يؤفكون» أى يصرفون عن الحق مع قيام البرهان، ومعنى التراخى فى قوله تعالى: «ثم انظر» التفاوت بين العجبين أى تبياننا للآيات عجب وإعراضهم عنها أعجب «قل أتعبدون من دون الله» أى غيره «ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا» أى لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله تعالى به من البلايا والمصائب فى الأنفس وفى الأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الجسم والسعة والخصب، وكل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبإقدار الله تعالى وتمكينه، وكأنه لا يملك شيئا، وهذا دليل قاطع على أن أمر عيسى مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعا، وصفة الرب تعالى أن يكون قادراً على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته، وإذا كان المراد عيسى، فلم عبر بـ (ما) دون (من) مع أن المراد: من يفعل؟ والجواب أنه أتى بـ (ما) نظرا لما هو عليه فى ذاته، توطئة لنفى القدرة عنه رأسا وتنبيها على أنه من هذا الجنس، ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبعيد عن الألوهية، أو أن المراد: كل ما عبد من دون الله تعالى سواء كان ممن يعقل أم لا، «وهو السميع» لأقوالكم «العليم» بأحوالكم، فيجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والاستفهام للإنكار.

٧٧ — قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ.

تحدث الله عز وجل فى هذا الربع إلى أهل الكتاب عامة، ثم تحدث عن بنى إسرائيل وأعمالهم الخاطئة، ونقضهم لمواثيق الله المأخوذة عليهم، وعن النصارى واعتقاداتهم الباطلة فى المسيح؛ ثم عاد إلى الحديث مع أهل الكتاب

عامة ، يطلب منهم ترك المغالاة فى الدين والعقيدة ، ويطلب إليهم تنزيه الله وتقديسه ، وأن يصفوه بأوصافه الحقيقية ، وأن لا يقلدوا فى الدين أحداً ، لأن التقليد حجر على العقل ، وإفساد لموازين الحق والإنصاف .

« قل يا أهل الكتاب » أى عامة « لاتغلوا » أى تجاوزوا الحد « فى دينكم غير الحق » أى لا تغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا ، لأن الغلو فى الدين إما أن يكون غلو حق ، وهو أن يجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون ، وإما أن يكون غلو باطل وهو أن يتجاوز المتدين الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة ؛ فيرفع مثلا عيسى عليه السلام إلى أعلى من درجته ويدعى له الألوهية ، وقيل : الخطاب للنصارى خاصة « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل » فى غلوهم وهم أسلافهم الذين ضلوا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم « وأضلوا كثيراً » أى من الناس بتماديهم فى الباطل من التثليث وغيره ، حتى ظن حقا « وضلوا » أى بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن سواء السبيل » أى طريق الحق وهو الإسلام ، والسواء فى الأصل الوسط ، قال أبو عبيدة : لم يذكر الهوى إلا فى موضع الشر ، لا يقال : فلان يهوى الخير ويحبه ، وقيل : سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار ، وقال رجل لابن عباس : الحمد لله الذى جعل هواى على هواك فقال : كل هوى ضلالة .

٧٨ — لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ .

٧٩ — كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

٨٠ — تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ .

٨١ — وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ .

فى هذه الآيات الأربع يوجه الله عز وجل الحديث ثانية إلى بنى إسرائيل، يصف غضب نبى الله داود عليهم ، ولعنة المسيح لهم ، ويبين أنهم حريون بغضب الأنبياء ولعنتهم ، لأنهم عصوا الله، واعتدوا على حقوق الله وحرماته، وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واتخذوا عبدة الأوثان والأصنام أصدقاء لهم ، وأنهم بذلك وبغيره من أعمالهم الفاسدة قد استحقوا غضب الله عليهم فى الدنيا ، وعذابه الشديد فى الآخرة ، ثم يوبخ الله عز وجل اليهود على ولايتهم للوثنيين ومعاداتهم للمؤمنين ، مع العلم أن الدين ينهاهم ، والإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يحذرهم من ذلك ، ولكن هؤلاء فاسقون خارجون عن طاعة الله والائتمار بأمره ، واجتناب نواهيه .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود» أى لعنهم الله فى الزبور على لسان داود ، أو أن أهل (إيلة) لما اعتدوا فى السبت . قال داود عليه السلام : اللهم العنهم واجعلهم آية ، فمسخوا قردة وخنازير على ما يقوله بعض المفسرين ، وقال بعض العلماء : إن اليهود كانوا يفتخرون بأنهم من أولاد الأنبياء ، فذكر الله تعالى هذه الآية ليدل على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء « ذلك » أى اللعن « بما » أى بسبب ما « عصوا وكانوا يعتدون » ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله تعالى « كانوا لايتناهون » أى لا ينهى بعضهم بعضا « عن منكر » أى معاودة منكر « فعلوه » أو عن مثل منكر أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له ، وإنما قدر ماذكر لأن التناهى عن منكر قد مضى محال « لبئس ماكانوا يفعلون » أى يفعلونه ، والمخصوص محذوف أى فعلهم هذا ، والعجب من المسلمين فى إعراضهم عن النهى عن المنكر مع مايتلون من كلام الله ومافيه من التشديد فى هذا الباب « ترى كثيرا منهم » أى أهل الكتاب « يتولون الذين كفروا » أى يوالون المشركين بغضا

الرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين « لبئس ماقدمت لهم أنفسهم » من العمل لمعادهم « أن سخط الله عليهم » أى غضب عليهم « وفى العذاب هم خالدون » أى دائما « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى » محمد صلى الله عليه وسلم « وما أنزل إليه » أى من عند الله ـ أعم من القرآن وغيره ـ إيمانا خالصا من غير نفاق « ما اتخذوهم » أى المشركين « أولياء » إذ الإيمان يمنع ذلك « ولكن كثيرا منهم فاسقون » أى خارجون عن الإيمان ، وقيل معناه : ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء .

وبذلك ينتهى الربع الثامن من هذا الجزء ، أو السادس من سورة المائدة ، وينتهى بانتهائه هذا الجزء الكريم .

وفى هذا الربع يأمر الله عز وجل رسوله المكريم بتبليغ الرسالة ، وبتحمل أعباء دعوة البشر إلى دين الله ، ويتعهد الله عز وجل لرسوله بحمايته من أذى المشركين والسفهاء وبطشهم الشديد ، ويتحدث إلى أهل الكتاب عامة ، طالبا إليهم أن يعملوا بكتبهم المنزلة على رسلهم من السماء ، وبالقرآن الحكيم الذى نزل مصدقا لما بين يديه ، ثم يخص الحديث بتوجيهه إلى اليهود ، يطلب إليهم الإيمان بالله ورسالة محمد ونبوته ، ويذكرهم بماضيهم فى حرب الرسل ورسالات السماء ، ويخصه بعد ذلك بتوجيهه إلى النصارى ، طالبا إليهم ترك اعتقاداتهم الفاسدة فى المسيح ، وأن يؤمنوا بأن المسيح بشر رسول .. ثم يجمع الحديث بعد ذلك فيوجهه إلى أهل الكتاب عامة طالبا إليهم ترك الغلو فى الدين ، وترك التقليد فيه ، وترك المجاملة فيه إرضاء للشهوات والأهواء .. وأخيرا يخصص الحديث فيخاطب به بنى إسرائيل ، ويذكرهم بماضيهم وحاضرهم فى الكفر ، ويوبخهم على اتخاذهم الوثنيين أولياء لهم يستعينون بهم على محاربة الإسلام ، وعلى مخاصمة دعوة الله والرسول ، وشريعته إلى الناس كافة .. وبذلك ينتهى هذا الربع الكريم ..

وأهم شىء يجب أن نلاحظه فى هذا الربع هو هذا التكليف الإلهى العظيم للرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بأن يتحمل عبء تبليغ الدعوة ،

ونشر الرسالة ، والتبشير بدين الإسلام الحق ، وبشرعته المطهرة الصافية ، وبأن يخص أهل الكتاب أولا بدعوتهم إلى دينه ، لأنهم أصحاب رسالات سماوية ، وأعرف الناس بحقائق التوحيد وأصوله ، وأشدهم بغضا للوثنية وشعائرها ، ولأن فى كتبهم المنزلة بشارة بمحمد ورسالته والفرقان المنزل عليه من ربه .. فإذا لم يؤمن هؤلاء ، وإذا لم يكن اليهود والنصارى ، أول المسرعين بالإيمان بمحمد ورسالته ، فإنهم يصبحون أهلا لهذا التوبيخ الإلهى الشديد ، وصدق الله العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ومنه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلا ؟

نظرة عامة فى هذا الجزء

(١)

يشتمل هـذا الجزء على ربعين من سورة النساء . وعلى ستة أرباع من سورة المائدة ، وقد تضمن ماتضمن من المعانى الكثيرة والأحكام العديدة ، ومن الدعوة إلى الإسلام ، ومن حجاج أهل الكتاب :

١ — فى الربع الأول فرق الله عز وجل بين نوعين من الحديث : أحاديث الشر والسوء ، وأحاديث الخير والمعروف ، فنهى عن الأولى : النطق بها وسماعها ، وحبب فى الثانية ، ومن الأولى أحاديث الكفر والكافرين فى الطعن على الإسلام والرسول ، ومن الثانية أحاديث المؤمنين فى الدفاع عن دين الله ورسوله . . ثم فرق الله عز وجل بين الكافرين والمؤمنين ، فبين بعض مظاهر كفر الكافرين ، وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة من العذاب المهين ، وبين بعض مظاهر إيمان المؤمنين ، ووعد بإيتائهم أجر أعمالهم الصالحة وبرحمتهم وغفران سيئاتهم . . ثم عرض هـذا الربع لألوان من عنت اليهود مع الرسول ، وسؤالهم له أن ينزل عليهم كتابا من السماء جملة واحدة كما نزلت التوراة . ورد عليهم فذكر إرهاقهم لموسى بمثل هذه الأسئلة العجيبة ، وذكر ما أصابهم الله به من العذاب فى الدنيا بسبب ذلك ، وبين بعض ألوان من أعمالهم الفاسدة ، من مثل نقضهم المواثيق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا مطبوع عليها الكفر ، محجوب عنها أن ترى نور الإيمان ، وقولهم البهتان العظيم على مريم أم المسيح ، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، بل رفعه الله إليه..ويسترسل هذا الربع الكريم فيذكر بعض سيئات اليهود وما عاقبهم الله به بسببها ، فيقول الله عز وجل:إنه حرم عليهم طيبات كثيرة كانت حلالا لهم من قبل بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ،كما ذكر عز وجل أن منهم

كافرين شديدى الكفر لهم العذاب الأليم ، ومنهم راسخون فى العلم أو مؤمنون صالحون ، يؤمنون بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله من رسالات وكتب ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ووعد هؤلاء بالأجر العظيم ، والثواب الكريم .

٢ — وفى الربع الثانى يتحدث الله عز وجل عن رسالات الله إلى الأنبياء وأن محمدا ليس بدعا من الرسل ، فقد أوحى إليه كما أوحىَ إلى الأنبياء من قبل ، إلى نوح والنبيين من بعده ، وإلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإلى عيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وإلى داود صاحب الزبور المنزل عليه من السماء .. وهنا نجد القرآن الكريم ـ لأنه يخاطب اليهود ـ يذكر لهم الأنبياء الذين يؤمنون بهم ، فذكر لهم نوحا لأنه رسول البشر ، بعد الطوفان ، وبعد أجيال من الخليقة وعت نداء الرسل وكفرت به ، ولم يذكر آدم هنا فى مقام الرسالة ، لأنه لم يبعث برسالة للكافرين ، إنما بعث برسالة إلى أبنائه وذريته ، والمقام مقام خطاب لليهود الكافرين برسالة محمد عليه السلام ، ومحور الحديث معهم أن رسالة محمد إلى الكافرين تشبه رسالة نوح إلى الكفار ، وفى ذكر نوح إشارة إلى صبر محمد عليهم كما صبر نوح ، وإلى أن الله قادر على إغراق الكافرين وتدميرهم كما فعل مع قوم نوح ، وإلى أنه ليس هناك من شفيع يشفع للكافرين كما لم يشفع لابن نوح أحد . . ثم ذكر الله عز وجل إبراهيم لأنه جدهم الأكبر ، وإسحاق جدهم الثانى ، وذكر مع إسحاق إسماعيل إشارة إلى أنه لا فرق بين الأخوين فى الرسالة : نبى العرب إسماعيل ، ونبى الشام إسحاق ، ثم ذكر يعقوب وهو إسرائيل أبوهم الأكبر ، وذكر الأسباط من قومه ، وذكر عيسى الذى بعث إليهم بكتاب مقدس وكذبوه ، ثم عاد فذكر أنبياء لليهود ومنهم أيوب ويونس وهارون وسليمان وداود ، ولم يذكرهم بالترتيب الزمنى لرسالاتهم ، إنما ذكرهم بالترتيب العقلى الذى توحى به ذكريات رسالتهم وعناد اليهود لهم .. وأشار الله عز وجل إلى أن من الرسل رسلا قد ذكر الله عز وجل قصتهم فى القرآن ، ورسلا آخرين

لم يذكرهم ، ولم يقص قصتهم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى رسالة موسى وأن الله كلمه تكليما لأنهم يؤمنون به ولا ينكرون رسالته ، ومن ثم أخر ذكره لأنه لاشك عند اليهود فى أمره ، ولا ريب عندهم فى نبوته ، ولأنهم يؤمنون به إيمانا كاملا ، فكأن مجرى الحديث أن الله عز وجل أوحى إلى محمد كما أوحى إلى كثير من الأنبياء والرسل ، ممن ذكرناهم فى القرآن وممن لم نذكرهم ، وكما أوحى إلى موسى رسولكم ونبيكم وصاحب معجزاتكم ، فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من الرسالات ، ونبوته ليست عجبا فى النبوات . . ثم ذكر الله عز وجل وظيفة الرسل وأنهم بعثوا مبشرين ومنذرين ، مبشرين للمؤمنين بالمغفرة ومنذرين للكافرين بالعذاب ، ومعنى هذا أنهم يشرحون لأممهم العقائد والشرائع التى يجب أن يؤمنوا بها ، ويبشرون من آمن بها بالمغفرة ، وينذرون من خالفها بالعقاب الشديد . . وذلك لكى لا يكون للناس على الله حجة وعذر بعد بعثة الرسل إليهم ، وإرسال الأنبياء لهدايتهم .. ويواسى الله عز وجل محمدا رسوله الكريم ، فيقول له : لا تحزن ولا تبتئس ، فإن يكن اليهود ينكرون رسالتك ، فإن الله يشهد لها ، والملائكة تقر بما أنزل إليك ، وكذلك النبيون عامة قد اعترفوا بها ، وبشروا أممهم بها ، ودعوهم إلى الإيمان بمحمد إن أدركتهم رسالته . . وجميع الكتب المقدسة نزلت فيها البشارة بمحمد وكتابه ورسالته .

وهنا ينذر الله عز وجل الكافرين الذين كفروا بالله ورسله ، وصدوا عن سبيل الله ، ويتوعدهم ، ويذكر أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بما أنكروا من رسالة السماء ، وفى الآخرة ببعدهم عن نعيم الله ومثوبته ، فى الدنيا بأن الله لا يغفر لهم ، ولا يهديهم طريقا ، وفى الآخرة بأن سيهديهم إلى طريق جهنم خالدين فيها أبدا ، وكان ذلك على الله يسيرا .

وينادى الله عز وجل فى الأمم عامة ، وفى الناس جميعاً ، وفى الإنسانية كلها ، بأن محمدا الرسول قد جاء الناس ، قد أظلتهم رسالته ، قد أدركتهم

نبوته ، قد عاشوا فى عصره ، وشاهدوا معجزة ربه إليه ، قد سمعوا القرآن كتاب الله المبين يتلى بين يديه ؛ قد جاءهم النور والهدى والرحمة ، قد جاءهم الحق والسلام والأمن والمعرفة ، قد جاءتهم الحياة تسعى بين أيديهم ، والحضارة والنهضة والرقى والتطور تبشرهم بمستقبل سعيد للإنسانية . قد جاءت الناس هدايته ورحمته وبره وخيره - أيتها الإنسانية التى شهدت ميلاد رسالة محمد ، وشاهدت كفاحه وجهاده ، وعاصرت رسالته ونبوته ، وأدركت ما لم تدركيه من قبل ولا من بعد: من نزول القرآن يتلى عليه ويدعى إليه ، وكفاك كفاك فخرا وعظمة ومجداً وكبرياء أنك شاهدت هـذا النور ، وهذا الرسول ، وسمعت هذا الكتاب المبين يدعو الأمم كافة إلى الإيمان بمحمد ورسالته وكتابه المبين ؛ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم ، وإن تكفروا فإن لله مافى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ، ما أروعها كلمات نطق بها الكتاب العظيم ، والقرآن الحكيم ، والفرقان الكريم ، ما أضخمها من إعلان إلهى إلى البشر عامة يتضمن رسالة محمد ونبوته والدعوة إلى الإيمان به ؛ يا أيها الناس فى هذا العصر المادى العجيب ، ويا أيتها الأمم فى عهد الذرة وعلم الفضاء الكونى العجيب . إن هذا الإعلان الإلهى ، الذى تلى على مسمع الإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، لا يزال يتلى عليكم الآن ، إن القرآن ينطق به ، ورسالة محمد الخالدة الباقية تترنم بنشيده ، وتعاليم محمد تدعو إلى تمجيد هذا الإعلان السماوى العظيم وإلى الإيمان به ؛ إن الأوربيين ليخطئون كثيرا فى تقدير عظمة محمد صلى الله عليه وسلم خلال الأجيال القديمة والحديثة على السواء ، أخطأوا كثيرا - كما يقول العقاد — فى تقدير محمد عليه السلام خلال القرون الوسطى وما بعدها إلى القرن العشرين ، لأنهم وزنوه مغرضين منقادين لطغيان العداوة أو للجهالة والعصبية ، ولولا ذلك لما بلغ من سخف الشاعر « دانتى » أن يتقبل تلك الصورة التى تخيلها للنبى محمد ، وللإنسان محمد ، ولمحمد بطل التاريخ الخالد فى جميع الصفات والأدوار وجاء بعد دانتى عبقرى

فى مثل ذكائه ، وإن لم يكن فى مثل غضبه وصرامته ، فأخطأ مثل خطئه فى التقدير والفهم القويم ، وذلك هو فولتير ، فإن روايته عن « محمد » عليه السلام مسبة لمؤلفها كما قال نابليون فى حديثه مع جيتى الشاعر الألمانى الكبير ، ولكن فولتير كان فى الواقع يحتال ولا يجد فى تلك الصورة التى رسمها لنبى الإسلام ، فلم يكن داؤه كداء الشاعر الإيطالى عصبية من عصبيات القرون الوسطى ، تلهبت فى زمنه بضرام الحروب الصليبية التى استعرت بين الشرق والغرب عدة قرون ، ولكنه كان مبتليا بداء آخر من السخرية التى تريد لها منفذا مأمونا تنصرف إليه ، وكان يتحرق على القدح فى « الشخصيات المقدسة » ولا يستطيع ذلك بملء الحرية والطلاقة فى البيئات الأوربية ، فاتخذ من اسم محمد ستاراً يدارى به حملته على تلك الشخصيات التى لم يقدر على المساس بها علانية بأسمائها . وأقبل القرن التاسع عشر بحرية فكرية أكبر من حرية القرون التى سبقته ، وبدأ فيه عهد التمحيص العلمى فى مسألة الأديان عامة ، والمقارنة بين العقائد والشعائر بصفة خاصة ، فاتخذت الكتابة عن النبى عليه السلام أسلوبا آخر غير أسلوب القرن الذى تقدمه ، وغير أسلوب القرون الوسطى بطبيعة الحال ، وكان أول المنصفين للنبى عليه السلام صاحب كتاب « الأبطال » توماس كارليل المفكر الايقوسى المعروف ، فاستنكر وصف النبى بالكاذب وبالدجال ، وقال : إن الدجال لا يقوم فى التاريخ الإنسانى بعمل عظيم ، وليس أعظم من العمل الذى قام به نبى الإسلام فى تاريخ بنى الإنسان .. وتقرر أسلوب الكلام على الأنبياء عامة بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وإذا أردنا التمييز الدقيق وجب أن نقول إنهما أسلوبان مختلفان قد تقررا فى هذه الفترة ، وهما أسلوب الباحثين العلميين ، وأسلوب المتدينين أو رجال الدين من مشتغلين بالتبشير وغير مشتغلين ، فالباحثون العلميون يفهمون النبوة على نحو آخر غير النحو الذى نعرفه فى الغرب للمتدينين ورجال الدين ، ولا يرون موجبا للتفرقة بين النبوة التى جاء بها محمد والنبوات التى جاء بها أنبياء بنى إسرائيل أو أنبياء

المسيحية ، فإذا كان هؤلاء أنبياء فمحمد نبي عظيم ، ولا معنى لإنكار النبوة عليه والاعتراف بها لأنبياء آخرين ، أما الباحثون الدينيون فهم يخجلون من أساليب القرون الوسطى فى وصف النبى العربى ، ويحسون أنهم مطالبون باحترام العقول واحترام أنفسهم حين يكتبون لقرائهم الذين تعودوا القراءة والفهم بالدليل والبينة العلمية ، فإذا انتقدوا فإنما ينتقدون متحفظين معترفين بالحسنات قبل الخوض فيما يحسبونه من السيئات ، وغاية ما يستبيحونه من التجريح أن يفضلوا عقيدة على عقيدة ودعوة على دعوة ، فى طلب الخلاص الروحانى أو فى تقويم الشعائر والأخلاق ؛ ومن الممكن تمثيل هذا الموقف بمثل واحد يبدو فى كتابة رجل من المشهورين بنقد الإسلام ، فى شخصه وفى دعوته ومكانته بين أصحاب الأديان ، هذا الرجل هو المستشرق «مرجليوث» فى كتاب عبقرية محمد حين ذكَّر الناقد الغربى الذى يقول عن النبى إنه مفرط فى ميوله الجنسية ، وقال: إن المسلمين لا يقولون عن المسيح عليه السلام إنه عنين Undersexed لأنه لم يتزوج ، فليس من الحق أن يقال عن نبى الإسلام إنه مفرط فى ميوله الجنسية لأنه تزوج بعدة نساء ، وليس فى زوجاته من لم يكن لزواجها سبب غير الميول الجنسية التى يدعيها الجهلاء بحقيقة كل زواج ؛ فمرجليوث هذا يعود فيقول عند تقديمه لترجمة القرآن «إن هناك رأيا يزداد أنصارا بين دارسى الديانات ، يجنح إلى القول بأن محمدا خليق أن يحسب حسبانا صحيحا من الأنبياء الداعين إلى شىء من الحقيقة ، وإن لم تكن الحقيقة كلها» .

فهذا الرأى قليل فى ميزان المسلم ، المسلم الذى يرى فى محمد منقذ الإنسانية وبطل التاريخ ، ولكنه كثير فى الميزان الذى كان قبل ذلك بجيل واحد ، لا يعرف صفة من صفات الصدق والنبوة يوصف بها نبى الإسلام . . يقول كتاب «قراءات فى ديانات العالم» الذى جمعه شامبيون ودورتى شورت: «إن محمدا مرت به تجربة روحية فى شبابه غيرت تاريخ العالم» ثم يقول : «إن خلائق محمد خلائق نابهة عظيمة ، وقد كانت له شخصية ذات قوة رائعة ، وتقول أوصافه المتواترة إنه كان مهيب الطلعة ذكى الملامح ، أسود العينين ، ذا لحية

سابغة . وأثر طلعته فى النفس أثر إنسان ودود عطوف على الأطفال » ، ثم يلم الكتاب ببعض ما جاء فى أقوال الناقدين ، ويستطرد إلى مسائل الزواج فيقول : « إن هؤلاء الزوجات فى كثير من الحالات كن زوجات أصحاب له ماتوا مجاهدين ، وكن فى حاجة إلى الحماية والإيواء فى زمن كثير الاضطراب » ، ويقول كتاب تراجم الآلهة لمؤلفه أوستاس هايدن : « إن محمدا كان على يقين أنه يفوه بكلمات الإله الذى أوحى كلمة الحق قبل ذلك لبنى إسرائيل والمسيحيين » ، ويقول كتاب الكتب المقدسة العالمية « إن محمدا لم يكن مقلدا لغيره من الأنبياء » ، ويقول كتاب الأخلاق فى الديانات العظمى لمؤلفه رويستون بايك : « إن محمدا رجل نادر المثال ، وهو الذى صنع الأعجوبة التى جعلت عرب البادية أصحاب دولة عالمية فى نحو مائة عام » .. ويقول الفريد جيوم فى كتابه عن الإسلام : « ينبغى أن يقال من البداءة : إن محمدا كان رجلا من أعظم أعلام التاريخ ، عقيدته المسيطرة أنه لا إله إلا الله ، وأنه ينبغى أن يكون بنو الإنسان أخوة واحدة من المؤمنين ، وأن مقدرته السياسية أمام المشكلات التى واجهته لرائعة حقا » ، ويقول الدكتور بوكيه ـ وهو من رجال الدين ـ فى كتابه عن الدين المقارن : « إن شخصية محمد لا بد لها من إنصاف من أولئك المغرضين فى مواجهتها ، وانه كان على اقتدار عجيب فى جذب الأصدقاء إليه والاحتفاظ بهم » .

بهذه الكلمات والآراء المنصفة بعض الإنصاف ، يعود الغربيون اليوم إلى فهم محمد ورسالته وعبقريته ، يعودون إلى الفكرة التى قررها القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، يعودون إلى تقرير أن رسالة محمد ليست عجبا بين الرسالات ، فكما أوحى إلى أنبياء بنى إسرائيل وإلى عيسى ، أوحى إليه برسالة من السماء . أربعة عشر قرنا مضت حتى فهم الأوربيون هذه الحقيقة البسيطة التى نادى بها القرآن الكريم فى بساطة وصراحة ووضوح ، أربعة عشر قرنا ـ من التعصب والجهل والحمق ، ونداء الاستعمار ـ مضت حتى اقتنع الغربيون بأن محمدا رسول كما أرسل الله الأنبياء والرسل .

وقد سئل اللورد ستانلى: لم أسلمت،وقد كنت مغرقا فى نصرانيتك ؟ فقال : أو أغمط الفضل أهله ؟ أو أجحد الله وعلمه؟ ولولاه لما كنت عالما شيئا ، فقيل: كيف ، وما هذا الفضل الذى لاتجحد ؟ فأجاب من فوره : لم يكن أبى ولا أمى مسلمين وكم أنا حزين لهذه الذكرى المؤلمة ، فليتهما نالا من شرف الإسلام ما نال ولدهما ، وقد نشأت نشأة تدعو إلى التفكير وحرية الرأى ، ولكنى كنت أكن للنصرانية، فى نفسى أشد الحب ، وكنت مشربا حب العلم والعلماء والكتب والكتاب ، فوقع مرة كتاب الله فى يدى فما اطلعت عليه وطالعته حتى ازددت عليه اطلاعا وفيه تفانيا ، وكانت لذة معانيه تنسينى كل ماقرأت لتبقى هى الطائلة على ما قرأت ، وما أفرغ من تلاوته حتى أرى مدد البكاء يهتاجنى والألم ينتابنى، وكان الباعث على ذلك فى مبدأ الأمر مجهولا ، ولكن بالبحث واستقراء أنحاء نفسى وجدت أن هذا الألم ناشىء عن تذكر ما أنا عليه ، فنفضت عن نفسى نقع التعصب وغبار القديم الممقوت والوراثة المزرية . وأصبحت اليوم مسلما لا كالمسلمين الذين أخذوا الدين عن أم وأب وهم لايعرفون منه إلا اسمه. بل مسلما لحما ودما .. أنا مسلم ، رأيت عظم أثر الإسلام ، وقدرته فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث وإجهاد ، فلا أقبل به بديلا .. أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لايلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه .

ويقول كابن تيلر : الإسلام أفاد التمدن أكثر من النصرانية ، ونشر علم الإخاء والمساواة، وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الإنجليز، وعما كتبه معظم السياح عن النتائج الحسنة التى نتجت عن الدين الإسلامى وظهرت آياتها منه ؛ فمنافع الإسلام منافع لاريب فيها وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها . حتام لاننظر إلى الأرواح الغالية ، والمصاريف الباهظة التى ذهبت سدى فى سبيل تنصير أفريقية ، والنصرانية إذا اعتنقها ألف رجل . فالإسلام يعتنقه الملايين فيها .

ويقول توماس كارليل : جاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل ، وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر؟ لقد جاء الإسلام على تلك النحل الكاذبة والملل الباطلة فابتلعها ، وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، فما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية .. وكل مالم يكن بحق ، فإنه حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .. ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضاً هامدة ، لايسمع لها صوت ولاتحس منها حركة ، منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ؛ وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة ، ورونق الحق والهدى ؛ على نصف المعمورة .

ويقول اللورد هدلى : إنى أستطيع أن أقول ، وأنا واثق من صحة قولى: إن فى انجلترا ألوفا من الأشخاص الراقين مسلمين فى قلوبهم ، ولكنهم لايسلمون بذلك جهارا ، وقد حادثت أخيرا كثيرا من الناس فى هذه البلاد وشرحت لهم ماهية الإسلام ، فكان كل منهم تقريبا يجيبنى قائلا : إذا كان هذا هو دينك فأنا إذا مسلم لأن هذا ما أعتقده وما أفكر فيه » .. ذلك هو الإسلام وتلك آياته الرائعة ، التى شهد بها حتى أعداؤه ، والتى لا ينكرها إلا كل من رين على قلبه ، فحجبه الجمود أو التقليد عن إدراك حكمته ، والتعلق بأسبابها ، فراح يعيبه . وما للإسلام عيب سواه .

هذا هذا الإعلان الإلهى العظيم الذى نطق به القرآن الكريم : « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم ، وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض » . . إنها لحقيقة بسيطة واضحة وضوح

الشمس فى ريعان النهار ، حقيقة أشار إليها عمر وهو فى موقف رثاء الرسول.
فقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم
يقول وهو يبكى : بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد كان لك جذع تخطب عليه.
فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك
عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول
الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته فقال تعالى « من
يطع الرسول فقد أطاع الله » ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من
فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى « وإذ
أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » .
بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً
تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله
عليك ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله
ريحا غدوها شهر ورواحها شهر فما ذاك بأعجب من البراق حين سريت عليه
إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى
أنت وأمى يارسول الله ، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله تعالى إحياء الموتى
فما ذاك بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مسمومة فقالت لا تأكلنى
فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال
« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ولو دعوت علينا مثلها
لهلكنا عن آخرنا، فلقد وطىء ظهرك ، وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ،
فأبيت أن تقول إلا خيرا ، فقلت : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، بأبى
أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك فى أحداث سنك وقصر عمرك ما لم يتبع
نوحا فى كبر سنه وطول عمره ، فلقد آمن بك الكثير، وما آمن معه إلا قليل.
بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالستنا ولو لم
تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا ، ولو لم تؤاكل إلا كفؤا لك ما آكلتنا ،
ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، ووضعت طعامك بالأرض ، ولعقت
أصابعك ، تواضعا منك صلى الله عليك .

حقيقة بسيطة واضحة ، تلاها الرسول على الناس حين تلا عليهم هـذه الآية ، ثم ذكرها وأكدها فى موقفه فى خطبة عام حجة الوداع حيث أكد للناس رسالته وأنه مبلغ عن ربه ، وشرح لهم أصولا من شريعته ، حيث وقف فى التاسع من ذى الحجة عام ١٠ هـ ، ٦٣٢ م فى عرفات فى مكة فخطب الناس ، وقال لهم : أيها الناس اسمعوا لى فأنى لاأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمن عليها ، وإن كان ربا فهو موضوع ولكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أن لاربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وان كل دم فى الجاهلية موضوع كله ، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، فهو أول ما أبدا من دم الجاهلية . أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم ،إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله ، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية: ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا ، إنهن لايملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فإنى قد بلغت قولى وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : اسمعوا قولى ، واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس ، فلا تظلموا أنفسكم ، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد .

وفى يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام ١١ هـ - ٨ يونيو عام ٦٣٢ م ، مات الرسول ، ووقف أبو بكر ينادى فى الناس فى المدينة : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين» ...

وبعد هذا كله يفيض الربع الثانى من هذا الجزء الكريم فى نقاش أهل الكتاب والجدل معهم ، وفى تكذيبهم فى افتراءاتهم على المسيح عيسى بن مريم ، وتقديسهم له ، ورفعهم إياه إلى مرتبة الألوهية . . ويعود القرآن الكريم إلى تقرير عبودية عيسى ، وأنه لا يستنكف أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، وأن من يستنكف عن عبادة الله ويستكبر ، فإليه مصيرهم ، فللمؤمنين النعيم ، وللمستنكفين الجحيم ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ؛ وكما أعلن الله عز وجل رسالة محمد إلى البشر عامة ، أعلن كذلك إلى الإنسانية عامة نزول القرآن من السماء على محمد عليه السلام ، وأنه كتاب الله إلى الناس بهذه الجملة الواضحة ، والآية الكريمة ، فقال : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبينا » ، ما أعظم هذا الإعلان وما أكرمه وما أجمعه لأوصاف القرآن الكريم ؛ برهان من الله ، ونور مبين ؛ وما أبلغ هذه الآية المعجزة فى بساطتها وإشراقها وتلألؤ روح البلاغة فيها ؛ وبهذه البساطة أيضاً أعلن الله الناس بأن القرآن منزل من عنده إلى البشر عامة ، وأن عليهم أن يؤمنوا به ، وأن للمؤمنين به الرحمة والفضل من الله والهداية إلى الصراط المستقيم .

وفى نهاية هذا الربع أو نهاية هذه السورة ، يذكر الله عز وجل الناس

بأحكام السورة فى النساء ، ويؤكدها لهم بما بين من حكم الكلالة ، إشارة إلى أن أحكام السورة فى النساء والأسرة يجب أن يعيها المسلمون ، وأن يتذكرها المتذكرون ، وأن يؤمن بها المؤمنون ، وأن يعمل بها العاملون . . . وبذلك تنتهى سورة النساء ، وينتهى بانتهائها الربع الثانى من هذا الجزء الكريم .

٣ — وفى الربع الثالث،وهو أول ربع فى سورة المائدة الشريفة يخاطب الله عز وجل المؤمنين ، مطالبا لهم بالوفاء بالعهود والالتزامات : عهودهم مع أنفسهم ومع الله ومع الناس ، ويبين لهم كثيرا من أحكام الحرم فى الحج ، وكثيرا مما حرم الله على المسلمين من الطعام ، وما أحله لهم منه ومن الصيد والذبائح ، وما أحله لهم من الزواج بالنساء المحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من أهل الكتاب ، بشرط تقديم المهر ونية الخير والعفاف ، ثم يذكر الله عز وجل أحكام الوضوء والتيمم للصلاة ، ويذكر الله المسلمين بنعمه عليهم ، وبميثاقه الذى عاهدهم به ، ويطلب إليهم القيام لله بحقوقه وفرائضه وشريعته ، والشهادة بالعدل دون قصد إلى تحريف أو تزوير ، وبالتزام العدل ولو مع الأعداء والخصوم ، فالعدل هو أقرب طريق لتقوى الله وطاعته ؛ ويطالب كذلك المسلمين بتقوى الله ، ويقرر أن الله عز وجل وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر العظيم ، وأن الكافرين المكذبين بآيات الله أولئك هم أصحاب الجحيم ، ويكرر تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم ، وبدفاعه عنهم ، وبحمايته لهم ، إذ هم المشركون والكافرون بالقضاء عليهم ، وتدمير دعوة الإسلام ، وقتل الداعى الكريم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف الله أيديهم عن المسلمين ، وكرر أمرهم ومطالبته لهم بتقوى الله والتوكل عليه ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وفى هذا الربع أيضاً يبشر الله المؤمنين ببشارة عظمى ، وهى أنه أكمل لهم دينه ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام دينا ، وكان نزول ذلك فى حجة الوداع ، حيث الإسلام قد انتشر فى الجزيرة العربية ، وكتاب الله قد تم نزوله ، والشرك قد دمرت قواعده بين العرب ، وفتحت مكة ، وطهر البيت

الحرام من الأوثان والأصنام ، وحرر الناس فى جزيرة العرب من العبودية والطغيان . . وفى هذا الربع الكريم ذكرت كلمة العقود مرة حيث طالب الله عز وجل المؤمنين بالوفاء بها « أوفوا بالعقود » وذكرت كلمة الميثاق مرة « واذكروا نعمة الله وميثاقه الذى واثقكم به » ، وطالب الله عز وجل المؤمنين بالوفاء بعهدهم مع المشركين « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » ، وطالبهم بالقيام لله بحقوقه ، وبأداء الشهادة على وجهها ، وبالتزام العدل مع الناس حتى مع الأعداء «كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

وسورة المائدة تسمى سورة العقود ، لأنها السورة التى افتتحت بطلب الإيفاء بالعقود من المؤمنين ، وبتذكير المؤمنين بالوفاء بها فى أكثر من موضع ، وببيان أن ما أصاب الأمم من قبل من وبال إنما كان بسبب نقضهم لعهودهم مع الله ومع الناس ، وقد ذكرت العهود فى آخر سورة النساء ، وأن نقضها كان سبب غضب الله على بنى إسرائيل : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله » الخ (١٥٥ — سورة النساء) ، فناسب فى سورة المائدة أن تحتوى على تفصيل كبير للعهود ولوجوب الوفاء بها ولدعوة الله عز وجل للمؤمنين ليفوا بها ، فكان مظهر ذلك ما جاء فى هذه السورة من تكرار ذكر العهود والمواثيق وطلب الوفاء بها ، حتى إن السورة لتشتمل على أصلين عظيمين : هما مطالبة الله عز وجل للمؤمنين بالوفاء بالعهود ، والنعى على أهل الكتاب بنقضهم مواثيقهم . وفى السورة ما يرشد إلى الوقت الذى نزلت فيه ، وإلى الحالة التى صار إليها المسلمون فى ذلك الوقت ، فقد جاء فيها — كما يذكر الشيخ محمود شلتوت فى دراسة له عن السورة نشرتها مجلة « رسالة الإسلام » عام ١٣٧٢ هـ — بعد أن فصل الله محرمات الطعام قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ، وهذه الآية « اليوم يئس الذين

كفروا من دينكم ، تقرر أن المشركين الذين كانوا يعملون دائماً على قهر المسلمين وإذلالهم وتشتيتهم وتفريق كلمتهم وفتنتهم عن دينهم ، صاروا على الرغم من كل ذلك فى عجز وضعف ، واستولى عليهم اليأس فى الوصول إلى شىء من أغراضهم ، وعليه فيجب على المسلمين ـ وقد عصمهم الله من أعدائهم وبدلهم بضعفهم قوة وبخوفهم أمنا وبفقرهم غنى ـ أن يشكروا رب هذه النعمة وألا يكترثوا فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه وتنفيذ أحكامه بأحد سواه .

ولا ريب أن هذا القهر الذى حاق بالمشركين كان أثرا للقوة التى صارت إليهم فى ذلك الوقت، وتقرر الآية الثانية « اليوم أكملت لكم دينكم الخ » بشارة عظيمة هى فى الواقع بمنزلة البيان أو التعليل لما استفيد من الآية الأولى ، من وقوع المشركين فى اليأس وحصول المسلمين على النصر والقوة . ذلك أن إكمال الدين على الإطلاق يتناول إكماله بالبيان والتشريع وإكماله بالقوة والتركيز ، وإن أكبر النعم التى يمتن بها العظيم ويضيفها إلى نفسه تفخيما لها ، هى النعمة التى بها يستتب النظام وتوضع القوانين وتبين الحقوق والواجبات وتقضى على نوازع الشر ومنابع السوء ، وتقهر العدو ، وتدك صرح باطله ، وتجعله فى يأس من عودة القوة إليه ؛ نعم إنها لأكبر النعم . ويكشف عن هذا ما روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر رضى الله عنه فقال : إن فى كتابكم آية تقرأونها لو علينا أنزلت ـ معشر اليهود ـ لاتخذنا اليوم الذى أنزلت فيه عيدا ، قال عمر : وأية آية ؟ قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فقال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله عشية عرفة فى يوم جمعة والحمد لله الذى جعله لنا عيدا . واليوم الثانى يوم النحر . ومن هذا كله نأخذ أن سورة المائدة لم تنزل إلا بعد أن قلمت أظفار المشركين ، وانزوى الشرك فى مخابئه المظلمة ، وصار المسلمون فى قوة ومنعة كانوا بهما أصحاب السلطان والصولة فى مكة وفى بيت الله الحرام ، يحجون آمنين مطمئنين ، وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال . ولا ريب أن

هذه الحالة لم تصل إلى المسلمين إلا بعد أن فتح الله مكة للإسلام ، وإلا بعد أن نزل قوله تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » وهذا يقرب لنا صحة ما يروى من أن النبي قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يأيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » وقد روى عن السيدة عائشة أنها قالت : « إن المائدة من آخر ما أنزل الله ، فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه » ، ويتبين من هذا أن سورة المائدة كانت آخر ما نزل أو على الأقل من آخر ما نزل . وهذه النتيجة تفسر لنا جملة من الظواهر نجدها فى المائدة ، ولا نكاد نجد شيئا منها فى غيرها من السور المدنية حتى فى أطول سور القرآن وهى سورة البقرة ، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذى ألف فى القرآن من محاجتهم وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم ، وأنها لم تعرض فى قليل ولا فى كثير إلى ما عهد فى أكثر السور المدنية التى نزلت قبلها ، من الحث على القتال والتحريض عليه ، ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين ، كما نراه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة ، لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شىء من هذا الحديث ، فقد انقشعت عن سمائهم سحابة الشرك ورسخت أحكام الله فيما يختص بالجهاد فى قلوبهم ، وأصبحوا لا يخشون أحدا غيره فى أحكامه ، وصار المشركون فى قهر وذلة ويأس ، ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم فإن للمسلمين أنفسهم شئونا هم فى حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لها والسياسة التى تديرها ، على وجه يضمن لهم دوام السعادة ، ويحفظ لهم السيادة . ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب يعيشون فى ذمتهم وعهدهم ، ويخالطونهم فى حياتهم ومعاملاتهم ، ومن ذلك لا يسلم الأمر من الخوض معهم فى أحاديث تتصل بدينهم وكتبهم . ومن هنا يتبين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى ما يغنيهم فى الجانبين ؛ جانب أنفسهم . وجانب علاقتهم بأهل الكتاب . وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة — كما قلنا — على أمرين

بارزين : تشريع للمسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون ، وإرشاد لطرق المحاجة والمناقشة ، وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام . وفى سياق هذه المحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضيين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم من جهة ، وتنديدا بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى .
وقد تحدثت السورة عن ذلك كله ، ونادى الله عباده المؤمنين بما شرع لهم من أحكام وأرشد إليه من أخلاق ، فى مواضع لم نر عددها فى أطول سورة وهى البقرة ؛ ويجدر بنا أن نضعها أمام القارىء الكريم ليكون على ذكر منها ويسير معنا فى شرحها وبيان ما يتيسر من أحكامها، وها هى ذى على الترتيب :
« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » . « يا أيها الذين آمنوا ، إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . . . » .
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط . . . . » . « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » . « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛
« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا أو لعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » . « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » . « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » . « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » . « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » . « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية » ، وهذه ستة عشر نداء وجهت إلى المؤمنين خاصة ، يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم ناحية من نواحى الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم ،

وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب ، وقد وجهت السورة النداء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصفة الرسالة خاصة مرتين اثنتين ، ولم يوجه نداء له عليه الصلاة والسلام بهذا الوصف فى غير هذه السورة ؛ هذان النداءان هما : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » . ووجهت السورة أيضاً النداء إلى أهل الكتاب مرتين اثنتين هما : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل » . وأمرت الرسول ثلاث مرات أن يوجه إليهم النداء فى موضوعات ثلاثة ، فى شأن ما يثيرون به الخلاف بينه وبينهم : « قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل » ، « قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » . « وقل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . فهذه جملة النداءات التى وجهت إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى المسلمين ، وإلى أهل الكتاب ، أو أمر النبي بتوجيهها إليهم فى هذه السورة ، كما يقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى دراسة له عن سورة المائدة نشرت فى مجلة رسالة الإسلام .

٤ — وفى الربع الرابع من هذا الجزء ، أو الثانى من سورة المائدة .

ا — يذكر الله عز وجل الميثاق الذى أخذه على بنى إسرائيل ونقضهم له ، وتحريفهم للتوراة عن مواضعها ، ونسيانهم العظات والعبر التى ذكروا بها فى التوراة ، وخياناتهم للرسول ولمواثيقه إلا قليلا منهم ، ومع ذلك فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح عنهم ، وبالإحسان إليهم .

ب — ويذكر الميثاق الذى أخذ على أتباع المسيح عيسى عليه السلام ،

ونسيانهم لما ذكروا به فى التوراة من الأحكام والعظات ، واختلافهم فرقا وطوائف متشاحنة إلى يوم القيامة .

ج — ويخاطب أهل الكتاب عامة من يهود ونصارى مطالبا لهم بالإيمان بمحمد ورسالته وكتابه وفرقانه المبين ، الهادى إلى سواء السبيل ، والمبين للكتابيين عامة ما أخفوه من كتبهم المقدسة .

د — ويذكر الله عز وجل أثر ذلك لونا من عقائد المسيحيين الباطلة ، من زعم بعض فرقهم أن الله هو المسيح بن مريم ، ويرد على ذلك ردا بليغا ، كما يذكر افتراءات اليهود على الله ويرد عليهم .

ه — ويكرر الله عز وجل دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بمحمد ورسالته وكتابه ، موبخا لهم على صنعيهم وعلى أعذارهم التى يحتجون بها أمام الناس .

و — ثم يذكر ماضى بنى إسرائيل فى الكفر واللحجاج مع موسى نبيهم عليه السلام ، فى إفاضة وقوة وروعة بيان .

٥ — وفى الربع الخامس من هذا الجزء ، أو الثالث من سورة المائدة يذكر الله عز وجل :

ا — جريمة قابيل ولد آدم حين قتل أخاه هابيل ، وهى أول جريمة وقعت فى الأرض ، وكيف خسر قابيل بهذه الجريمة رضاء الله ، ورضاء أبويه وخسر رضاء الإنسانية عامة ، وكان من أصحاب الجحيم ، وشريعة التوراة فى القتل والتحذير منه ، وتعظيم أمره ، وكيف توالت الرسل عليهم بالبينات والعظات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون فى إزهاق الأرواح ، وانتهاك الحرمات ، وارتكاب الموبقات .

ب — ويذكر عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، إلا الذين تابوا وندموا إلى الله من قبل أن يقدر عليهم ولى الأمر .

ج — ويطالب الله عز وجل المؤمنين بالتقوى ، وبالتقرب إليه بالأعمال

الصالحة والنيات الطيبة ، وبالجهاد فى سبيله ، وينذر الكافرين ويحذرهم من عذاب النار الأليم .

د — ويشير إلى عقوبة السرقة وتوقيعها على السارقين والسارقات ، إلا الذين تابوا وأصلحوا قبل أن يعاقب فأولئك يتوب الله عليهم . . ثم يوضح الله عز وجل أن ملك السماء والأرض له وحده ، وهو القادر على أن يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء . .

٦ — وفى الربع السادس : ا — يواسى الله عز وجل رسوله الكريم ، ويطلب إليه أن لا يحزن ولا يبتئس ، لمسارعة الكافرين فى كفرهم ، والمنافقين فى نفاقهم ، ولصنيع اليهود معه ، ومحاربتهم لدعوته .. ويذكر الله عز وجل صنيعهم الآثم ، من كثرة سماعهم للكذب ، وأكلهم للسحت ، وإنكارهم للأحكام التى جاءت بها توراتهم ، واحتكامهم إلى الرسول لتخف العقوبة عليهم ، ويطلب الله عز وجل إلى رسوله أن يحكم - إذا حكم بينهم - بالقسط والعدل ، ويوبخهم على تركهم التوراة وتشريعاتها وخاصة فى شريعة القصاص .

ب — ويذكر الله عز وجل رسالة عيسى وكتابه الإنجيل بعد رسالة موسى ، وأن قوم المسيح طولبوا بالعمل بما فيه بعد بعثة عيسى .

ج — ثم يذكر رسالة محمد وكتابه الذى نزل عليه بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها ، ويطلب الله عز وجل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن لا يتبع أهواء أهل الكتاب ، وأن يحكم بينهم بما أنزل الله ، ويكرر نهيه لرسوله الكريم حتى لا يتبع أهواءهم ، لأنهم ينشدون حكم الجاهلية لا حكم السماء . .

٧ — وفى الربع السابع من هذا الجزء الكريم ، أو الخامس من سورة المائدة :

ا — ينهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يتخذوا اليهود والنصارى

أولياء يحاربون بهم إخوانهم من العرب والمسلمين ؛ ويفيض القرآن الكريم في ذلك ، وفي التحذير منه ، مؤكدا أن أولياء المؤمنين هم الله ورسوله والذين آمنوا ؛ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون .

ب — ويخاطب الكتاب الحكيم أهل الكتاب على سبيل الاستفهام التوبيخي أو الإنكاري أو التقريري ، صائحا في وجوههم قائلا على لسان المسلمين : هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل؟ ..

ويذكر الله عز وجل غضبه على اليهود ، ولعنته لهم ، وكثيرا من آثامهم ومفاسدهم ومسارعتهم في الإثم والعدوان وفي أكلهم السحت ، ويوبخ الأحبار والعلماء لأنهم لم ينهوهم عن ذلك ، ويذكر الكتاب الحكيم أقوال اليهود الفاسدة في ذات الله العلي الحكيم ويرد عليهم ردا بليغا قويا واضحا ..

ج — ويشير الله عز وجل إلى أهل الكتاب ووقوفهم في وجه رسالة محمد عليه السلام ، ويقرر أنهم لو آمنوا لنالوا الفوز والرضوان في الدنيا والآخرة ..

٨ — أما الربع الأخير ففيه :

ا — يحمل الله عز وجل رسوله الكريم عبء الدعوة إلى رسالة الله ، وإلى الإسلام ، وإلى الإيمان بالقرآن الحكيم ؛ ويبشر بعصمته له من أذى الكافرين والمشركين والناس أجمعين ..

ب — ويطلب إلى أهل الكتاب أن يقيموا التوراة والإنجيل ويعملوا بما فيهما من أحكام ، ويصدقوا بما فيهما من بشارات بنبي الإسلام عليه السلام ، مبينا جزاء المؤمنين ومن المسلمين اليهود والنصارى في الدنيا والآخرة من رضاء الله ورضوانه ..

ج — وفيه يذكر الله عز وجل الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل ، ونقضهم له ، وكفرهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ؛ ويذكر مغالاة النصارى في رفع المسيح إلى مرتبة الألوهية ، بقولهم إن الله هو المسيح ابن مر

وبقولهم إن الله ثالث ثلاثة ؛ ويكذبهم فى ذلك ، ويطلب إليهم الرجوع عنه ، مقررا حقيقة المسيح من أنه بشر رسول ، ويطلب القرآن الحكيم إلى المسيحيين خاصة وإلى أهل الكتاب عامة أن لا يغلوا فى الدين ، وأن لا يتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ، وهم اليهود الذين لعنهم الله بسبب كفرهم وعصيانهم واعتدائهم على حرمات الله ، وعدم تناهيهم عن المنكر ، وبسبب اتخاذهم المشركين أولياء لهم ، يحاربون بهم رسول الله ونبى الإسلام ، محمد عليه السلام ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى موسى أو محمد عليهما السلام وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون خارجون على الله وطاعته .

وبهذا ينتهى هذا الجزء الكريم ، وتنتهى ستة أرباع من سورة المائدة ، ذكرت فى كل ربع منها كلمة الميثاق والعهد مرارا ، وطالب الله عز وجل الناس بالوفاء بالمواثيق والعهود ، وحذر من نقضهما والخيانة فيهما ، وذكر صنيع أهل الكتاب فى نقضهم لعهود الله ومواثيقه ، فى الكتب المقدسة وفى تعاليم الرسل والأنبياء ، وما استحقوه بسبب ذلك من غضب الله ولعنته وعذابه الشديد .

(٢)

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن سورة المائدة قد سميت بذلك لأنها هى السورة التى تحدثت — كما يقول الأستاذ الشيخ شلتوت فى دراسة له نشرت فى مجلة رسالة الإسلام — عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه ، وذلك فى قوله تعالى : « إذا قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه

أحدا من العالمين » . والحواريون : جمع حوارى ، والحوارى لعيسى عليه السلام كالأنصارى لمحمد عليه السلام ، وأصل الحوارى فى اللغة : الأبيض النقى اللون ، وكانت العرب تسمى نساء المدن (حواريات) لبياضهن ونقائهن من قشف البدو . ثم استعمل الحوارى بمعنى النقى الخالص فى غير اللون ، وبهذا أطلق اللفظ على خلصاء عيسى الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق ، وخلصت لنصرته وتأييده وبادروا إلى الإيمان به ، فتلقوا عنه التعاليم وبثهم فى القرى للقيام بدعوته ، وقد جاء ذكرهم فى الأناجيل باسم «التلاميذ» والقرآن الحكيم قد ذكرهم - كما يقول أستاذنا الشيخ شلتوت - باسم «الحواريين» فى أربعة مواضع ، هذا أحدها . والثانى فى الآيات التى قبل هذه الآيات « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون » ، والثالث فى سورة آل عمران ، وذلك حيث يقول وهو بصدد الحديث عن إرسال عيسى إلى بنى إسرائيل : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . والرابع فى سورة الصف ، وذلك حيث يقول : « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . والحواريون كما تنطق هذه الآيات كانوا مؤمنين بعيسى ورسالته ، ولكن المفسرين يختلفون فى إيمانهم وعدم إيمانهم فيرى بعضهم أنهم كانوا غير مؤمنين ، ويرى آخرون أنهم مؤمنون ، ولعل منشأ هذا الاختلاف ، كما يذكر الشيخ شلتوت ، هو ما جاء فى كلامهم لعيسى عليه السلام وهم يسألونه المائدة من قولهم «هل يستطيع ربك» ، وهو يشعر بشكهم فى قدرة الله على إنزال المائدة ، وفى إضافة كلمة «رب» إلى خصوص عيسى إشعار واضح بتبرئهم من ربوبيته لهم ، وهو

نظير إضافة فرعون كلمة إله إلى موسى فى قوله : « لعلى أطلع إلى إله موسى »
ومن قولهم : « ونعلم أن قد صدقتنا » وهو واضح فى ان قلوبهم لايزال مرض
التكذيب يلعب بها . وما جاء فى كلام عيسى عليه السلام لهم : « اتقوا الله إن
كنتم مؤمنين » فإنه يدل على عدم وثوقه بإيمانهم . ولكن ما جاء فى الآيات
الأخرى التى ذكر فيها الحواريون وقد أوردناها بنصها آنفا ، صريح فى إيمانهم ،
وإخلاصهم فى الإيمان وواضح فى نصرتهم لعيسى . وقد اتخذ فريق من العلماء
ماجاء فى آية السؤال ، اصلا فى معرفة حالهم ، وقال : إنهم كانوا كافرين ،
شاكين فى قدرة الله ، شاكين فى صدق عيسى ، وعيسى شاك فى إيمانهم ،
وآية السؤال تدل على هذا ، ولم يرد فى شىء من الآيات الأخرى أن الله شهد
بإيمانهم أو قرر انهم مؤمنون ، وإنما جاءت كلها تحكى ادعاءهم أنهم آمنوا : « قالوا
آمنا ، واشهد بأننا مسلمون » « قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد
بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .
وقد أظهر سؤالهم لعيسى فى شأن المائدة حقيقة ماانطوى عليه قلوبهم من شك
فى ربهم ، وشك فى قدرته . وشك فى أن عيسى صدقهم ، كما ظهرت حقيقتهم من
جواب عيسى لهم . ففريق من العلماء إذن يذهبون إلى أن الحواريين كانوا
كافرين . أما الفريق الآخر فقد اتخذ الآيات الأخرى أصلا فى معرفة حالهم
وقالوا إنهم كانوا مؤمنين ، فقد امتن الله بإيحاء الإيمان إليهم ، واعتبره نعمة
يذكر بها عيسى ضمن نعمه الأخرى عليه : « وإذ أوحيت إلى الحواريين
أن آمنوا بى وبرسولى » والسياق امتنان الله على عيسى وعلى والدته بنعم الله
عليهما : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ
أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة
والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى » إلى أن قال
بطريق العطف على ما عد من نعم : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا
بى وبرسولى » فالسياق كما ترى امتنان بالنعم ، وما كان الله ليمن بشىء وهو
يعلم عدم حصوله ، وما ألهمه الله عبده من عقيدة أو عمل لابد أن

يكون « وأوحى ربك إلى النحل » . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » .
« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » وهذا من ذاك ،
ولو كانوا غير مؤمنين ، والله يعلم منهم عدم الإيمان والتظاهر بالإيمان لكانوا
من المنافقين الذين يسرون الكفر ويعلنون الإيمان ، وما كانت سنة الله مع
أنبيائه إلا أن يظهر لهم نفاق المنافقين ، ويكشف عن حقيقة نواياهم ، وليس
من سنته ، ولا من المعقول أن يكون من سنته ـ أن يجاريهم فيما يدعون دون
أن يفضح لأنبيائه نياتهم « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز
الخبيث من الطيب » . هذا وقد ضرب الله وراء ذلك إخلاصهم لعيسى عليه
السلام ، ونصرتهم إياه مثلا للمؤمنين ، وطلب منهم احتذاءه ، وأن يكونوا
من محمد كما كان الحواريون من عيسى ، وما كان الله ليضرب إخلاصهم مثلا
للمؤمنين ، ويطلب منهم ن يكونوا مع محمد كما كان الحواريون مع عيسى
إلا وهو يعلم صدقهم فى الإيمان ، وإخلاصهم فى النصرة « يأيها الذين آمنوا
كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ، قال
الحواريون نحن أنصار الله » ويقول أستاذنا الشيخ شلتوت: إنه من الجائز أن
يكون الحواريون ممن تريثوا فى بادىء الدعوة وناقشوا فيها ، وطلبوا الآيات
عليها مرة بعد مرة حتى يطمئنوا ويصلوا إلى الإيمان بعد الشك ، فإن دل
كلامهم فى آية السؤال على شىء من الشك فإنما كان ذلك مرحلة النظر
والاستدلال . وإذا دلت الآيات الأخرى على إيمانهم فإنما كان ذلك بعد
انتهاء هذه المرحلة وتقرر الإيمان فى نفوسهم ، على أنه إذا فرض إيمانهم من
أول الأمر وعدم ترددهم فى صدق عيسى ، فليس فى آية السؤال ما يترجح به
شكهم على إيمانهم ، ذلك أن « استطاع » تأتى أحيانا بمعنى أطاع كما قالوا :
« استجاب » بمعنى أجاب ، ويكون المعنى على هذا : هل يطيعك ربك إن
سألته إنزال المائدة؟ وقد تلتقى مع هذا المعنى قراءة : « هل تستطيع ربك »
أى هل تستطيع أن تسأله وأنت على اطمئنان من أنه يستجيب لك ، وهذه

القراءة مروية عن عائشة وابن عباس وغيرهم ، وقالت رضى الله تعالى عنها : كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا « هل يستطيع ربك » ولكن «هل تستطيع ربك» ، وعن معاذ بن جبل قال أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم : « هل تستطيع ربك » ، وقال : « سمعته مراراً يقرأ بالتاء « هل تستطيع ربك » ، وإذا كانت هذه القراءة بتلك المكانة فى الرواية ومعناها واضح فى عدم شكهم فلتحمل عليها القراءة الأخرى جمعا بين القراءتين ، وعملا بالآيات الواضحة فى إيمانهم وصدق قدمهم فى تصديق عيسى عليه السلام ، على أن مجرد السؤال لا يدل على المكابرة وعدم الإيمان ، وها هو ذا إبراهيم عليه السلام يسأل : « رب أرنى كيف تحيي الموتى » ؟ فيجاب : « أو لم تؤمن » ؟ فيقول : « بلى ، ولكن ليطمئن قلبى » ، ويقول الرازى فى تفسيره : « تأمل فى هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضا ، فقدموا ذكر الأكل . فقالوا : نريد أن نأكل منها . وأخروا الأغراض الدينية الروحانية ، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة ، وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية ، بعد أن توجه بالخطاب إلى الله بوصف الربوبية بالإضافة إلى ضمير المتكلم ، وفيه التمهيد بحاجة المربوبية إلى غنى الربوبية ، فقال : « تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك » . وأخر غرض الأكل حيث قال : « وارزقنا » . وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح فى كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية ، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه ، وإشراق روحه ، لما ذكر الرزق بقوله : « وارزقنا » لم يقف عليه ، بل انتقل إلى الرازق فقال : « وأنت خير الرازقين » . فقوله « ربنا » ابتداء منه بذكر الحق سبحانه ، وقوله « أنزل علينا » انتقال من الذات إلى الصفات ، وقوله « تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا » إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم . وقوله « وآية منك » إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال وقوله « وارزقنا » إشارة إلى حصة النفس .. قال الرازى . فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدنى ، ثم قال :

« وأنت خير الرازقين » وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير الله إلى الله ، ومن الأخس إلى الأشرف ، وعند ذلك تلوح لك كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ، ونزولها . وهذا سبح لا يحد شاطؤه ، تسبح فى أجوائه وآفاقه الأرواح الصافية ، والقلوب المتعلقة بحضرة مالك القلوب ، وليس ذلك مما يمكن تحديده بالعبارات ولا رسمه بالكلام ، وإنما هو إيمان وذوق ، فآمن وتأمل وتنقل فى درجات الإيمان ومراتب التعلق ، تحظ بإدراك الخير كله ، ويملك قلبك عز المعرفة ، وسمو الجلال .

وقد تكلم العلماء أيضاً فى هذا المقام على المائدة التى سألها الحواريون عيسى ، هل نزلت أم لا ؟ وتكلموا على أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب ، وهو كله من افتراء المفترين ، أو أساطير الإسرائيليين ، أما نزول المائدة فقد ذكرت كتب التفسير أن العلماء اختلفوا فيه ، وأن الجمهور على أنها نزلت وقد تعددت الروايات على هذا الرأى فيما كان عليها من أصناف الطعام وألوانه ، وعن كيفية نزولها ومكانه ، وكيفية استقبالها وكشف غطائها ، والأكل منها ، والباقى عليها بعد الأكل إلى غير ذلك ، مما يضرب عنه صفحا . وأن الحسن ومجاهداً وقتادة قالوا : إنها لم تنزل. وذكروا فى ذلك أنه لما قيل لهم : « إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » ـ وهو واضح فى التوعد بالعذاب الشديد عند عدم إيمانهم بعيسى ودعوته ـ استعفوا واستغفروا الله وقالوا : لا نريدها . وقد أنبأنا القرآن الكريم أن سنة الله فيمن يقترحون الآيات على أنبيائهم : أنه إذا أجابهم إليها ثم لم يؤمنوا عاجلهم بالعذاب « ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » ، « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » . هذا وقد استدل بعض الكاتبين كما يقول أستاذنا الشيخ شلتوت على عدم نزولها بأن النصارى لا يعرفونها وليس لها ذكر فى كتبهم ولم يكن لهم عيد يعرف بعيد المائدة من السماء ، لأن مثل هذا أمر خارق عظيم للعادة من شأنه أن تتوافر الروايات على نقله وتواتره لغرابته ، فلو كانت المائدة قد نزلت لكان

خبرها . موجوداً فى كتبهم ، وكان متواتراً ، مع أنها لم توجد حتى ولا برواية الآحاد ، ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعنى عدم نزولها فقط ، فقد يكون له شيء من الوجاهة ، وإن كان يعنى أنها لم تنزل ولم تسأل ، فهو محل نظر كبير ؛ لأن السؤال ما لم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ، ويرونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم ، فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعى على نقله ، لاسيما وعيسى فى بيئة محصورة : جماعة سألوا وأجيبوا ، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا ، فعدم تواتر سؤالها فى كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا ، وأكلوا منها ، وتذوقوا طعامها ، ولم يذكر عن ذلك شيء .

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب ، ولا يلزم أن يكون كل ماقصه الله تعالى فى القرآن قد قصه فى غيره من الكتب المتقدمة ، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شيء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصة التى لم تنته بحادث كونى ، حتى يكون عدم ذكرهم إياها فى أناجيلهم التى وضعوها دليلا على عدم سؤالها ، فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين ، ومن الجائز أن تكون مما ورد فى الإنجيل ، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب ، أو ضاع منهم علمه بسبب ما ، والقرآن كما وصف نفسه مهيمن على كتبهم التى وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها ، وأنه يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون . ومما سبق يتبين أن الرأى فى المسألة دائر بين رأى الجمهور القائلين بالنزول ، ورأى الحسن ومن معه القائلين بعدم النزول ، وأن الفريقين متفقان على أن الحواريين سألوا عيسى أن يسألها ربه ، وأن الله أجاب بما أجاب ، وأن الجمهور يرون أن قوله: «إنى منزلها» وعد ووعد الله لايتخلف ، فلا بد أن تكون قد نزلت ، وأن الحسن وأصحابه يرون أنه وعد مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وأن القوم أشفقوا على أنفسهم بثقل هذا الشرط فرجعوا واستعفوا؟

من طلبها مخافة أن يحل بهم العذاب على فرض كفرهم ، أو كفر أحد من معاصريهم بعد نزولها ، وعليه فلم يعد هناك مبرر لإنزالها فلم تنزل . وسواء علينا أقلنا بنزولها كما يعزى إلى الجمهور ويرجحه ابن جرير ، أم قلنا بعدم نزولها كما يعزى إلى الحسن ومجاهد وقتادة ما دمنا نؤمن بأن الحواريين سألوا عيسى أن يسأل ربه المائدة ، وأن عيسى عليه السلام سألها ربه بناء على سؤالهم ، وأن الله تعالى أجاب بما أجاب به وعداً غير مقيد كما يرى الجمهور ، أو مقيداً كما يروى الحسن ومن معه ، سواء علينا هذا أو ذاك ما دمنا نعتقد فيما قصه القرآن علينا ، والله لم يكلفنا باعتقاد واحد من الأمرين ، وليس فى القرآن مايقطع بأحدهما عينا حتى تكون مخالفة لقطعى فى ثبوته ودلالته ، والآيات كما ترى محتملة للرأيين ، فلكل من اطمأن إلى أحد الاحتمالين : النزول أو عدمه أن يعتقده ، أما أن يقال : إن الحواريين لم يسألوا ، وإن عيسى لم يسأل ربه، وإن الله لم يجب بما أجاب ، اعتماداً على أن خبر المائدة لاتعرفه النصارى ، ولا هو موجود فى كتبهم ، فهو قول يخرج بصاحبه إلى إنكار صريح القرآن البين فى سؤال المائدة وإجابة الله عيسى عليه السلام .

(٣)

وبعد ، فهذا هو الجزء السادس من الكتاب الحكيم ، وهذه هى أهم مناحيه ومراميه : فى الهداية إلى الله وإلى دينه القويم ، وفى دعوة أهل الكتاب عامة من يهود ونصارى ، إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، وبالقرآن ودعوته ، وبالإسلام وشريعته ، وفى دعوة المشركين إلى الإيمان ، وتحذيرهم من ضلال الوثنية وطغيانها على قلوبهم وعقولهم وأرواحهم ، وفى شرح كثير من أحكام الإسلام : فى الأسرة وفى العبادة وفى الطعام حلاله وحرامه ، وفى أصول الإسلام وقواعده وخلاصة دعوته . . والله ولى التوفيق ؟

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، وبعد : فهذه هي نهاية الجزء السادس من كتابي « تفسير القرآن الحكيم » ، الذي أرجو أن يجعله الله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يعم النفع به جميع المسلمين ...

وقد احتوى الجزء السادس من القرآن الكريم على أصول جليلة ، وعلى مبادىء رفيعة ، من أصول ومبادىء الإسلام ديننا الخالد العظيم ، واشتمل على دعوات إلهية كريمة لأهل الكتاب بأن يؤمنوا برسالة الإسلام ، وأن يصدقوا محمدا عليه السلام فيما بلغ به عن ربه ، وما أخبر به عن خالقه ومولاه .

وقد أبنت في هذا الجزء من تفسيري لكتاب الله المعالم الواضحة التي يهتدى بها في فهم آياته في هذا المقام ، ويستعان بها على تعرف مرماها ومغزاها ، وشرحت الأغراض التي تضمنتها ، والموضوعات التي تناولتها شرحا وافياً مستوعيا . على أنه ليس في وسعي شيء يمكن بذله لم أبذله في سبيل نشر هذه الموسوعة الإسلامية الضخمة ، التي من أجل أهدافها تقريب مبادىء الإسلام وأصوله إلى أذهان الشباب الإسلامي في كل مكان ، وإلى عقول المفكرين والباحثين في العالم كافة ، في هذا القرن الذي نعيش فيه ، والذي تبذل فيه الأموال الطائلة للدعاية للمبادىء والمذاهب والمعتقدات والآراء .

وليس في وسعي — كمسلم — أن أصنع أكثر مما أصنع ، أو أن أعمل شيئا فوق ما أعمل ، في سبيل شرح الإسلام وتيسير فهمه وتقريب أفكاره وآرائه إلى أذهان الناس جميعاً ، في عصر الحضارة العلمية والمبتدعات الكونية العجيبة في النصف الثاني من القرن العشرين ...

وإذا كان المجاهدون يجاهدون بأرواحهم وأنفسهم فى سبيل المبادىء الشريفة التى يعتنقونها ، فحسبى أن أسهم فى الجهاد فى سبيل الله والخير والمثل الشريفة الكريمة والأصول الجليلة الرفيعة ، فى سبيل الإسلام وكتابه الحكيم ، بنشر هذه الموسوعة الإسلامية التى أرجو أن يعم النفع بها ، وأن تكون خالصة لوجهه الكريم ، ومن الله التوفيق ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

نبوءات بمحمد ورسالته وبالقرآن

جاء فى الكتب نبوءات كثيرة بمحمد صلوات الله عليه ، ففى أشعيا :

١ — إن الرب استعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار وفى عينه سنة النار . كما أن مجىء الرب من سينا فى قول أشعيا كناية عن موسى وإشراقه فى ساعير كناية عن عيسى عليهما السلام ، لأن جبال فاران هى مكة كما جاء فى سفر التكوين عن إسماعيل عليه السلام أنه سكن فاران ، وقوله معه ألوف الأطهار كناية عن أتباع محمد عليه السلام الطاهرين من كل الشوائب كما هو مشاهد فيهم ، وقوله فى عينه سنة النار كناية عن مشروعية الجهاد فى شريعته .

٢ — إنه يقيمه الرب نبيا من وسط إخوتهم ، وليس إخوة إسرائيل إلا بنى إسماعيل .

٣ — وإنه مثل موسى يعنى فى شريعته ومشروعية الأحكام والجهاد فيها .

٤ — وجعل كلام الرب فى فمه هو ذلك القرآن الذى أتى به فى غاية الكمال .

ويقول يوحنا عن الرسول : إنه الذى يعلم كل شىء يعنى من الحقائق والمعارف التى نراه يعلمها أتباعه ، وأنه هو المذكر بما قاله عيسى عليه السلام يعنى من التوحيد والإيمان والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة .

وإنه الذى يشهد لأجل عيسى عليهما السلام يعنى بالنبوة والرسالة وبراءته مما قيل فيه ، وإنه لم يجىء حتى يذهب عيسى عليه السلام وكان الأمر كذلك ، وإنه يوبخ العالم على الخطيئة فإنا نراه يوبخ كل ذى معصية وإثم .

وتصفه المزامير بكونه حسنا فإنه فى أعلى طبقات الحسن ، وكون الحكمة منسكبة على شفتيه ، وذلك ظاهر فى ذلك القرآن الذى يتلوه والحكم التى يجلوها والمعارف التى أبرزها ، وبكونه متقلدا سيفا فهو ملتزم محاربة أعداء دينه . وبكونه قويا فهو قوى الحجة متين السياسة قوى الجسم فقد صرع أشداء العرب . وبكونه ذاحق ، وبكونه ذا دعة ، وبكونه ذا صدق ، فهذه الصفات

الثلاثة ظاهرة فيه ، وبكونه نبلة مسنونة ؛ فاستعداده هو وأتباعه للأعداء في أدوات الرمى أمر معلوم . وهم مأمورون فى شريعته بتعلمه ومن نسيه منهم بعد أن تعلمه يحكم عليهم بالإثم ، وبكون الشعب تحته فهو قد استولى على الشعب العربى تقريبا ، وبكونه محبا للبر، وبكونه مبغضا للإثم ، فكلا الأمرين محقق فيه يشهد له بهما ألد أعدائه ، وبكون بنات الملوك تخدمه ، فهذه بنات أمراء العرب يجلبن أسيرات إليه ، وهذه صفية بنت أحطب صارت زوجته وهى بنت ملك من ملوك اليهود ، وبكون الهدايا ترد إليه من الملوك ، فهذا النجاشى ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وغيرهما يقدمون له الهدايا ، وبكون الأغنياء تنقاد له فهؤلاء أغنياء أتباعه يدفعون زكاة أموالهم للفقراء بمقتضى أوامره .

ويصدق ما فى أشعيا أيضاً على صلاته التى فرضت فى شريعته من أنها تسبيحة جديدة ، لأنه لم يعهد فى الشرائع الماضية عبادة تشاكلها ، وأنه يعممها على سكان الأرض وأهل الجزائر والبرارى ، فهى أول عبادة فى دينه بعد الإيمان لا يستثنى منها مكلف ، وأن البرية ترفع صوتها بذكره وهى الديار التى يسكنها قيدار وهو أحد أجداده فى سلسلة النسب الذى بينه وبين إسماعيل عليهما السلام وهى بلاد العرب ، وقد طبق ذكره تلك البلاد بل ملأ المسكونة من أغوار وأنجاد ، وأنه به يترنم سالع وهو سلع من رؤوس الجبال . فهؤلاء أتباعه يهتفون بذكره فى رؤوس الجبال وقمم الآكام فى الأذان ، والصلاة عليه والتسليم فى كل آن ، وأنه يخبر بحمده وهو الأذان فى خمسة أوقات فى اليوم والليلة ، يذكر فيه اسمه ويشهد له بالرسالة ، وهو يسير فى طريق لم يعرفوها وهم العرب أجهل خلق بالله فى الأديان . وقد سيرهم فى طريق دينه الذى لم يعرفوه ، وهو يخزى عباد الأوثان المنحوتة ، فهو أشد خلق الله عليهم وقرآنه مملوء بتسفيه أحلامهم والطعن فى أصنامهم ، وهو القتول الذى خلق لإهلاك من أشرك بالله تعالى .

ويصدق على محمد صلوات الله عليه ما فى متى ، من أنه الحجر الذى رفضه

البناؤون صار رأس الزاوية لأنه من نسل هاجر الذين كان بنو إسرائيل يحتقرونهم ويقولون عنهم أبناء الجارية . ويصدق عليه فى المشاهدات من أنه الذى أعطى سلطانا على الأمم وهو يرعاهم بقضيب من حديد، لأنا نراه قد أعطى ذلك السلطان كما هو مشاهد فيه ، فقد خضعت له أعظم القبائل أصحاب الأنفة وقضيبه الحديد هو سيفه الذى زجر وساق به من عصاه ، وهذا القرآن الذى جاء به إذا تأملنا هدايته لمنهج الخيرات وجدناه كوكب الصبح الذى يعطاه .

ويصدق عليه ما فى المزامير من أن الحبشة تبحث له ، فهذا نجاشيها قد آمن به ، وهذه ملوك اليمن تأتيه بالقرابين ، وهذه الأمم تخضع وتدين له بالطاعة ، وهو مخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه ، لأنا نراه يحذر من ظلم الأقوياء للضعفاء وينهى عنه أشد النهى ، ويكف الظالم عن ظلمه مادة وأدبا ، وهو ينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، فإنا نرى هـذا شأنه كما هو مشاهد فيه ، وهو رؤوف بالضعفاء والمساكين كما هو معلوم من حاله ، ولا يزال يتودد إليهم حتى يعد نفسه منهم ويدعو ربه بذلك ، فهو يقول : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين ، وهو ينقذهم من الربا فقد شدد على منع الربا شفقة على المساكين الذين يحتاجون للاستقراض ، وحضا للأغنياء على عمل المعروف بالإقراض ، وقد قال فى بعض خطبه : كل ربا تحت قدمى ، وهو يعطى من ذهب سبا وهى إحدى جهات اليمن فهذا خراجها يجبى إليه ، وهو يبارك عليه فى كل يوم كما هى عبادة أتباعه ، فهم فى كل يوم فى صلواتهم يقولون ما ينوف عن العشرين مرة : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ويقولون ما ينوف عن عشر مرات : وبارك على محمد وعلى آل محمد ، ونراه هو وأتباعه مثل الزرع الكثير على وجـه الأرض فى الأخذ فى النمو من يوم قام بدعواه إلى الآن .

ويصدق عليه ما فى أشعيا أيضاً من أنه معضد مختار ؛ وهذا ظاهر فيه من تقدم أمره يوما فيوما ، ومن أنه يسعى فى إظهار الدين الذى ادعاه دين الله من غير ملال ولا كلال ، وهو رئيس السلام ، لأنه منع الحروب الجاهلية التى

كانت بين العرب والتى لا ثمرة لها إلا إتلاف النفوس، وجهاده لأعدائه إنما كان لتثبيت الدين الذى يدعو إليه ، وهو دين الله تعالى ، ولتقرير السلام بين العالم؛ فهو من قبيل : القتل أنفى للقتل ، وسلطانه يكثر يوما فيوما كما هو مشاهد ، ويكثر سلامه لأنه كلما ازدادت أتباعه راقت الأحوال وزالت الفتن الجاهلية ، وبعد ظهوره تكسرت الأصنام وألقيت على الأرض ،كما فعل عليه السلام بها عند فتح مكة ودخوله الكعبة ، فصار يلق الأصنام عنها فتتكسر .

ويصدق عليه ما فى رؤيا يوحنا : وهو يدعى الرسالة ، فكان يقال له : محمد الأمين ، ويحكم بالعدل ويحارب ، وهكذا نرى حاله حتى أنه يفرض على أمته الحكم بالعدل ولو كان المرء يحكم على نفسه أو ولده . ومحاربته كذلك بالعدل ، لا يغدر إذا عاهد ، ولا يقتل فى جهاد صبياً ولا امرأة ولا عاجزاً عن مباشرة الحرب وتدبيرها ، ولا منعزلا لما يعتقده من العبادة .

فهرست الجزء السادس

من القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
٤	تمهيد
٦	نوعان من الحديث
٨	كافرون ومؤمنون
١٠	جرائم اليهود فى عهد موسى وعيسى
٢٠	طبقتان من اليهود : كافرون ومؤمنون
٢٣	مغزى الربع الأول
٢٩	رسالات الله إلى محمد والرسل من قبل
٣٣	رسل مبشرون ومنذرون
٣٧	الحكمة من إرسال الرسل
٤٠	الكافرون برسالة محمد ، ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بها
٤٣	مغالاة أهل الكتاب فى المسيح
٤٨	تمجيد رسالة محمد والكتاب المنزل عليه
٥١	محمد والقرآن الحكيم
٥٤	الكلالة وحكمها
٥٧	موضوعات الربع الثانى
٥٨	خلاصات للأصول التى اشتملت عليها سورة النساء
٦٣	سورة المائدة
٦٤	تمهيد
٦٦	« أوفوا بالعقود »
٦٨	لا تحلوا شعائر الله
٧٢	الحرام والحلال من الذبائح والطعام والنساء
٨٢	الوضوء والتيمم
٨٦	دعوة إلى القيام بحقوق الله وإلى العدل . وحديث إلى المؤمنين والكافرين
٩٠	مغزى الربع الثالث . وموضوعاته
٩٢	الحديث إلى أهل الكتاب
٩٧	الإنجيل وتاريخه
١٠١	حديث آخر إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى
١٠٥	قصة لليهود مع موسى
١١٣	مغزى الربع الرابع
١١٤	قصة قابيل وهابيل

الصفحة	الموضوع
١٢١	جزاء الذين يحاربون الله ورسوله
١٢٧	إلى المؤمنين والكافرين
١٢٩	عقوبة السرقة فى الإسلام
١٣٢	مغزى الربع الخامس
١٣٢	اليهود والرسول
١٤٢	أتباع المسيح والرسول
١٤٤	القرآن ورسالة محمد
١٥٠	مغزى الربع السادس
١٥١	النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء يستعان بهم على محاربة الإسلام والمسلمين
١٦٣	جرائم ومفتريات لليهود
١٧٠	لو آمن أهل الكتاب
١٧٣	مغزى الربع السابع
١٧٣	تكليف الله لرسوله بتبليغ دعوة الإسلام
١٧٥	نداء إلى أهل الكتاب
١٧٧	أخذ الله عز وجل الميثاق على اليهود بأن يؤمنوا برسالة موسى ومحمد عليهما السلام ونقضهم لهذا الميثاق
١٧٩	بعض اعتقادات النصارى الفاسدة فى المسيح
١٨٢	ترك المغالاة فى الدين والعقيدة وتنزيه الله وتقديسه
١٨٤	غضب نبى الله داود على بنى إسرائيل ولعنة المسيح لهم
١٨٧	نظرة عامة فى هذا الجزء
٢١٦	خاتمة هذا الجزء

للمؤلف

قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
» » » الأندلس - ٥ »
» » المعاصر - ٤ »
الأزهر في ألف عام - ٣ »
صور من الأدب الحديث - ٤ »
رائد الشعر الحديث - جزءان
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ »
دراسات في الأدب والنقد
مع الشعراء المعاصرين
الذكر الحكيم
الشعر والتجديد
مواكب الحرية في مصر الإسلامية
في ظلال الإسلام - بالاشتراك